العدد ١٦١ - رجب ١٤٠٩هـ - أبريل/نيسان ١٩٨٩م



مجلة شهرية ثقافية جامعة

ملتقى الإبداع العربي والثقافة الإنسانية

- حول عقدة التفوق بين المغرب والمشرق في الثقافة العربية
  د. محمد جابر الأنصاري
- احذر القاتل الصامت وعلاجه
  د. عبد المحسن صالح
- هل توجد حضارات عاقلة في الفضاء؟
  سعد شعبان

الإنسان والعطور منذ أقدم العصور

بين المشرق والمغرب
وقفة ختامية

مرة أخرى وأخيرة.. هل هي عقدة تفوق مشرقية ضد الثقافة المغربية ؟

أشرنا في « مرافعتنا » السابقة في هذه القضية إلى ما يمكن تسميته بالتوزيع الجغرافي للإهمال مشرقاً ومغرباً . ولاحظنا ــ ولعل الإخوة في المغرب العربي شاركونا الملاحظة والاقتناع ــ كيف أن ذلك التوزيع كان « عادلاً » في إهماله للمغرب والمشرق على حد سواء وبالقسطاس المستقيم !

وأن اليمن وعمان والجزيرة والخليج لم تكن بأسعد حظاً من المغرب وتونس والجزائر وليبيا ، في دائرة اهتمام أوساط النشر والتأليف والصحافة في عواصم المشرق الأوسط.. لدى أولئك الاخوة « الأفندية » العصريين من البيارتة والقاهريين ، والدماشقة والبغداديين ، خاصة في تلك العقود من السنين ذات الجاذبية الأوروبية ــ حيث اجتذبتهم ليالي الأنس في ڤيينا ــ فصرفتهم عن الاهتمام بليالي البؤس في قرى الريف العربي الكبير ، مشرقاً ومغرباً ، بما في ذلك أرياف أقطارهم ذاتها (ضمن ظاهرة الجفاء وتبادل اللامبالاة بين الريف والمدينة في عالمنا العربي حتى يومنا هذا ..)



بقلم: الدكتور محمد جابر الأنصاري

وحتى تصل الى فصل المقال في هذا الاشكال ، دعونا نخرج من محور المقابلة بين المشرق والمغرب تماما ، وننظر الى اقليم وادي النيل في حد ذاته كمثال محايد . ونتأمل فيما يناله جنوب الوادي ــ أي السودان بما في ذلك عاصمته الخرطوم ــ من اهتمام الأوساط الأدبية والصحفية والعلمية في عاصمة الشمال ، أي القاهرة.. ليس في الثلاثينات والأربعينات.. وإنما في أيامنا هذه.. وفي إطار التكامل بين قطري وادي النيل .. ان آخر مواجهة صحفية شهدناها بين الجنوب والشمال ، وليس بين المغرب والمشرق هذه المرة ! هي المواجهة التي جرت قبل بضعة أشهر فقط ودارت حول عتب الأشقاء السودانيين في جنوب الوادي على صحافة وصحف العاصمة الشمالية ، وكيف أنها لا تنشر عنهم إلا النزر اليسير ، ولا تعرف عنهم وعن شؤونهم وشجونهم إلا أقل القليل ، بينما هم يقرؤونها من ألفها الى يائها ويعرفون كل شيء عن نجومها.. وهمومها.. على حد سواء !

فتلك هي قصة أزلية ، ومشكلة عربية باتجاه الشرق والغرب والشمال والجنوب !.. إنها عقدة الجهات الأربع تجاه المركز. لا عقدة المغرب تجاه المشرق.. فحسب .

ثم هي أخيرا قضية معرفة النفس لدى الانسان العربي والعقل العربي ، والأمة العربية كمجموع . هل عرفت العاصمة ذاتها : معرفة ثاقبة شافية ، حتى تعرف ريفها.. وتعرف شقيقاتها.. وتعرف مشرقها ومغربها ، وشمالها وجنوبها ؟

ان ما تكتبه العواصم الأجنبية عنا وعن عواصمنا ــ مشرقا ومغربا ــ يفوق ما نكتبه عن أنفسنا في كل عواصمنا من حيث الدقة والاحاطة والشمول والنفاذ. فليعرف مشرقنا نفسه أولاً معرفة وثيقة ، وليعرف مغربنا نفسه بالمثل معرفة أكيدة.. ثم لنتعاتب في مجال التعريف والتعارف فيما بيننا . أما أن نتعاتب في مسألة التوزيع الجغرافي للإهمال المتبادل بين الجهات الأربع .. وكل منا لا يعرف نفسه أي حقيقته العلمية والحضارية والانسانية ــ معرفة حميمة.. فما جدوى العتاب.. في

تشاكي الأحباب ؟!!

* * *

من ناحية أخرى، أعتقد أن إعطاء الحساسية بين المغرب والمشرق، في المجال الثقافي، بعداً تاريخياً تراثياً كأن يرى بعض الاخوة من مثقفي المغرب في قولة الاصطخري عن المغرب بأنه «كم الثوب»، أو قولة ابن الفقيه بأنه «ذيل الطائر» ـ كما يذكرنا الأستاذ الكبير محمد مزالي في أحد هوامش كتابه الشائق في «دروب الفكر» ـ أعتقد أن إيصال المسألة الى هذا العمق التاريخي المتخيّل، يزيدها تعقيداً ولا يسهم في تيسيرها وحلها، فضلاً عن كون هذه الاشارات التاريخية التراثية إشارات نسبية محكومة بظروف الزمان والمكان ومحدودية نظرة القائل. ونحن لو فتحنا هذه «السيرة» في كتبنا الأدبية التاريخية لوجدنا أهل غرناطة يتفاخرون على أهل قرطبة، وأهل فاس على أهل مراكش، وأهل مراكش على أهل القيروان ناهيك بمدن المشرق..

ولو أخذنا ما يقوله أولئك الأسلاف المصنفون المتفاخرون وأكاد أقول القشارون مأخذ الجد، فيما ينسبونه لأنفسهم من مفاخر ولمنافسيهم ـ من الجيران الأشقاء ـ من مثالب ومعايب.. لدخلنا في مسلسل جديد من حـــروب داحس والغبـــراء.. وبصورة كاريكاتيرية هذه المرة!

ثم لو سمح لنا أولئك الاخوة المغاربة بقلب الآية، وباستعراض بعض ما قاله الرحالة المغاربة القدماء عن أقطار المشرق ومدنها وأهلها وطباعهم وأخلاقهم، فما ترانا قائلين.. عن «ظلم ذوي القربى»[1] في هذه الحالة؟

وكيف نعيب على أحمد شوقي قولته المائلة عن الجزائر بأنه.. حتى ماسح الأحذية بها «يستنكف النطق بالعربية وإذا خاطبته بها لا يجيبك إلا بالفرنسوية»[2]، ولا ننظر ـ بالمقابلة المتوازنة وعلى سبيل المثال لا الحصر ومن باب رؤية الشيء من زاويته الأخرى فحسب ـ إلى مقولة الرحالة المغربي أبو الصلت أمية الأندلسي وهو يعمم حكمه على أخلاق بلد مشرقي كبير بأكمله: «أما أخلاقهم فالغالب عليهم اتباع الشهوات، والانهماك في اللذات، والاشتغال بالترهات، والتصديق بالمحالات»[3]!! هل يستقيم حكم كهذا؟؟.

● ليالى الأنس في فيينا تصرف عدداً من الأدباء عن الاهتمام بليالي العناء في الريف العربي الكبير

● طه حسين يقرر كتاباً عن «الأدب التونسي المعاصر» على طلبة المدارس في مصر



د. محمد مزالي — د. طه حسين

أعتقد أن الدخول في هذه المتاهة، وأخذها على مأخذ الجد، كالدخول في الجدل العقيم الذي دار بين المذاهب والفرق الاسلامية تفسيقاً وتجريحاً وتكفيراً.. من زوايا الماضي الضيقة.

فتلك الأحكام والانطباعات تبقى مرهونة بظروفها الزمانية والمكانية والذاتية والمعرفية، وهي ظروف تاريخية متشابهة في المشرق والمغرب على حد سواء.. وليست تكراراً لعقدة قابيل وهابيل بين الجانبين!!

.. وأرجو ألا ندعها تصبح كذلك.. وأعتقد أنها بشيء من التروي وسعة الصدر وحس الدعابة، يمكن أن تكون ـ لمبالغتها وإقذاعها وتهويلاتها المضحكة ـ مصدراً لطرافة كبيرة بمنظارنا المعاصر إذا جلسنا نتبادلها حول مواقد الشتاء، بتشويق ساخر، سواء بالشاي المغربي الأخضر، أو بالشاي العراقي الأحمر الداكن، أو بالشاي المصري.. فيما بينهما!

* * *

ثم ننتقل الى بعد آخر من أبعاد النظر في هذه العقدة، بقصد تفكيك خيوطها المتداخلة.

وهو بعد الابداع المغربي الذي استطاع الوصول الى وعي المشرق واهتمامه، مقارنة بذلك النتاج المغربي الذي لم يصل..

والذي نقصده في هذا الطرح هنا، على وجه التحديد، توجيه السؤال التالي: كيف استطاعت نتاجات مغربية أساسية لفت انتباه الوعي المشرقي والاستحواذ على إعجابه أو تفهمه أو تذوقه.. في عصور وظروف مختلفة.. ولم تستطع نتاجات مغربية أخرى أن تصل أو تؤثر أو تنال الاعجاب أو الاعتراف أو التقدير.. وهذا النوع الثاني من النتاجات الثقافية المغربية هو الذي تدور حوله المشكلة ـ العقدة.. وطارحوها يغفلون ذلك النوع الأول.

وتفريعاً لهذا السؤال: إذا كانت المسألة مسألة عقدة مشرقية تجاه الثقافة المغربية: فلماذا تقبّل المشرق بالاعجاب نتاجات النوع الأول، ولم يتقبل النوع الثاني.. ألا تتعلق المسألة ـ إذن ـ بإبداع حقيقي قادر على تخطي الحدود، والوصول إلى المشرق، وإلى ما هو أبعد من المشرق.. عندما يكون النتاج المغربي بالفعل إبداعاً حقيقياً..؟ وأن ما لا ينال الاهتمام من نتاج المغرب إما أنه نتاج عادي غير متميز كالنتاج المشرقي العادي الذي لا يثير انتباهاً حتى في أقطار المشرق المتجاورة، وإما أنه لم يحظ بالنشر والتعريف الكافيين فبقي

أين عقدة التفوق رغم كل هذا الإعجاب المشرقي بالمغرب؟

حبيس البيئة المحلية كبعض ابداعات اليمن وعمان .. مثلاً ؟

وأعتقد أن الابداع المغربي الذي احتضنه المشرق بالاعجاب والتقدير . في القديم . لا يحتاج الى تفصيل كثير . لشهرته والاتفاق بشأنه مشرقاً ومغرباً ..

فالمشرق أعجب بالشعر الأندلسي ، وبالموسيقى الأندلسية . وبالعمران والزخارف والتمثمات الأندلسية والمغربية ..

أما تأثير فلسفات ابن رشد وابن خلدون وابن طفيل وابن عربي وابن حزم في الثقافة المشرقية فأمر لا يحتاج الى بيان . وربما كان هذا التأثير في المشرق أكثر منه في المغرب .. والمسألة لم تكن مسألة تقابل ثنائي بين جسمين منفصلين . بل كانت دورة واحدة متكاملة .. حيث تنشأ بذرة الابداع في المشرق لتنضج وتزدهر في المغرب ، أو تبدأ في المغرب لتكتمل في المشرق .. وهكذا .. فموسيقى زرياب تسافر من بغداد لتحط الرحال في قرطبة وتدخل في صلب الموسيقى الأندلسية . وموقف الغزالي من الفلاسفة في «التهافت» يخلق تلك الجدلية الابداعية لدى ابن رشد في «تهافت التهافت» . وكم من متصوفة وزهاد مشارقة ساروا على درب ابن عربي . وكم من مفكرين مشارقة سعدوا واحتفوا بابن خلدون ــ وهو التونسي الذي صار قاضي القضاة في القاهرة قديماً ــ وأصبح الرائد الفكري لأبرز المفكرين والمصلحين المشارقة حديثاً من الشيخ محمد عبده .. الى ساطع الحصري .. الى طه حسين ولا أعتقد أن هؤلاء عندما نهلوا من إبداع ابن خلدون فكروا في موطنه الجغرافي .. بقدر ما جذبهم وشدهم ابداعه الأصيل الذي هو المحك في نهاية المطاف في نيل الاعجاب والانتشار .. في كل مكان في العالم .

وإذا كان هذا التفاعل بيناً وواضحاً في الأعصر الاسلامية بين الابداع المغربي والوجدان المشرقي ، فإن لدينا من الأمثلة في العصر الحديث ما يوحي أن هذا التفاعل استمر . فيما تعلق بالابداع المغربي الحقيقي . حتى عندما أقام الاستعمار أسواره وحواجزه بين المشرق والمغرب . وانتشرت الأمية والتخلف فيهما معاً . وانعدمت وسائل التعريف والنشر بينهما أو كادت .

أليس من دلائل عمق هذا التفاعل أن يهتز المشرق كله من مصر إلى البحرين بشعر الشاعر التونسي المبدع أبي القاسم الشابي ؟ ومتى ؟ في ذروة سيطرة الاستعمار على المغرب والمشرق سواء بسواء ..

ألم يصبح مطلعه الخالد في قصيدته الرائعة :

إذا الشعب يوماً أراد الحياة
فلابد أن يستجيب القدر
ولابد لليل أن ينجلي
ولابد للقيد .. أن ينكسر

ألم يصبح هذا المطلع نشيد الوطنيين والاستقلاليين العرب في كل مكان من الأرض العربية ؟

وديوان الشابي كله (أغاني الحياة) الذي قدم له بدراسة جميلة الأستاذ أبو القاسم محمد كرو . ألم يصبح بمثابة ذلك الديوان السري الذي تخفيه الشبيبة العربية بين طيات ثيابها لتستمد منه صوت الحياة الجديدة . في مشرق الوطن قبل مغربه ؟

فما الذي أوصل الشابي الى المشرق في زمن العزلة ؟ وأدخله في صلب الوجدان المشرقي ؟ أليس هو عامل الابداع الحقيقي المؤثر . المقتحم . الساري رغم الحواجز . وبلا استئذان من عقله مشرقية أو حساسية مغربية !!

هذا مثال للابداع الشعري الحقيقي الآتي من الركن المغربي .. أما النثر .. فعندما اكتمل نضجه في رواية «السُّد» المتميزة للأستاذ محمود المسعدي فإنه فرض نفسه على الاهتمام الأدبي والنقدي في المشرق .

فالمعروف أن «السُّد» وهي بضم السين . كما في الكتابات التونسية . صدرت عام ١٩٥٥ . ولم يكد ينقضي عام ونيف حتى كان عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين يستقبلها بنقد إيجابي مستطاب ضمن أحاديثه الأدبية في جريدة (الجمهورية) القاهرية بتاريخ ٢٧ فبراير ١٩٥٧ . ولقد رفعها في نقده الى مصاف الشعر والفلسفة ووضعها في مصاف «حي بن يقظان» لابن طفيل وقال عنها إنها نوع من أدب الخيال الرمزي الذي : «لا عهد لنا بمثله في الأدب العربي إلا أحياناً قليلة حين يرمز الفلاسفة الى بعض ما يريدون تصويره من ألوان الحكمة»[4] .

واللافت للنظر أن الدكتور طه حسين ، رحمه الله ، يقدم لنقده هذا بكلمة في التفاعل بين الأدب المشرقي (المصري) . والأدب المغربي (التونسي) هي أبعد ما تكون عن عقدة التفوق أو النقص أو الانتقاص . وأقرب ما تكون الى معنى التطلع والتلهف لأدب الاخوة في المغرب العربي ..

لنستمع الى هذا الصوت ــ الشهادة بما فيه من صفاء ومحبة وانفتاح : «جثم الاحتلال الفرنسي على هذا الوطن العربي الكريم (تونس) . وتعمد أن يقطع الصلة بينه وبين أشقائه من الأوطان العربية الشرقية وأتيح له نجح كثير فيما أراد . فلم تكن كتب التونسيين تصل إلينا من طريق مباشرة إلا نادراً . ولم تكن كتبنا وآثارنا الأدبية تبلغ تونس إلا مهربة الى أهلها عن طريق فرنسا نفسها . وربما جاء تونسي كريم الى مصر يحمل إليها بعض الآثار التونسية وعاد الى وطنه ببعض الآثار المصرية . ومع ذلك فقد حاولت وزارة المعارف المصرية في يوم من الأيام أن تحقق الصلة بين الأدب العربي الشرقي والأدب العربي في تونس . فنشرت للأستاذ الجليل حسن حسني عبد الوهاب عضو مجمع اللغة العربية في مصر كتاباً صغيراً قيماً عن الأدب التونسي المعاصر ووزعته على تلاميذ المدارس الثانوية منذ أكثر من عشر سنين (أي حوالى عام ١٩٤٥) ــ ثم انقطع هذا الجهد ولم يتجدد . ووصل الى مصر شيء من الشعر التونسي المعاصر فتلقاه المصريون لقاء تجاوز الرضا الى الاعجاب . ولكن الأمر وقف أو كاد يقف عند هذا الحد . وقد انجلت عن تونس أو كادت تنجلي غمرة الاستعمار الفرنسي البغيض وجعلت الصلة تستأنف بيننا وبين أخواننا التونسيين في شيء من النظام نرجو أن يضطرد ويزداد» .

ويلاحظ الأستاذ نور الدين صمود الذي أورد مقالة الدكتور طه حسين بنصها الكامل في كتابه (محمود المسعدي وكتابه السُّد) . أن الطبعة الثانية لكتاب حسن حسني عبد الوهاب في (الأدب التونسي المعاصر) قد ظهرت بمبادرة الدكتور طه حسين نفسه عام ١٩٤٤ عندما كان مشرفاً على الثقافة المصرية وانه قد : «تكرم وأذن بإعادة طبعه تشجيعاً للتعارف الثقافي بين الأمم العربية وتوثيقاً لعرى الوحدة بين الناطقين بالضاد»[5] .

فأي عقدة تفوق أو انتقاص في هذا المسلك ؟ وإذا كان طه حسين بذاته قد أمر بتوزيع كتاب عن الأدب التونسي على تلاميذ المدارس الثانوية المصرية عام ١٩٤٤ ــ ١٩٤٥ . فأي

(عقدة) هذه التي تتحدث عنها بعض الأوساط الأدبية المغربية .. غير عقدة المحبة الشديدة لدى أهل المشرق لأهل المغرب ؟!!

وإذا كنا قد استشهدنا بالشابي في الشعر، وبالسعدى في النثر، كنماذج وأمثلة لحالات كثيرة. فلنتذكر أيضاً بالمكانة الرفيعة التي احتلها ويحتلها فكر الأستاذ مالك بن نبي المفكر الاسلامي الجزائري الكبير، لدى مفكري ومثقفي المشرق العربي. رغم أن الأستاذ مالك رحمه الله (توفي ١٩٧٣) أصدر كتبه الفكرية بالفرنسية. ولم تترجم الى العربية الا في وقت متأخر نسبياً. وبجهود مشكورة في مصر ولبنان. وعلى يد عالم مصري كبير هو الدكتور عبد الصبور شاهين.

وليس بامكان هذه الدراسة العامة تغطية مختلف مظاهر الأثر الطيب الذي خلفه مالك بن نبي بفكره الحضاري الاسلامي النيّر المشرق. لكنى اكتفي بالاشارة إلى كتاب مكثف بعنوان ، ثغرة في الطريق المسدود ،[6] أصدره الأستاذ الدكتور محمود محمد سفر والأستاذ الدكتور سيد دسوقي حسن : وهو على ما فيه من جهد فكرى ذاتى مبين . يحمل تقديرا بيّنا لمفكرنا الجزائرى المسلم بما يتجاوز حدود المكان ، بل بما لا يدخلها في حسبانه مطلقا.

والقصد من هذه الشواهد كلها أن الابداع المغربي سرعان ما يجد له آذانا صاغية في المشرق حالما تتيسر له أبسط سبل النشر ، وها هو ذا المشرق في أيامنا هذه يتابع كتابات الأستاذ عبد الكريم غلاب والدكتور عبد السلام الهراس والدكتور عبد الله العروي والدكتور محمد عابد الجابري .. على اختلاف بينها في المنزع والتوجه .. لكن المتابعة المشرقية .. جارية .. وتستزيد .

أما النتاجات المكرورة التي تقلد الأقدمين ، أو تنقل عن أوروبا دون إبداع ، أو ترد على المشارقة بضاعتهم المشرقية .. فهذه نتاجات أعتقد أن اخوتنا في المغرب العربي لا يتوقعون أن تقام لها الاحتفالات في مشرق .. أو شمال .. أو جنوب .. أو حتى في بلاد المغرب ذاتها .. !

اللهم الا إن كان ثمة نتاج متميز لم ينل حقه من الايصال والنشر. فهذه مشكلة عامة بين مغرب ومشرق .. وحلها غير مستحيل.

وبعد ، فهكذا أرى المسألة في عمومها .. بين مشرق ومغرب .. وأرجو ألا نخلط معها

● أشعار « الشابيّ » عن الحرّية تصبح نشيد الوطنيّين والإستقلاليّين العرب في كل مكان من الأرض العربيّة

● الإبداع المغربي سرعان ما يجد آذاناً صاغية في المشرق حالما تتيسّر له أبسط سُبُل النشر



أبو القاسم الشابي — عبد الكريم غلاب

مسائل المنافسة بين قطر عربي وآخر في القيادة العربية .. أو في الخلاف الايدولوجي .. أو ما يصدر أحيانا من أفراد مأزومين أو متوترين أو محدودي المعرفة هنا .. وهناك .. فهذا ما يحدث كثيرا في هذا الزمن العربي بين أقطار المشرق فيما بينها .. وبين أقطار المغرب أيضاً فيما بينها .. وهذه قصة أخرى لا تدخل في موضوع التفاعل الثقافي بين المشرق والمغرب .. وهو الموضوع الذي فتحنا ملفه على صفحات (الدوحة) .. على مدى الشهور الأربعة المنصرمة .. من أجل أن يكون التفاعل فيما بيننا أعمق .. وأجمل .. وأرحب .

وتحية لأستاذنا الكبير محمد مزالي الذي دفعنا عتبه على (ذوي القربى) لطرح هذا الموضوع ونرجو أن يتقبل وجهة النظر هذه من رجل من ذوي قرباه .. وإن تناءت الديار وبعد المزار ..

محمد جابر الأنصاري
البحرين

هوامش :

(١) محمد مزالي ، في دروب الفكر ، ١٥٥ ـ ١٦٦ . وقد علق المؤلف مقالته في الكتاب بشأن هذه الاشكالية بـ : ظلم ذوي القربى .

(٢) د. عبد الملك مرتاض ، الجدل الثقافي بين المشرق والمغرب ، ص ١٢ .

(٣) د. صلاح الدين المنجد ، المشرق في نظر المغاربة والأندلسيين . ص ٥٩ . وفي الكتاب نماذج عديدة ومتباينة من هذه الانطباعات غير القابلة للتعميم واستخراج الأحكام التاريخية القاطعة . وكذلك الأمر عندما يخرج حديثا علينا كاتب متفرنس من بلد مغربي ليقول إن العروبة والاسلام هما سبب تخلف منطقة المغرب العربي .. فهل نحسب ذلك على مثقفي المغرب جميعاً ؟ وهل نرى في الانحراف الفردي أو الفئوي المحدود مؤشراً على وجود عقدة مغربية تجاه المشرق ؟ .. لا أتصور أن مشرقياً ينظر هذه النظرة .

(٤) انظر هذه المقالة لطه حسين وتعقيب الأستاذ المسعدي عليها . في كتاب الأستاذ نور الدين صمود الموسوم (محمود المسعدي وكتابه السد) ط ٣ ، الدار التونسية للنشر . ص ٤٥ ـ ٤٦ هـ . والكتاب يتضمن مختارات نقدية أخرى حول الموضوع .

(٥) المرجع السابق أعلاه . ص ٤٥ ـ ٤٦ .

(٦) تراجع الاشارات إلى فكر مالك بن نبي في هذا الكتاب ـ وهو صادر عن دار آفاق الغد بالقاهرة عام ١٩٨١ ـ في الصفحات : ١٤ ـ ١٥ ـ ٣٢ على سبيل المثال . ويشار إليه في الأغلب بكلمة « استاذنا مالك بن نبي » . كما تراجع مقالة الأستاذ فهمي هويدي في « الدوحة » عدد أول مارس ١٩٨٦ ، حيث أشار أيضا وبوضوح إلى الدور الذي لعبه مالك بن نبي في التأثير على فكر المشرق المعاصر .



قنوات الثقافة بين المشرق والمغرب

بقلم: محمد العربي الخطابي

تناول الكاتب الألمعي الدكتور محمد جابر الأنصاري في مجلة الدوحة (العدد ١٢٢ ، فبراير ١٩٨٦) موضوعاً حساساً لايخلو من أهمية وطرافة . وكان عنوان مقاله : «الحساسية المغربية والثقافة المشرقية» . وقد أعجبت بالطريقة الهادئة والبناءة التي عالج بها الكاتب موضوعه من حيث إنه طرح في أعقاب تحليلاته طائفة من الأسئلة تحمل في ثناياها بذور الجواب .

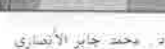
ونظراً لأهمية هذا الموضوع رأيت أن أدلي فيه برأي أوكي لا فصل فيه ولا قطع . وإنما قصدي أن أسهم في تجلية بعض جوانب القضية بدافع الغيرة على وحدة الثقافة العربية التي هي الهدفُ الأول من كتابة هذا المقال .

وأحبُّ أن أبين ، أولاً ، أنني أقصد هنا بالثقافة نشاط الفكر ومقومات الابداع في ميادين الآداب والفنون والعلوم .

إن النهضة الفكرية والثقافية العربية حديثة العهد نسبياً ورُوادها الأوائل ما زالوا يذكرون بيننا وكأنهم أحياء يرزقون . وهؤلاء الرواد على قسمين : طائفة يعترف بها العالم العربي كله ولا ينازع أحدٌ في مكانتها المتميزة وأثرها العميق في نهضتنا الثقافية والفكرية الحديثة ، وطائفة لايُعترفُ بريادتها إلا في محيط قطري ، أي في هذه الجهة أو تلك من بلاد الوطن العربي . وقد يكون السبب في ذلك راجعاً إلى أمرين اثنين : الأمر الأول يرتبط باختلاف مفهوم الاحياء عند هذه الطائفة أو تلك من الرواد ونظرة كلّ منهما الى الغرب الأوربي . والثاني يتّصل بمنهج حركة الاحياء هل يكون على أساس العودة الى السلفية الإسلامية والأصالة العربية أم ينطلق من مواجهة الزّحف الأوربي الكاسح ومقاومته بسلاحه الثقافي والفكري والعلمي الذي هو مصدر قوّته وتفوّقه . وهنالك بطبيعة الحال مواقفُ وسطى تتأرجح بين المذهبين .

والطائفة التي تهمّنا هنا هي التي تتألف من روّاد أجمع العالم العربي ، أو كاد ، على الاعتراف بمكانتهم المتميزة البارزة في حركة الاحياء والتّجديد . وهم جميعاً من دعاة التفتح مع التمسك بالأصالة والقيم الإسلامية والعربية . وقد أنجب هؤلاء الرواد طائفةً من المفكرين والمجدّدين ظهر معظمهم في ديار مصر . وبدرجة أقل في الشام بالمفهوم الواسع لهذه التسمية .

وكانت مصر قد تبوأت ، منذ البداية ، مكان الصدارة في حركة إحياء الثقافة العربية

د. محمد جابر الأنصاري




الشيخ محمد خضر حسين

شكيب أرسلان

وتوجيه مسارها . وذلك راجع إلى عدة أسباب موضوعية أقتصر على ذكر بعضها :

ـ مكان مصر في قلب العالم العربي ورصيدها التاريخي في ميادين الثقافة الإسلامية العربية .

ـ سبقها في الاحتكاك بالغرب الأوربي وذلك منذ عهد واليها محمد علي وحملة نابليون الشهيرة .

ـ انفتاح مصر على الوطن العربي والعالم الإسلامي ، واستقبالها لعدة من الدعاة والمفكرين والمثقفين النازحين إليها من أوطانهم بسبب الاضطهاد أو ضيق مجالات العمل الثقافي والسياسي فيها . ومما لاشك فيه أن هؤلاء النازحين إلى مصر من مختلف الأقطار الإسلامية والعربية كان لهم ـ إلى جانب المصريين ـ أثر كبير في تنشيط الحركة الثقافية وإنشاء المجلات والصحف ودور النشر والمسارح والأندية والجمعيات ، وأسماء هؤلاء معروفة لاتحتاج إلى ذكر . وقد يندهش المرء حينما يعلم أن نازحاً من المغرب الأقصى هو الشيخ حسن العطار استطاع أن يصبح في مصر شيخاً أكبر لجامع الأزهر في فجر عصر النهضة . كما تقلد هذا المنصب في وقت متأخر نازح آخر من تونس هو الشيخ محمد خضر حسين . وكان الشيخ عبدالعزيز الثعالبي ـ وهو تونسي أيضاً ـ مقيماً في مصر حيث كان يحظى بالاحترام والاعزاز في أوساطها الثقافية لعلمه الواسع وبلاغته الفذة . وقد يندهش المرء أكثر حينما يعلم أن عالماً لغوياً كبيراً من شنقيط . من أقصى بلاد المغرب . ـ وهو الشيخ محمد الأمين الشنقيطي ـ كان مقيماً بمصر . وكان محل إكرام وتكريم من علمائها ومثقفيها . وأنه كان معلماً لبعض رجالها الأعلام البارزين . ولا أذهب بعيداً في ذكر أعلام آخرين احتضنتهم مصر وأكرمت مقامهم كرشيد رضا . وجرجي زيدان . ونقلا . وآل صروف . وشكيب أرسلان . ومحمد عبدالكريم الخطابي . ومحمد علال الفاسي ومحمد حسن الوزاني . والبشير الابراهيمي وغير هؤلاء كثير .

إن هذا الانفتاح الكبير المتواصل الذي تجلى في قبول رجالات الفكر والسياسة والقيادة من مختلف الأقطار الإسلامية والعربية وفي استقبال بعثاتها الطلابية جعل مصر تتبوأ مكان الصدارة والريادة في العالم العربي ثقافياً وسياسياً كما أوضحنا .

ـ أضف إلى ذلك أن مصر قد نبغ فيها ، بفضل انفتاحها المبكر على العالم الخارجي ، عدد من أقطاب الثقافة والفكر والصحافة تجاوزت شهرتهم حدود بلادهم ، وانتشرت مؤلفاتهم وصحفهم ومجلاتهم في شتى الأقطار العربية ، وكان لهم قراء ومعجبون في كل مكان ، وذلك في وقت كانت أقطار عربية أخرى ما تزال تناضل في سبيل حريتها واستقلالها أو ترسيم معالم نهوضها الثقافي والعلمي .

هذا وإن عدداً غير قليل من أقطاب الفكر وحملة القلم من مختلف الأقطار العربية لم ينبه ذكرهم ولم يعرفوا إلا من خلال صحافة مصر ومطابعها ودور النشر فيها . وذلك إذا استثنينا حالات نادرة خاصة . فالجيل الذي أنتسب إليه عرف من طريق مصر كثيراً من أعلام العرب المعاصرين من مختلف الأقطار كشكيب أرسلان . وإسعاف النشاشيبي . وعادل زعيتر . وأكرم أخيه . وخير الدين الزركلي . وخليل مردم . وعلي الطنطاوي . وجميل صدقي الزهاوي . وإبراهيم طوقان . وفؤاد صروف . وأبي القاسم الشابي . وعادل الغضبان . ومعظم أعلام المهجر ... والقائمة طويلة .

● انفتاح مصر واستقبالها لرجالات الفكر والسياسة والقيادة من مختلف الأقطار الإسلامية والعربية ، جعلها تتبوأ مكان الصدارة والريادة الثقافية

كان العالم العربي من أقصاه إلى أقصاه يقرأ مجلات المقتطف ، والهلال ، والثقافة ، والرسالة . ويقتني ما تنشره مطابع دار الكتب المصرية ودار المعارف ولجنة التأليف والترجمة والنشر وغيرها . وقد نستثني من ذلك ما كان يصلنا مباشرة من بيروت ودمشق والقدس وبغداد وهو نزر يسير بالقياس إلى ما كان يصدر في مصر .

وقد أولع جيل كامل من أبناء المغرب العربي يتتبع كل ما يكتب وينشر في المشرق ـ ولاسيما في مصر ـ من مقالات ومؤلفات أدبية وبحوث علمية واجتماعية ، يقبلون عليها بروح عربية متفتحة همها تنشيط الاتصال والتجاوب وبناء أسس الوحدة الثقافية العربية بناء جديداً يواكب العصر . وكان في المغرب العربي ، بطبيعة الحال . عدد من قادة الفكر والرأي لايقلون نبوغاً ونباهة عن زملائهم في مصر وفي سائر بلاد المشرق العربي كعبد الحميد بن باديس والثعالبي وعلال الفاسي . إلا أنهم كانوا يصارعون الاستعمار الغاشم ويوجهون أقلامهم وأفكارهم ووجدانهم لكسب معركة الوجود وتأكيد الذات . ولم يكن همهم أن يعترف لهم أقطاب المشرق العربي بالنباهة في ميدان الفكر والعلم والثقافة . بل كان مطمح آمالهم أن يجدوا من هؤلاء استجابة وتجاوباً بمد يد العون إليهم في معركة المصير التي يواجهون فيها استعماراً استيطانياً كان همه الأكبر أن يطمس في بلادهم معالم الإسلام والعروبة وأن يحول اتجاه مسيرتهم



قنوات الثقافة

بين المشرق والمغرب



إسعاف النشاشيبي



د. فؤاد صروف

التاريخية ، وهو مازلنا نقاوم مخلفاته السلبية الى الآن في أقطار المغرب العربي .

وليس من موضوع هذا المقال أن أبحث في مدى مالقيه أهل المغرب العربي من تجاوب إخوانهم في المشرق . وهو تجاوب بدأ بشكل واضح حينما قرّر الاستعمار الفرنسي في الثلاثينات أن ينفذ مايعرف بالسياسة « البربرية » تمهيداً لفصل جزء من السكان بدعوى أنهم « بربر » لاصلة لهم بالاسلام والعروبة . وقد فشلت هذه السياسة العنصرية البغيضة بفضل مقاومة أهل المغرب قاطبة لها وتلاحم سكانه في سبيل إحباط مخططات الاستعمار التي أعربت عن نفسها بضراوة وبأشكال مختلفة في ليبيا وتونس والجزائر والمغرب الأقصى وموريتانيا .

قد يقال إن هذا الكلام كلّه يعيد عن الموضوع الذي أثاره الأستاذ محمد جابر الأنصاري في مقاله . غير أنني أقول إن الأمور تظهر أعقابها إذا اتّضحت مقدّماتها . وقد مرّ زمان على العالم العربي لم تكن فيه حدود فكرية ووجدانية بين جناحيه إلا ما رُسم على الخرائط وقرّرته كتب الجغرافية الطبيعية . غير أن الأمور تختلف الآن عمّا كانت عليه في السابق لأسباب ليس هذا مكان ذكرها .

ونصل إلى ما سمّاه الأستاذ الأنصاري « بالظاهرة الشعورية » لدى المغاربة الناجمة عما « يعتبرونه تجاهلاً مشرقيا أو عقدة تفوّق من إخوانهم المثقفين المشارقة » ، مستشهدا على ذلك بقول للأستاذ محمد مزالي – من تونس – وأقوال للدكتور عبد الملك مرتاض – من الجزائر .

وقبل أن أدلي برأيي في مسألة هذه « الظاهرة الشعورية » أود أن أقول . أولاً . إنني أتفق مع الأستاذ الأنصاري فيما ذهب إليه من « أن التعميم بشأن المغرب . كما هو بشأن المشرق . تعميم غير دقيق وقد يكون غير سليم » . كما أقول إن ماسمي بالتجاهل المشرقي للمثقفين المغاربة تعبيرٌ لا يستقيم من الناحية الموضوعية . لأن « التجاهل » ينطوي على القصد والإصرار وسوء النية . وكل هذا غير موجود بطبيعة الحال وإلا فلا معنى للكلام على وحدة الفكر والوجدان في الوطن العربي الكبير . نعم . قد تكون هناك عوامل متعدّدة تجعل النخبة المثقفة في قطر عربي ما تجهل الكثير أو كلّ شيء عن مثيلاتها في قطر عربي آخر . وقد تكون بعض الملابسات الخاصة سببا في هذا « الجهل » المفروض .

وقبل أن أبحث في هذه العوامل والملابسات أرى من الضروري توضيح أمر هام له ارتباط بما نحن فيه . وهو أن المسألة تتعلق أولاً وقبل كل شيء بالتألق والاستحقاق والنباهة في ميدان الفكر والثقافة والعلم . فليس كل من حمل القلم أو اجتهد الفكر وعانى البحث يستحق أن تفتح له أبواب الذكر والشهرة في المشرق أو في المغرب . بل لابدّ أن تكون هنالك موهبة صادقة وقدرة على الابتكار لاختراق الحواجز النفسية والجغرافية القائمة أو المتوهمة .

ونعود إلى العوامل الفاعلة فيما سُمّي بالتجاهل فنذكر منها على سبيل المثال فقط :

أولاً – توافر أو غياب الوسائل المادية الضرورية التي لايكون تواصلٌ حقيقي بدونها كالصحف والمجلات ودور النشر ومؤسسات التوزيع . ووسائل الانتاج السينمائي والتلفزيوني . والمغرب العربي في هذه الناحية دون عدد من الأقطار الأخرى كمصر ولبنان وبغداد ودول الخليج العربي التي أحكمت وسائل النشر والانتاج والتوزيع وأولتها كبير الاهتمام والرعاية . ومع ذلك فمن الإنصاف أن نقول إن عددا من المجلات والصحف ودور النشر في أقطار عربية « مشرقية » قد أفسحت المجال لمثقفي المغرب العربي ورحّبت بما يكتبونه ويؤلفونه : وأبرزت الجيد من إنتاجهم . كما أن مثقفي المغرب العربي يساهمون مساهمة ملموسة في الندوات العلمية والأدبية وفي مختلف أوجه النشاط الفكري إلى جانب زملائهم المشارقة . في شتى العواصم العربية . وأن عددا من أولئك أعضاء في المجامع العلمية واللغوية بعواصم المشرق . والعكس أيضاً صحيح .

ثانياً – إن النقد الأدبي . والفنّي والعلمي هو محكّ الجودة أو الرداءة في كل عمل فكري يريد صاحبه أن يقتحم به ساحة الإبداع وحلْبة السبق . والنقد بجميع أشكاله بضاعة تكاد تكون كاسدة في معظم أقطار الوطن العربي . وحتى إذا كان النقد موجودا فهو على قلّته يخلو أحياناً من المعايير الموضوعية البنّاءة . وبذلك يبقى المؤلف والأديب والفنان والعالم في يد القارئ الحر الذي يعجبه أو لا يروقه مايقرأ دون أن يتعدى ذلك إلى الإعراب عن رأيه فيه . ويبدو لي أن غياب النقد من ساحة الفكر في البلاد العربية جعل مزايا الإبداع والتفوّق تبقى محصورة في « السابقين الأولين » من جيل الأدباء والمفكرين الذين نضب معينهم وتجاوزهم الزمن وكان حقهم أن يدخلوا مجال التاريخ الثقافي . لكن الأوهام

● شرطان لاختراق الحواجز النفسية والجغرافية : الموهبة الصادقة والقدرة على الابتكار




الشيخ رشيد رضا

عادل زعيتر

ابراهيم طوقان

بقيت عالقة بهم . وهذه لعمري ظاهرة لا أجد لها مثيلاً في أقطار العالم الأخرى حيث تتعاقب أجيال النُّبهاء والعباقرة ، وكل جيل جديد يُعبِّر عن عصره وجيله بينما تُكْتَب أعمال الطبقات السالفة في سجل التاريخ الثقافي بحيث لاتستمر في الحياة إلا من خلاله .

ولاشك عندي أن « الوثنية الفكرية » التي يعتنقها كثير من الناس في بلادنا العربية إنما تؤدي إلى التحجُّر والجمود ، وقد تكون من أكثر الأسباب إثارة لحساسية بعض المثقفين العرب في المغرب أو في المشرق مما يجعلهم يشتكون من التجاهل ويضجرون من نكران حقيقة تعاقب الأجيال وتداول الدول في مملكة الفكر .

ثالثاً ـ إن مثقفي المغرب العربي قد توزَّعتْهم الثقافات وتعدَّدت بينهم المنازع .

فمنهم مَنْ آثر لغة المستعمر القديم وارتضاها لنفسه يُعبِّر بها عن أفكاره ويروم أن يتواصل بواسطتها مع غيره . فهذه الطائفة لاتجد لها مكاناً في أوساط المثقفين بأقطار المشرق العربي إلا من طريق ترجمة الآثار الصادرة عنها ، والتَّرجمة لاتكون دائماً في مستوى الذوق العربي العام . وطائفة أخرى أُتيح لها التمكُّن من لغة الضاد مع المعرفة بلغة أجنبية أو أكثر . فهذه الطائفة تُعرب عن رأيها باللغة العربية وتحاول أن تشقّ طريقها في عالم الفكر والابداع . فتعوزها الوسائل أحياناً . وتفتقد الصبر وروح المواظبة في أحيان أخرى . ومنها من يستعجل الشهرة فلا تُسرع إليه فيصاب بالضجر والاحباط فيتخلى في وسط الطريق .

رابعاً ـ إن العالم العربي يتجاذبه العديد من المشاكل السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، ويسود بعض أقطاره ظروف نفسية أو مذهبية معينة ينشأ عنها كثير من التناقض والتوتُّر فيعقب ذلك خلافات وخصومات تصل أحياناً إلى القطيعة والجفوة مما يؤثر في التَّواصل الفكري والثقافي والعلمي تأثيراً سلبياً بليغاً . وقد يؤدي أحياناً إلى انقطاع الروابط بين الرجال المفروض فيهم أن يكونوا أسباباً للتواصل الخلاّق .

هذا في الحاضر . أما في الماضي فإني أُؤيد ماقاله الأستاذ الأنصاري من أن التواصل العلمي والثقافي والروحي بين مشرق الوطن العربي ومغربه كان قوياً سليم المقاصد وطيد البنيان بما قام عليه من وحدة الوجدان وحرص على تبادل الأخذ والعطاء مع التسليم بما يتيحه تنوّع البيئات الفكرية والثقافية من فائدة وثراء وغناء يستفيد منها الجميع . وليس أدلّ على ذلك من السرعة التي كانت تنتقل بها المؤلفات العلمية واللغوية بين جهات العالم العربي شرقاً وغرباً فتُقرأ وتُهضم ويُعقّب عليها . فهذا الصاحب ابن عباد لم يكد يقرأ كتاب « العقد الفريد » لأبي عمر بن عبدربّه ، بمجرد وروده إلى المشرق . حتى علّق عليه قائلاً : « هذه بضاعتنا رُدّت إلينا » . ولم يكن هذا الكلام في باطنه وحقيقته ذمّاً بل مدحاً يُبرز وحدة الثقافة العربية شرقاً ومغرباً والدليل على ذلك أنّ كتاب « العقد الفريد » مالبث أن تبوأ مكانته بين أمهات كتب الأدب واللغة . كالبيان والتبيين ، وعيون الأخبار ، والكامل . وكذلك كان مصير كتاب « العمدة » لابن رشيق ـ وصاحبه من القيروان ـ ومصير كل الآثار التي كانت تستحق البقاء والانتشار مشرقاً ومغرباً ويتالف منها في أيامنا هذه تراثنا العظيم الأوحد .

● غياب النقد من ساحة الفكر جعل مزايا الابداع والتفوق محصورة في الرُّوَّاد الأوائل

وأخيراً أودُّ أن أقول إن السرّ في هذه القضية كلّها إنما يكمن في شعور كلّ عربي بوحدة الثقافة والوجدان ، ثم في اقتناع جميع القادة العرب بأن هذه الوحدة تتوقف إلى حدمّا على القرار السياسي ومايمكن أن يفعله هذا القرار في هدم جدار الجهل أو التجاهل الذي مايزال قائماً بين أقطار العرب . ذلك أن التعارف الحقيقي إنما يبدأ في المدرسة والمعهد والجامعة حيث يجب أن يتلقى الطالب أوسع المعلومات عن مختلف الأقطار العربية تاريخاً وجغرافية وحضارة وثقافة ، فهذه هي أسس الوحدة الفكرية التي ينبغي أن يقام عليها البناء الشامخ المتجسد في رسالة الصحيفة والمجلة والكتاب ووسائل الاعلام وتوزيع المطبوعات ، وفي الندوات والمؤتمرات ، وأعمال المجامع والمعاهد العلمية ، فبذلك وحده تزول الحساسيات ويرتفع الاشكال وينفسح المجال أمام الموهبة والابداع والطاقة الفكرية بعيداً عن هذا التقسيم المصطنع الذي يقيم في الوطن العربي حاجزاً يفصل معنوياً بين الشرق والغرب ، وهما في الحقيقة شقّان من جسم واحد .

محمد العربي الخطابي

المغرب ـ الرباط

دعائم الجهاد في الإسلام

بقلم: الدكتور محمد الدسوقي

مفهوم الجهاد فى الاسلام مفهوم شامل لكل جوانب الحياة . وهناك دعائم أساسية للجهاد الاسلامى هى : نصرة الحق . وحماية السلام ، وتحريم الاعتداء . ومقاتلة المقاتلين دون غيرهم من المدنيين ، واحترام آدمية الانسان مهما كان لونه أو جنسه أو دينه .

ليست كلمة الجهاد فى الاسلام مرادفة لكلمة قتال أو حرب . ولكنها أعم منها . إذ تصدق تلك الكلمة ــ بجميع مشتقاتها اللغوية ــ على بذل الجهد قدر الوسع مطلقا . وإن كان الأغلب والأشهر استخدام الكلمة فيما يبذله الانسان ، احقاقا لحق وازهاقا لباطل . فقد وردت مادة « جهد » بصيغها واشتقاقاتها المختلفة فى الكتاب العزيز احدى وأربعين مرة ، منها مرتان بصيغة واحدة فى بذل الجهد فى المنكر والشر ، قال تعالى : « ووصينا الانسان بوالديه حسنا وإن جاهداك لتشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما الى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون » . (١)

فهذا جهاد آثم ظالم . جهاد فى سبيل الشرك . وما أقبحه من جهاد . أما بقية ماورد من مادة جهد فى القرآن الكريم . وهو تسع وثلاثون مرة . فهو لايخرج عن معنى بذل الجهد . إنتصارا للخير . ومقاومة للأهواء على تنوعها وتباينها .

وتحدثت السنة النبوية عن الجهاد بهذا المفهوم الغالب الذى ينسحب على كل بذل مبرور . وعمل صالح كثيرا . فقد ورد الأمر بمجاهدة الأهواء كما نجاهد الأعداء . وأن الجهاد الأكبر هو جهاد النفس . وأن أفضل الجهاد حج مبرور . وورد أن رجلا جاء الى النبى صلى الله عليه وسلم يستأذنه فى الجهاد . فقال له : « أحي والداك ؟ قال : نعم . قال ففيهما فجاهد » (٢)

وطبقا لهذا المفهوم كان الجهاد ماضيا الى يوم القيامة . وكانت الأمة المسلمة أمة مجاهدة دائما . لايفتر كل أبنائها عن السعي الدائب فى سبيل البناء والعطاء . وكان كل من يقصر فى عمله مهما يكن نوعه مضيعا لمعنى الجهاد . وعونا لأعداء الأمة على أن تنال منها وتسيء إليها .

ولعل هذا الجهاد العام هو ماتشير إليه الآية الكريمة التى تتحدث عن الأمر بإعداد القوة المعنوية والمادية « وأعدوا لهم مااستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لاتعلمونهم الله يعلمهم » . (٣) فاعداد القوة التى ترهب الأعداء لاسبيل اليها بغير جهاد . لاسبيل إليها الا إذا أدرك كل فرد فى الأمة أنه مسئول عن سواه . وأن من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم ، وأن عليه ألا يدخر وسعا فى البذل وتقديم كل مايستطيع أن يقدمه . وبذلك تتلاقى جهود الأفراد جميعا وتتكامل لتصب كلها نحو هدف واحد . وهو قوة الأمة واستعدادها الكامل للنفير فى أى وقت . دفعا لأى عدوان . ومنعا للاضطهاد والفساد فى الأرض .

الأخذ بكل أسباب القوة

فالجهاد إذن بمدلوله العام . وهو الذى لاينقطع الى يوم القيامة هو قيام كل مسلم ومسلمة بأمانة التكليف على أحسن وجه . وهذا الجهاد عماد الجهاد بمعناه الاصطلاحى الخاص وهو العمل المسلح . أو القتال . وهو ماينصرف اليه عند اطلاق كلمة «جهاد» . بحيث أصبح هذا المعنى الخاص هو أول مايتبادر الى الذهن إذا أطلقت هذه الكلمة . وكاد المعنى العام أن ينسى أو لايلتفت إليه . مع أنه مقدمة ضرورية للمعنى الخاص . فالقتال فى ميادين الحرب . لايكفل النصر إلا إذا كانت له عدة من مجاهدة النفوس . ومقاومة لمظاهر السلبية والاتكالية فى كل شئون الحياة . وأخذ بكل أسباب القوة التى تلائم الزمان والمكان .

إن الأمم لاتظهر على أعدائها بكثرة المقاتلين فيها . وإنما تحرز هذا الظهور بما يتمتع به هؤلاء المقاتلون من روح معنوية عالية . وبما يحمى ظهورهم من نفير عام فى الأمة يفرض على كل فرد فى موقع عمله أن يكون جنديا مجاهدا . يعطى أكثر مما يأخذ . ويعمل فى صمت ولا يعنيه إن أشاد الناس بما قدم أو غفلوا عنه . فهو فى شغل عن ذلك بالجهاد فى إحسان . إعلاء لكلمة الله .

والجهاد بعد هذا قد يكون فرضا كفائيا اذا قام به بعض المسلمين سقط الاثم عن سواهم . وذلك إذا لم يكن عدوان مسلح على المسلمين . وهو في هذه الحالة ليس إلا درع حماية لصوت الحق ودعوة الله العامة الخالدة حتى تبلغ الى كل إنسان . وتتحقق الحرية الدينية في كل مكان . ليؤمن بها من يشاء . وليكفر بها من يريد .

وقد يكون الجهاد فرضا عينيا واجبا على كل قادر على حمل السلاح إذا ماتعرضت الأمة الى عدوان مسلح عليها . فيجب على كل مكلف أن يجاهد بنفسه وماله . وكل من تقاعس عن الجهاد لصد العدوان . وحماية الأوطان . فليس مسلما صادق الايمان . وربما خرج بهذا السلوك من جماعة المسلمين .

وما دام الجهاد قد يصبح واجبا عينيا فان مالايتم الواجب إلا به فهو واجب . أي أن الاستعداد للجهاد يكون مفروضا على كل أفراد الأمة . بحيث إذا حان وقت النفير العام فان الجميع يكونون قادرين على القتال واستخدام أسلحته . وفقا لظروف العصر . لأن العدو لن ينتظر حتى نعد أنفسنا لملاقاته . إنه يحاول أن يغتنم فرصة الضعف فينا لينال منا مايريد . ولا ينبغي لمسلم أن يمكن عدوه منه . وذلك بمحاربة الضعف أيا كان لونه : ضعف العقيدة . وضعف الأبدان . وضعف الاستعداد لرد العدوان بمثله . ومن هنا كان التدريب على حمل السلاح فريضة مقدسة . وواجبا عينيا . وكان صنع السلاح أو توفيره عن طريق الشراء واجبا كذلك . لتكون الأمة دائما قوية الجانب . مرهوبة الكلمة . لاترضى بالدنية في دينها ودنياها .

وسواء أكان الجهاد فرض عين . أو فرض كفاية فهو في الحالتين دفاع . وليس اعتداء . إنه دفاع عن النفس . والعرض . والمال . والوطن . دفاع عن المستضعفين والمظلومين . دفاع عن الدعوة الى الله إذا إعترض أحد سبيلها . فعذب المؤمنين بها . أو منع الدعاة من تبليغها . أو صد من أراد الدخول فيها . (٤)

ولأن الجهاد في أروع صوره بذل للأنفس . والانسان بفطرته يحرص على الحياة ويكره القتال . كان أمر الاسلام بالجهاد مقرونا بما كتبه الله للمجاهدين في سبيله من أجر عظيم وثواب جزيل : « فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة . ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما (٥) » « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة . يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم (٦) » .

فالجهاد لذلك لايعدله شيء من الطاعات والقربات . والمؤمن الصادق من ثم يسارع الى القتال . وأمله أن يفوز بالشهادة . لينعم بما أعده الله للشهداء من نعيم في الجنة . روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه :

« لما أصيب اخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في جوف طير خضر ترد أنهار الجنة . وتأكل من ثمارها . وتأوى الى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش . فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا : من يبلغ اخواننا عنا أننا أحياء في الجنة نرزق . لئلا يزهدوا في الجهاد . فقال الله تعالى : أنا أبلغهم عنكم وأنزل الله : « ولاتحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون . يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لايضيع أجر المؤمنين » . (٧)

فلسفة الجهاد ورسالته

أما دعائم الجهاد في الاسلام فعديدة . وهي غير مايتصل بالحرب من حيث أسلوب ممارستها . ومايبنغي أن يكون عليه من التخطيط العلمي الذى يراعى ظروف الزمان والمكان . ووسائل القتال . وذلك في نطاق الدعائم التى تكشف عن فلسفة الجهاد ورسالته في الاسلام .

وأهم تلك الدعائم مايلي :

أولا : نصرة الحق .

ثانيا : حماية السلام .

ثالثا : تحريم الاعتداء .

رابعا : مقاتلة المقاتلين دون غيرهم .

خامسا : احترام آدمية الإنسان .

والدعامة الأولى تشير الى الغاية من الجهاد في الاسلام . فهي ليست غاية نفعية مادية . وإنما هي غاية سامية جليلة . إنها من أجل نصرة الحق وهزيمة الباطل . « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق » (٨) فالاسلام قد فرض الجهاد في سبيل الله . أى في سبيل إعلاء كلمته . والتمكين لها في دنيا الناس . فلا يعلو سلطان في الأرض فوق سلطان الحق . حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله .

وقد تكرر الأمر بالقتال في الكتاب العزيز . وفي كل مرة ينص فيها صراحة أوضمنا على الغاية من هذا القتال . فهو دائما في سبيل الله « وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم (٩) » . « فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا (١٠) » .

وروى أن رجلا جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « الرجل يقاتل ليذكر . والرجل يقاتل ليغنم . والرجل يقاتل ليرى مكانه . فمن في سبيل الله ؟ فقال : من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو في سبيل الله عزوجل (١١) » .

ومن الجهاد في سبيل الله حماية أماكن العبادة كلها سواء أكانت اسلامية أم يهودية أم مسيحية . يشهد لذلك أول مانزل من القرآن آذنا بالقتال « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا . ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور (١٢) » . ففي هذه الآيات بيان واضح لتعليل الاذن بالقتال . وهو يدور في نطاق مايلي :

(١) مناهضة الظلم الذى وقع على المسلمين . فأخرجوا من ديارهم بغير حق . الا

أن يؤمنوا بدين الحق .

(٢) التمكين لكلمة الله في الأرض : بحماية أماكن العبادة التي يذكر فيها اسم الله وحده كثيرا . وإقامة التشريعات التي كتبها الله على عباده .

ويلاحظ هنا أن الصلوات والبيع والصوامع قدمت على المساجد . ذلك لأن المسلم بطبيعة عقيدته سيدافع عن أماكن عبادته . ولكنه قد لايدافع عن بقية أماكن العبادة : ومن ثم قدمت الآية الصوامع والبيع والصلوات حتى لايغفل المسلم عن الدفاع عنها . ويوقن بأن حمايتها جزء من رسالته في الحياة . (١٣)

وهذه الحماية لأماكن العبادة غير الاسلامية تدل على سماحة الاسلام . وأنه مع نسخه لكل دعوات الأنبياء . الذين خلوا من قبل محمد صلى الله عليه وسلم لايكره أحدا على الايمان به . بل يحمي هؤلاء الذين أبوا أن يصدقوا بدعوته من الاعتداء عليهم أو ظلمهم أو انتهاك حرمات أماكن عبادتهم : ماداموا لايمكرون بالاسلام والمسلمين .

وإذا كانت تلك الآيات قد أذنت بالقتال . دفعا للظلم والاعتداء ، فإن الأمر ليس مقصورا على ظلم يتعرض له المسلمون . وإنما يشمل كل ظلم يقع على أى إنسان دون نظر إلى جنس أو لون أو لغة أو دين . فالاسلام قوة تنصر الحق في كل مكان قوة تدك قواعد الظلم والاسترقاق والاستغلال . حيثما كانت (١٤) . ومن هنا وجب على الأمة الاسلامية أن تقف بالمرصاد للطغاة في أية بقعة من بقاع الأرض . تنقذ المستضعفين والمقهورين من العسف والجور . فهؤلاء القاسطون يخذلون الحق . ويناصرون الباطل . فهم بذلك لايمكنون لكلمة الله ، وإنما يمكنون لسلطان الهوى . فكان على المسلمين محاربتهم : وتحرير الانسان من بطشهم وظلمهم « ومالكم لاتقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك نصيرا . الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا » . (١٥)

نصرة للحق وحمايته

وكانت الحروب الاسلامية وستظل من أجل نصرة الحق ، وحماية المستضعفين ولم تكن أبدا وسيلة لفرض الدين ، وحمل الناس على اعتناقه قسرا . كما أنها لم تكن حروبا استعمارية بالمفهوم الحديث للاستعمار . وذلك أن عالمية الاسلام تفرض على المؤمنين به أن يبلغوه إلى سواهم دون أن يلزموهم به . وهم فيما يبلغون قد يمنعهم أولياء الشيطان من القيام بمهمتهم المقدسة . فكان لا مفر من تأمين طريق الدعوة . كي تتحقق الحرية الدينية لكل انسان . ويصبح من ثم مسئولا عن اختيار العقيدة التي يدين بها .

وسارت الجيوش الاسلامية . في ركاب الدعوة إلى الله . وما كانت تستخدم السلاح أو تمارس القتال الا حين يقف الطغاة يسدون طريق الدعوة . ويحولون دون القيام بفريضة البلاغ . ومن ثم كان يسبق الحرب أمران إذا ووفق على أحدهما فلا قتال .

(الأمر الاول) : البدء بالدعاء الى الاسلام . فان آمن القوم اختيارا ورغبة فهم إخواننا لهم مالنا وعليهم ماعلينا . فإن أبوا ولم يستجيبوا فليس على المسلمين اكراههم ، على الايمان بالاسلام . ولكن عليهم أن يدعوهم إلى (الأمر الثاني) : وهو أن يدخل هؤلاء القوم مع المسلمين في عهد وميثاق ليصبحوا أهل ذمة . لايتعرض لهم في عقائدهم الدينية ، ويتمتعون بكل حقوق الحماية والرعاية في مقابل فريضة مالية يسيرة لاتجب على غير القادرين منهم . وذلك العهد لغرض واحد : وهو أن يأمن المسلمون هؤلاء . حتى لايظاهروا غير المسلمين على المسلمين . فإن أبوا أن يدخلوا مع المسلمين في عهد وميثاق . فقد جاهروا بهذا الرفض بالعداء . وكأنهم يعلنون وقوفهم ضد تبليغ الدعوة الاسلامية إلى الناس . فتصبح الحرب في هذه الحالة لاخضاعهم وتحرير الناس من تسلط المتجبرين . ومن يفرضون على غيرهم عقائد خاصة . إرضاء لأطماعهم وأهوائهم .

ومادامت الحرب الاسلامية لنصرة الحق وحمايته فإنها ترفض كل ألوان الحروب التي تسعى للتخريب والتوسع والاستغلال وسرقة حرية الشعوب وثرواتها « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين » . (١٦)

هذه هي الدعامة الأولى للجهاد في الاسلام . وتكاد تكون دعامة الدعائم ، ومنها يبدو جليا أن الحرب في هذا الدين ضرورة ، وأنها ليست أصلا من أصوله . وأنها لحماية الحق ونصرته فحسب . فهي من ثم حماية للأمن والسلام والاستقرار بين الناس : لأن مهمتها مقصورة على مناهضة الذين يفتنون الضعفاء : أو يريدون علوا في الأرض : وهؤلاء أعداء السلام . فحربهم والقضاء عليهم حماية للسلام . وتدعيم لبنيانه .

إن الاسلام دين السلام : يدعو اليه . ويدافع عنه . ولا يلجأ الى الحرب إلا مكرها . وليست القوة التي يدعو اليها للبغي والاستعلاء . ولكنها قوة رحيمة عادلة ترهب أعداء الله . فلا يعتدون . أو يثيرون المشكلات التي تحمل على سفك الدماء وإزهاق الأرواح ، فهي قوة تحمي السلام : وتطهر المجتمع الانساني من الطغاة وتجار الحروب .

سلام العزة والكرامة

فالسلام الذى يدعو إليه الاسلام ، إذن هو سلام العزة . هو السلام الذى لايرضى بالهوان والدون من العيش . « فلاتهنوا وتدعوا الى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم » (١٧) . أى أنتم الاعلون عقيدة وعبادة وخلقا وأدبا وعلما وعملا فلا ينبغى لكم أن تهنوا وتذلوا لغيركم : ويجب أن تكون حمايتكم للسلام مردها الى قوتكم . وكف العدو عنكم . وتمتع كل انسان بحريته وكرامته .

وتؤكد الدعامة الثالثة أن الحرب ليست غاية في ذاتها وليست كذلك وسيلة للمغنم المادى أو الاستعلاء في الأرض . وإنما هي ضرورة لمنع الشر . ومن ثم كان الاعتداء

محرما . وكان أخذ العدو غدرا وغيلة ليس من أسس الجهاد في الاسلام . فالمعتدون لن يكونوا أبدا حماة للحق والخير . ولا دعاة للسلام والحرية . والغادرون ليسوا أهلا لحمل رسالة الاخاء والقسط . وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولاتعتدوا إن الله لايحب المعتدين واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث اخرجوكم . والفتنة أشد من القتل ولاتقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه . فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين . فإن انتهوا فان الله غفور رحيم . وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين لله فان انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين » (١٨)

وقد تضمنت هذه الآيات البينات المبادىء التالية :ـ

(١) الأمر بقتال الذين يبدأون بالعدوان ، ومقاتلة المعتدين . لكف عدوانهم . وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم » .

(٢) أما الذين لايبدأون بعدوان فانه لايجوز قتالهم ابتداء . فقد نهى الله عن الاعتداء « ولاتعتدوا إن الله لايحب المعتدين » .

(٣) وتعليل النهي عن العدوان بأن الله لايحب المعتدين دليل على أن هذا النهي محكم غير قابل للنسخ . لأن هذا إخبار بعدم محبة الله للاعتداء والأخبار لايدخلها النسخ . لأن الاعتداء هو الظلم . والله لايحب الظلم أبدا .

(٤) أن لهذه الحرب المشروعة غاية تنتهي اليها . وهي منع فتنة المؤمنين والمؤمنات بترك إيذائهم وحرياتهم ليمارسوا عبادة الله ويقيموا دينه . وهم آمنون على أنفسهم من كل عدوان (١٩) » .

تعمير الحياة

فالجهاد الاسلامي مع غايته السامية في نصرة الحق . وكفالة الأمن جهاد شريف نظيف لايعتدى ولا يغدر . لأن هذه الغاية تمنعه من أن يكون أداة غضب وظلم . فهو دائما أداة عدالة وكرامة وإخاء انساني .

وماذا الجهاد في الاسلام لايعرف جورا ولايسعى لمغنم مادي وإنما يحرص كل الحرص على منع الشر وإقامة الحق . فإن من دعائمه الاساسية مقاتلة المقاتلين وحدهم . أى أن الحرب تصبح مقصورة على المحاربين

ولاتتجاوزهم الى غيرهم ممن ألقوا السلاح . أو لايمارسون القتال . كذلك لاتتجاوز الأهداف العسكرية الى الأهداف المدنية . فالجهاد الاسلامي للتعمير لا للتدمير ولحماية الحياة لا لتخريبها ونشر الهلاك في ربوعها .

إن الذين لايقاتلون لاينبغي أن يتعرض لهم بأذى . وكل أسباب الحياة من زروع وثمار وحيوانات ومصانع ودور وجسور ونحو ذلك لايجوز أن تكون أهدافا عسكرية فالحرب في الاسلام أشبه ماتكون بعملية جراحية يجب الا تتجاوز موضع المرض بمكان (٢٠) . ومن هنا حرم الاسلام قتل النساء والشيوخ والأطفال والمرضى والعباد . كما حرم إفساد الزروع والمياه . وابادة الحيوانات . وهدم البيوت وغير هذا من وسائل العيش . قال تعالى : « ولاتفسدوا في الأرض بعد إصلاحها (٢١) » .

وحدث نافع عبدالله بن عمر : ان امرأة وجدت في بعض مغازي الرسول صلى الله عليه وسلم مقتولة فأنكر ذلك . ونهى عن قتل النساء والصبيان . « وكان عليه الصلاة والسلام كلما بعث جيشا أو سرية قال : اغزوا باسم الله في سبيل الله . قاتلوا من كفر الله . اغزوا ولاتغلوا ولا تغدروا ولاتمثلوا ولاتقتلوا وليدا » (٢٢) .

وجاء في وصية ابى بكر الصديق رضى الله عنه لأسامة حين بعثه الى الشام .. « لاتخونوا ولاتغلوا ولاتغدروا ولاتقتلوا طفلا صغيرا ولاشيخا كبيرا . ولا امرأة ولاتعقروا نخلا ولا تحرقوه ولاتقطعوا شجرة مثمرة . ولاتذبحوا شاة ولابقرة ولابعيرا إلا لمأكلة . وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له » .

وكان من وصايا عمر بن الخطاب لأمراء الجنود :

« ولاتقتلوا هرما ولاامرأة ولا وليدا . وتوقوا قتلهم إذا التقى الزحفان وعند شن الغارات » .

تقوى في الحرب والسلم

فالحرب الاسلامية حرب بناء لاتتخذ من الأهداف المدنية سبيلا للنصر . لأن رسالتها حماية هذه الأهداف . وهى أيضا حرب علاج لشذوذ لم تنفع فيه الحكمة والموعظة الحسنة (٢٣) . فلا يصلى بحرها إلا الذين

● مفهوم الجهاد لايقتصر على العمل العسكري بل يمتد إلى كل عمل صالح في الأسرة والمجتمع

● من أهم دعائم الجهاد في الإسلام احترام حقوق الإنسان

● الموقف الإسلامي الصحيح يرفض الحروب الذرية والنووية

يخوضون غمارها . ويحملون أوزارها وغير هؤلاء لاينالهم سوء .

واذا كانت أسلحة الحرب في العصر الحاضر يتجاوز خطرها المحاربين فان المبدأ الاسلامي ثابت وصحيح . وهو أن السلاح لايوجه الى غير مقاتل أو الى هدف غير عسكرى . فاذا نجم عن استخدام هذه الأسلحة قتل من لا يقاتل أو تدمير بعض الأهداف المدنية فان هذا لايؤثر في سلامة المبدأ . واستمرارية الالتزام به . لأن ما لايمكن التحرز منه لايقدح في أصل التشريع وصحته . وتطبيقه . فلا تكليف إلا بما يطاق .

ولا مراء في أن جهاداً يقوم على هذه الدعائم . ويتقيا تلك المثل يكون على مافيه من ازهاق للأرواح رحمة ونعمة . ويكون في جوهره حماية للانسان أيا كان من كل اعتداء على كرامته . أو امتهان لحريته . أو غبن لحقوقه . ويكون مع أعدائه المحاربين رؤوفا عادلا يترفع عن الوحشية والهمجية والانتقام . ومن ثم يحرم الاسلام التمثيل بالقتلى . والاجهاز على الجرحى . وتتبع المدبرين والفارين . ولا يبيح إساءة معاملة الأسرى . ولا التنكيل بهم فضلا عن قتلهم . وقد وضع في معاملتهم قاعدة انسانية فاضلة « فإما منا بعد وإما فداء » (٢٤) وجعل اطعامهم من صفات الأبرار المقربين الى الله « ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا » . (٢٥)

إن الأسير في الاسلام انسان محقون الدم محترم الحقوق . يلقى كل رعاية وعناية فلا يقتر عليه في اطعام . ولا يهمل في علاج . ولا يكره على الايمان بما لايرضاه . ولا يعذب للحصول على معلومات منه . ويظل هكذا حتى يبت في أمره بالمن أو الفداء أو تبادل الأسرى .

واذا كان الاسلام يبيح للمسلمين أن يردوا على الاعتداء بمثله فإنه قد قرن هذا الرد بتقوى الله . لكي نكون في رد الاعتداء رحماء نخشى الله . ولانهبط في سلوكنا ولو كان العدو قد انحط في أفعاله . فارتكب أبشع الجرائم والمنكرات فاذا كان العدو قد مثل بالقتلى . أو قتل الأبرياء . أو عذب الاسرى مثلا فاننا لانفعل كما فعل . وانما نعاقب المجرم على مااقترف . ولاتمتد أيدينا الى سواه بالأذى والاعنات .

وهكذا يكون الجهاد المسلح في الاسلام ضرورة تنصر الحق وتحمي السلام . وتنقذ الناس من دياجير الاضطهاد والفساد . وهو الى هذا قوة لاتظلم ولا تدمر . فهي تحرر وتعمر وتحترم آدمية الانسان . وارادته . فلا تلزمه بما لايرغب فيه . ولاتمتهن كرامته بصورة ما . وبذلك لا تصح مزاعم الذين يذهبون الى أن الاسلام انتشر بالسيف . وأن الفتوحات الاسلامية كانت احتلالا واسترقاقا للشعوب . فما كانت الحرب في الاسلام ولن تكون الا سلاحا يحمي الحقوق . ويكفل الحريات . دون أن يكره أحد على شيء .

ولا وجه للموازنة بين الحرب الاسلامية وغيرها من الحروب . فهذه لاضمير لها . انها لاتفرق بين من يقاتل ومن لايقاتل . وتدمر الأهداف المدنية قبل الأهداف العسكرية . وتسعى لقهر الضعفاء لا لنصرتهم . وتستخدم اليوم أسلحة رهيبة تفتك بكل كائن حي . وتدمر وسائل الحياة جميعها . ولهذا تعيش البشرية في حاضرها حالة من الهلع والفزع . فالحرائب الكونية تهدد وجودها . وتنذرها بالعودة الى عصور البدائية الأولى ولن ينقذها من هذا الكابوس الرهيب إلا الاسلام بمبادئه وقيمه . والمسلمون دون غيرهم . إن فقهوا دينهم ورسالتهم هم الذين يجنبون البشرية ذلك المصير المحتوم .



الخلاصة

ان الجهاد الاسلامي يحمي الحياة كل الحياة . ويحرس الأحياء كل الأحياء فلا يبغي حي على حي . ولا يستعلي مخلوق على مخلوق . ولاتبطش أمة بأمة . ولا تتكتل كتلة ضد أخرى . ولايستبد قوى بضعيف . ولاتمكن الأحلاف المسعورة من اطلاق الموت الجماعي والفناء المستأصل والدمار الشامل والتلاعب بالأسلحة « الذرية » و « النووية » و « الهيدروجينية » و « النتروجينية » وسائر مصادر الشقاء والتعاسة والابادة لهذه الانسانية وحضارتها (٢٦)

محمد الدسوقي ـ جامعة قطر

هوامش

١ ـ الآية : ٨ في سورة العنكبوت .
٢ ـ رواه الامام مسلم .
٣ ـ الآية : ٦٠ في سورة الانفال .
٤ ـ انظر فقه السنة للشيخ سيد سابق المجلد الثالث ص ٢٢ ط دار الفكر بيروت .
٥ ـ الآية : ٧٤ في سورة النساء .
٦ ـ الآية : ١١١ في سورة التوبة .
٧ ـ الآية : ١٦٩ ـ ١٧١ في سورة آل عمران .
٨ ـ الآية : ١٨ في سورة الانبياء .
٩ ـ الآية : ٢٤٤ في سورة البقرة .
١٠ ـ الآية : ٧٦ في سورة النساء .
١١ ـ رواه الامام النسائي .
١٢ ـ الآية : ٣٩ ـ ٤١ في سورة الحج .
١٣ ـ انظر مجلة « منار الاسلام » العدد الثاني من السنة الثامنة ص ١٨ .
١٤ ـ انظر فلسفة الجهاد في الإسلام للاستاذ السيد عبدالحافظ عبدربه ص ٥٨ ط بيروت .
١٥ ـ الآية : ٧٥ ، ٧٦ في سورة النساء .
١٦ ـ الآية : ٨٣ في سورة القصص .
١٧ ـ الآية : ٣٥ في سورة محمد .
١٨ ـ الآية : ١٩٠ ـ ١٩٣ في سورة البقرة .
١٩ ـ انظر فقه السنة ـ المرجع السابق ص ٢٣ .
٢٠ ـ المصدر السابق ص ٦٠ .
٢١ ـ الآية : ٥٦ في سورة الاعراف .
٢٢ ـ رواه الامام مسلم .
٢٣ ـ انظر الإسلام عقيدة وشريعة للشيخ محمود شلتوت ص ٤٧٤ ط دار الشروق .
٢٤ ـ الآية : ٤ في سورة محمد .
٢٥ ـ الآية : ٨ في سورة الإنسان .
٢٦ ـ انظر فلسفة الجهاد ص ٨٧ .

خطوة للوراء .. خطوة للأمام

شعر: محمد ابراهيم أبو سِنّة

خطوةٌ للوراء
خطوةٌ للأمام
لم نعد نستطيع قراءة
أسمائنا فى الظلام
لنعرف من نحن ؟
ماذا نخبىء بين ملامحنا
وردة أم حسام
لم نعد نستطيع إذابة أرواحنا
فى الغمام
واليمام .
آهِ هذا اليمام
كان ملء الفضاء
انطوى ميّتاً فى الرغام
لم نعد نستطيع السكوت
لم نعد نستطيع الكلام
لم نعد نستطيع تبين موضع
أقدامنا
وسط هذا التردد حول المسافة ..
.. بين الحلال وبين الحرام
وحدنا نسلك الآن درب القنوط
وحدنا فى فراغ الزحام
لم نعد نستطيع البكاء
لم نعد نعرف الابتسام
ياترى هذه لحظة الابتداء
أم تُرى لحظة للختام
كل هذى العيون التى
حدّقت فارقت جفنها
ـ دهشةً ـ
بعد حين تنام
والبلاد التى فى شغاف الفؤاد
ليس تعرف كيف تشد الزمام
وكيف تميز بين مصائبها
وبين قلوبنا تمدُّ لها الحب
بين قلوب تؤجج نار الخصام
لم نعد نستطيع سوى أن نعدد أوجاعنا
ثم نمضى إلى غير ما وجهة
فوق نفس الطريق بغير اهتمام
خطوةٌ للوراء
خطوةٌ للأمام
لم نعد نستطيع القعود
لم نعد نستطيع القيام
لم نعد نستطيع الحروب
لم نعد نستطيع السلام
« عاجل هذا وهام »
ليس هذا الضجيج الكلام
ليس هذا السكوت انهزام
خطوةٌ للأمام
خطوةٌ للأمام

استلهام كليلة ودمنة في الأدب العربي الحديث

بقلم: أحمد محمد عطية

منذ أبدع عبد الله بن المقفع تعريبه لكتاب «كليلة ودمنة» في القرن الثاني الهجري، اتخذ العرب والعالم كله من قصصه وحكاياته وحكمه ونهجه وأسلوبه منبعا غزيرا للاغتراف والترجمة والتقليد والاقتباس والاستلهام والابداع الأدبي والفكري والفني.

فقد ترجم الكتاب الى اللغة العربية أكثر من مرة. ومع ذلك ظلت ترجمة ابن المقفع بصياغتها العربية وإضافاتها الإسلامية هي المصدر الوحيد الذي نقل عنه العالم كله، بما في ذلك الفرس، وعرف منه حكايات «كليلة ودمنة». كما تعددت صياغات «كليلة ودمنة» في العربية شعرا ونظما ونقلا وتقليدا. كما فعل ابن قتيبة في «عيون الأخبار» وابن الهبارية في «نتائج الفطنة في نظم كليلة ودمنة»، وأبو العلاء المعري في «القائف»، واخوان الصفا في الرسالة السابعة عشرة من رسائلهم..

كما ترجم الكتاب الى أكثر من أربعين لغة، اعتمادا على النسخة العربية، وصار مصدراً للتقليد والالهام والإبداع لدى عدد كبير من الأدباء والفنانين، وتجلى ذلك في الأدب القصصي وفن الرسم. فمنه استوحى الكاتب القصصي الفرنسي الشهير «لافونتين» حكاياته الخرافية وجعل من قصص الحيوان موضوعا لبعض قصصه. كما فعل ذلك أيضا أديب إيطاليا الكبير «بوكاشيو» في عمله المعروف «ديكاميرون».

استلهام حديث لكليلة ودمنة

وها هم أربعة من الأدباء العرب المحدثين، ينتمون إلى أقطار عربية مختلفة، يتجهون من جديد الى هذا العمل الهام في التراث العربي والانساني، وأحد أقدم درر النثر الفني العربي ليستلهموه في ابداع أدبي حديث متنوع، ويشحنوه بقضايا ومفاهيم عصرية، مما يؤكد وحدة التراث العربي والثقافة العربية وسريانهما في الوجدان العربي الواحد. كما يبرز صلاحية التراث العربي للاستلهام والابداع في عصرنا وفي كل العصور.

أما الأدباء الأربعة، فهم: الأديب الفلسطيني الدكتور اسحق موسى الحسيني في روايته «مذكرات دجاجة»، والكاتب التونسي الطاهر قيقة في مجموعته القصصية «نسور وضفادع»، والروائي المصري ابراهيم أصلان في روايته «مالك الحزين»، والكاتب المصري أحمد بهجت في كتابه «حوار بين طفل ساذج وقط مثقف».

ومعروف ان كتاب «كليلة ودمنة» يتضمن حكايات هندية صيغت في قالب قصصي يبرز الحكمة بالرمز على ألسنة الحيوانات والطيور، لتعليمها للملوك والحكام. غير أن الحكايات الهندية، المنقولة عن كتاب «البنجاتنترا» أو «الأسفار الخمسة»، بإضافات فولكلورية، شغلت بعض أبواب الكتاب فحسب، ثم جاءت الإضافات للكتاب عند ترجمته من اللغة السنسكريتية (الهندية) إلى اللغة البهلوية (الفارسية) ثم إلى اللغة العربية بترجمة عبد الله بن المقفع، وهي ترجمة بتصرف وتعريب بإضافات وصياغات عربية وإسلامية تتفق مع البيئة العربية والدين الاسلامي والأخلاق الاسلامية. فقد أضاف ابن المقفع إلى الكتاب «باب عرض الكتاب». ويذكر محمد حسن نائل المرصفي، في تقديم المحقق لكليلة ودمنة (طبعة مؤسسة الزين بيروت سنة ١٩٨٠)، أن «هناك ستة أبواب لم تكن معروفة قبل الترجمة العربية: وهي مقدمة الكتاب على لسان بهنود بن سحوان المعروف بعلى بن الشاه الفارسي، وباب عرض الكتاب لابن المقفع، وباب الفحص عن أمر دمنة، وباب الناسك والضيف، وباب مالك الحزين والبطة، وباب الحمامة والثعلب ومالك الحزين». (ص ٧) وقد فقد الأصلان الهندي والفارسي معا، في حين حفظ العرب نصوص «كليلة ودمنة» بترجمة ابن المقفع وصياغته العربية التي عرف عنها العالم كله بكليلة ودمنة وترجمها كتابه، ونقلوا منها واستلهموها في أعمالهم الأدبية والفنية. وهذا هو فضل العرب.

ولا تتمثل الإضافات العربية لكليلة ودمنة في الترجمة أو إضافة بعض الأبواب فحسب، ولكنها تمتد أيضا إلى صميم الشكل والموضوع والأسلوب والفكر. وقد أجرى الأستاذ الكبير الدكتور عبد الحميد يونس دراسة مقارنة بين الأصل الهندي والنسخة العربية، ألحقها بترجمته القريدة للبنجاتنترا. (صدرت عن هيئة الكتاب بالقاهرة سنة ١٩٨٠ بعنوان «الأسفار الخمسة أو البنجاتنترا»)، توصل فيها إلى أن الصياغة العربية للحكايات الهندية تشكل إبداعا عربيا بإضافاتها العربية والإسلامية إلى النصوص الهندية، هذه الإضافات التي غايرت العمل الهندي كله وإن أبقت على التفاصيل. وأوضح الدكتور عبد الحميد يونس أن وجوه الاختلاف بين الأصل الهندي والنص العربي متعددة: مثل «أن

« غلاف كتاب « حوار بين طفل ساذج وقط مثقف »

غلاف رواية « مذكرات دجاجة »

الأصل السنسكريتي إنما كان موجها إلى رجال يفتقرون إلى الفطنة ورجاحة العقل . أما كليلة ودمنة فأحاديث موجهة إلى أحد الملوك . لكى يعتصم بالوسط الذهبى فى السلوك . وألا يندفع إلى التهور والشطط ببساطة الحكايات والأمثال المستخلصة منها . وهذا التطور يشبه ، بل يطابق الحكاية المحورية فى كتاب ألف ليلة وليلة ، وهى المجموعة القصصية العربية ، التى كانت بمثابة البؤرة ، تتجمع فيها حكايات العالم ، ثم تنعكس بعد ذلك عن طريق الشعب العربى إلى أوروبا متناثرة حينا ومجموعة بهذه اللغة أو تلك أحيانا » (ص ٢٢ ، ٢٣) .

ويضيف الدكتور عبد الحميد يونس ، فى دراسته المقارنة الرائدة لأوجه الاختلاف بين الأصل الهندى والنص العربى ، اختلاف الجو الدينى والسياسى . فبينما تتعدد الآلهة فى الهند يتوحد الله فى الاسلام . وينعكس ذلك على أجواء الحكايات الدينية والاجتماعية والسياسية وعلى أنواع الحيوانات المختلفة باختلاف البيئات . بل ان الاختلاف امتد أيضا إلى تسمية الحيوانات وتشخيصها واستخدامها ورؤيتها للمخلوقات الخارقة أو غير المنظورة ، حتى وصل الاختلاف إلى اسم الكتاب : فهو فى « البنجاتنترا » « كرطكه ودمنكـه » أى « ذو العواء المخيف والمنتصر » ، بينما أطلقت النسخة العربية اسمى « كليلة ودمنة » على ابني آوى . وقد عرف العالم الكتاب بعنوانه العربى .

ولعل أهم اضافة عربية اسلامية تتمثل فى تأثير شخصية ابن المقفع وثقافته الاسلامية ومعارفه الواسعة باللغات والفلسفة والمنطق ، وأسلوبه البديع الواضح والسهل والموجز ، فى عرض الحكايات وتغيير أسماء الأماكن والحيوانات ، مبدعا عملا عربيا يجمع بين فن الأدب وجمالية التعبير والغايات التعليمية ، و« يعد من معالم الأدب العربى والأدب العالمى فى وقت واحد » ، كما وصفه بحق الدكتور عبد الحميد يونس .

مذكرات دجاجة

تستلهم رواية « مذكرات دجاجة » ، للأديب الفلسطينى الدكتور اسحق موسى الحسينى شكلها ونهجها من شكل ونهج كتاب « كليلة ودمنة » ، بتقديم الحكمة والموعظة رمزا ومباشرة على ألسنة الطيور والحيوانات فى قالب قصصى ، وتنطلق منه إلى آفاق أدبية وفكرية وفلسفية واجتماعية عصرية ، على لسان دجاجة . وهى « دجاجة عاقلة مفلسفة .. تدرس شؤون الاجتماع فى كثير من التعمق وتدبر الرأى ، فتصل إلى استكشاف بعض الأدواء الاجتماعية وتصف لها الدواء » كما وصفها الدكتور طه حسين فى تقديمه للرواية . وأضاف الدكتور طه حسين رابطا بين الرواية وبين « كليلة ودمنة » : « وكذلك كشفت لنا هذه الدجاجة عن نظراء بشاركوننا فى لذاتنا وآلامنا وفى محاسننا وعيوبنا . وهى فى ذلك تشبه تلك الحيوانات التى تحدثت فى كليلة ودمنة منذ قرون طوال . ومن يدرى ؟ لعلها تتحدث كما تحدثت تلك الحيوانات جاعلة من نفسها رمزا لنا معربة عما لا نستطيع نحن أن نعرب عنه حين نريد أن نصور حياتنا ونصف ما فيها من العيوب والأدواء » (« مذكرات دجاجة » الطبعة الرابعة ، ١٩٨٠ . نشر الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين ، ص ١٧ و١٨) .

وجدير بالذكر أن مقدمة د . طه حسين لهذه الرواية تؤكد رؤيته القومية العربية البادية فى ترحيبه بنشر رواية « لأخ من أهل فلسطين » لأول مرة فى سلسلة « اقرأ » سنة ١٩٤٣ . « كوسيلة من وسائل التعاون الثقافى وتحقيقا للوحدة الفكرية بين أهل الوطن العربى كله » . وقد عدت هذه الرواية من التراث الثقافى الفلسطيني ، وأعيد نشرها فى سلسلة إحياء هذا التراث .

فى البداية تروى الدجاجة حدثا هاما فى حياتها ، وهو اجبارها على الرحيل من بيتها القديم . ويستخدم الروائى أسلوب الارتداد للماضى (الفلاش باك) لتصوير عملية الاجبار على الرحيل . كما تتحدث الدجاجة ، عن طريق السرد والمونولوج الداخلى ، لتعبر عن مشاعرها الحزينة ازاء هذا الحدث ، وتمزج ذلك بالحوار الموجز المتبادل مع زميلاتها ثم تؤرخ الدجاجة لحياتها فى البيت الجديد ، وتتأمل فى أسباب انتزاعها من أحضان أهلها . فتنتاب مشاعر الأسى للرحيل عن البيت القديم ومشاعر الغربة فى البيت الجديد . وتسوق الحكمة والموعظة كما تفعل حكايات « كليلة ودمنة » ، مسلمة بسيطرة القدر وضرورة القناعة والرضا واستبعاد الطموحات المعذبة . ومن ثم تتزوج الدجاجة وتسعد بالحياة مع الزوج الجديد فى البيت الجديد . وتعبر الدجاجة عن حبها لزوجها الجديد بعبارات شاعرية جميلة تفلسف فيها الحب . وتكبر فى الزوج شجاعته وتصديه للمعتدى على الدجاج .

وبينما الدجاجة تلهو مع رفيقاتها وتنعم ، كما يفعل البشر ، بالرقص والغناء والدعة والسلام . تفاجأ بحادث عدوان يزلزل كل مفاهيمها السابقة ويوقظ فيها قواها الايجابية . عندما هبط عليهم عدو مخيف ، تصدى له الزوج القوى ، فانقض على العدو مصاولا مقاتلا ، حتى قضى عليه بعد صراع رهيب .

وينمي الروائى هذا الحدث ، ويتابع تأثيره على الدجاج يتفتح وعيه ويقظته من « الغيبوبة » والاستسلام للدعة ، وهى يقظة محدودة لم تدم « أكثر من نصف ساعة » . حتى

استلهام كليلة ودمنة في الأدب العربي الحديث

خرجنا من طور اليقظة إلى طور التخدير ، غير أن الدجاجة العاقلة لم تلبث أن أخذت تفكر في مصيرها إذا انتصر العدوان ، وقررت تناول الأمور بجدية ومسئولية دون استسلام للقدر أو اعتماد على دفاع الزوج القوى ، وذلك بالتسلح بالقوة . ووجهت حديثها إلى الأجيال الجديدة بضرورة تجاوز « حدود الأمانى إلى حدود العمل » . وأكدت بإصرار وحزم : « نحن بين أمرين : إما أن نعيش عيشة الأيم والبؤس والشقاء عند فقد ذكورنا ، وإما أن نسلح أنفسنا ضد العوادى والخطوب منذ نشأتنا ، وفي أيام صبانا . فنخفف من قسوة الدهر ، ونقلم من أظافر المصائب » (ص ٣٩) .

هكذا تصوغ الدجاجة نداء الدعوة للمقاومة المسلحة ، والاستعداد العلمى لمواجهة الأعداء والعدوان ، بهذا الرمز البسيط الشفاف يوجه الروائى الفلسطينى نداءه لليقظة والنضال في الوطن الفلسطينى المحتل بالقوات البريطانية والعصابات الصهيونية في وقت كتابة الرواية (بالقدس سنة ١٩٤٣) ، مستلهما نهج « كليلة ودمنة » بالرمز والموعظة والحكمة على ألسنة الطيور والحيوانات ، والإيماء من خلالها إلى قضية سياسية عربية معاصرة .

نسور وضفادع

والطاهر قيقة أديب عربى أصيل من تونس ، نشأ في قرية « تاكرونة » ، « مرابع أحفاد بنى هلال » ، حيث البادية والزرع والحيوان ، وارتبط بها وأخلص لها وعبر عنها ، كما صاغ « ملحمة بنى هلال » بالعربية الفصحى وحققها ثم ترجمها أيضا إلى الفرنسية وقدمها بعنوان « أقاصيص بنى هلال » . وهو أديب عربى مجدد يجمع بين الأصالة والمعاصرة وبين الجمالية والاجتماعية .

وتضم مجموعته القصصية الفريدة « نسور وضفادع » التى صدرت طبعتها الأولى سنة ١٩٧٣ ، نوعين من القصص ، قصص البشر وقصص الحيوان . وقد كتبت القصص على مرحلتين : الأولى من سنة ١٩٥٥ إلى سنة ١٩٥٦ ، وهى مرحلة اسكتشات أو استكشاف ، وتضم بعض اللوحات والأقاصيص المعبرة عن رؤية الكاتب لهموم المجتمع التونسى الحديث . فلا صلة لها بدراستنا عن استلهام قصص الحيوان في « كليلة ودمنة » . أما المرحلة الثانية فهى من ١٩٦٧ إلى ١٩٧٣ ، وهى التى تضم قصص الحيوان . وقدم المجموعة الأديب والفنان التونسى عز الدين المدنى بدراسة مقارنة بين حيوانات « كليلة ودمنة » وحيوانات الطاهر قيقة ، وانتهى فيها إلى أن « كليلة ودمنة كتاب حيوانى يرمز إلى البشر ، أما قصص الطاهر قيقة الحيوانية فلا ترمز إلا لنفسها » . (« نسور وضفادع » ، الطبعة الثالثة ١٩٨٤ ، الدار التونسية للنشر ، ص ٢٥ و٢٦) ، غير أن المولى لم يستطع تجاهل إنسانية قصص قيقة الحيوانية ، فعاد ليؤكد عنايتها بالأوضاع الإنسانية ، متناقضا في هذا مع أقواله السابقة المنكرة لترميزها للبشر ، وذلك بقوله إن القصص توجد بها « جميع الأمور الانسانية طبعا ! أى الأوضاع الملتبسة ، والمشاعر المتقلبة ، والمواقف الحركية ، والقضايا الفكرية المهموسة » . وأضاف عز الدين المدنى موضحا : « أن الاستاذ الطاهر قيقة أراد أن يبين الأوضاع الإنسانية من خلال دنيا الحيوان » (ص ٢٧ و٢٨) .

فقد قصد هذا الأديب العربى الأصيل والمجدد إلى الحداثة من مدخل الأصالة مستلهما حكايات « كليلة ودمنة » بألسنة الحيوان والطير في أشكال قصصية حديثة ومفاهيم عصرية ، مومئا من خلالها ورامزا إلى هموم الانسان العربى وقضايا الانسان في كل مكان . فنطالع في قصص الطاهر قيقة حيوانات حقيقية مصورة في صور دقيقة متتابعة مرسومة بقلم كاتب خبير بعالم الحيوان وأنواعه وطباعه . والابداع الذى يضيفه خيال الكاتب يتمثل في إضافته رؤية الحيوان لعالم البشر وتقديمه لمشاعر الحيوان في صور إنسانية ، ومن خلال ذلك يتصاعد الرمز والحكمة والعظة .

مالك الحزين

أما القصاص والروائى المصرى ابراهيم أصلان فقد استلهم روح « كليلة ودمنة » في روايته الحديثة « مالك الحزين » ، فتخلى عن حيواناتها واكتفى باتخاذ اسم أحدها « مالك الحزين » عنوانا للرواية ، وأقام شكلها على منوال الحكاية الشعبية العربية في « كليلة ودمنة » ، ورسم أهم شخصياتها « يوسف النجار » على هديها .

وقد جاء ذكر « مالك الحزين » بكتاب « كليلة ودمنة » في « باب الحمامة والثعلب ومالك الحزين » ، « وهو باب من يرى الرأى لغيره ولا يراه لنفسه » . وقيل إن هذا الباب لم يرد في الأصل الهندى ، وانه من الإضافات الموجودة في النسخة العربية . وقد ضرب بمالك الحزين المثل على أنه هو الذي ينصح غيره ولا يطبق النصيحة على نفسه ، مما أورده حتفه .

وكما وقف « مالك الحزين » في « كليلة ودمنة » أمام النهر المتناقص صامتا عاجزا عن الحركة والفعل ، رافضا الشرب من ماء النهر بالرغم من ظمئه القاتل ، كذلك فعل « يوسف النجار » في رواية « مالك الحزين » ، بتوقفه وعجزه الدائم عن الحركة والفعل والمشاركة والابداع . وتردد الرواية ذكر النهر مع كلمات الاحباط واليأس وانهيار الأحلام .

وتتمثل الإضافة التى يقدمها ابراهيم أصلان في استلهامه لشخصية « مالك الحزين » التراثية ، في أنسنة هذه الشخصية وعصرنتها وتزويدها بمبررات موضوعية اجتماعية وسياسية ، لأزمتها وصمتها وحزنها . فيشير ابراهيم أصلان ، في غلاف الرواية الداخلى ، باستنكار ، إلى الحكاية المعروفة عن حمق « مالك الحزين » وموقفه الصامت الحزين من نقص الماء في النهر ويتمثل استنكار ابراهيم أصلان في استهلاله عبارة الغلاف المحورية بكلمة « زعموا » قائلا : « لأنهم زعموا أنك تقعد بالقرب من مياه الجداول والغدران فإذا جفت أو غاضت استولى عليك الأسى وبقيت صامتا هكذا وحزينا » (« مالك الحزين » ، الطبعة الأولى : مطبوعات القاهرة ١٩٨٣ ، ص ١) ومن ثم يومئ الروائى إلى رؤية جديدة لمالك الحزين ، تلك التى يضمنها روايته الحديثة وشخصيته



غلاف المجموعة القصصية «نسور وضفادع»

غلاف رواية «مالك الحزين»

الحزينة «يوسف النجار» . فنهجه في استلهام «كليلة ودمنة» نهج مضاد للمفهوم التراثي لمالك الحزين وأسباب صمته وحزنه . فقد نفى عنه صفة الحمق . ومع أنه استقى منه اسمه وأهم ملامحه ، إلا إنه أعاد تركيبه في مركب عصري جديد يجمع بين أصالة الحكاية الشعبية العربية والشخصية التراثية وبين الهموم الاجتماعية والسياسية والانسانية المعاصرة . في ابداع روائي متخيل وواقعي ورواية حديثة تقع أحداثها في يوم واحد ولكنها تجوس في عدة أزمنة وأمكنة عن طريق الاسترجاعات وتيار الوعي والمونولوج الداخلي وتعدد أصوات الشخصيات وتنوع رواها .

قـــط مثقف

وإذا كان الروائي المصرى ابراهيم أصلان قد حوّل طائر «مالك الحزين» ، في روايته التي حملت اسمه ، الى شخصية انسانية عصرية . فإن الكاتب المصرى أحمد بهجت جمع ، في كتابه «حوار بين طفل ساذج وقط مثقف» ، بين صورة القط الحيوانية وفكر الانسان المثقف .

وكما نفى ابراهيم اصلان صفة الحمق عن مالك الحزين : كذلك فعل أحمد بهجت بنفيه «العبارة الشائعة عن القطط أنها حيوانات خائنة وغادرة» . وجاء نفيه مستمدا من روح الاسلام التي تتغلغل في كل سطور الكتاب وتميزه : «لا تحتقر أحدا لأن الله اختار أن يخلقه حيوانا .. تعلم أن تتعلم من خلق الله . ان الصورة ليست إلا ظلا .. ولا يعلم حقيقة الكنه والمعنى سوى الله» (ص ٧ و ٨) .

وفي قصته الحوارية يروى الكاتب تجربته مع القط المثقف مستلهما نهج «كليلة ودمنة» في انطاق الحيوان وإبراز الحكمة في قالب قصصي يجمع بين الحوار الدرامي والحكايات المتفرعة من القصة الأصلية . فهو قط حكيم يقرأ ويفكر ويناقش بمنطق مقنع . وهو قط معتز بنفسه وبحريته . يرفض ان يمتلكه أحد لأنه يطعمه أو لأنه يحبه : «إنما أنا وأنت مماليك لمالك الملك» (ص ١٨) .

ويستخدم أحمد بهجت نهج الحكاية الشعبية العربية في تفريع القصة من القصة .

أما رؤية القط للحب والحياة والدنيا فهي رؤيا فلسفية إسلامية خلاصتها أن «الكل باطل وقبض الريح» . وأن الكمال لله وحده وعلى الخلائق أن تسعى إليه . «وبقدر ما تقطع من رحلتك الى الله . بقدر ما تقترب من جوهر الحقيقة وترتفع» (ص ٦٥ و٧٠) ويعلق الطفل الساذج على حكمة القط قائلا : «أدهشتني حكمته» . ويقرر أن يراقبه كقط حكيم ، فيجده قطا عاديا : يموء ويصرخ اذا جاع ويسرق السمك واللحم . دون اعتبار للحكمة والأخلاق . وحين يراجعه في ذلك التناقض بين أقواله الحكيمة وأفعاله اللئيمة . يومىء القط الى ما يفعله البشر في فصلهم بين أقوالهم وسلوكهم قائلا : «نحن ننتمى الى فصيلة الحيوان .. ومن الطبيعي أن تكون أقوالنا غير أفعالنا .. المأساة ان البشر يفعلون ما نفعله بغير حياء . ويجدون ما يبررون به جرائمهم من المنطق» (ص ٧٢) ويصف سلوك القط الحكيم قائلا : «أدركت أن القط يتفلسف .. كانت تصيبه موجات من الفلسفة لا أعرف السر فيها ، وكان يقول بالصمت أحيانا ، أو بنظرة عينيه . آلاف الأشياء الصعبة التي لا أفهمها» (ص ٨٤) .

ويـــتغنـــى القـــط بـــأشعار الصوفي جلال الدين الرومي في «المثنوى والمعنوى» . وهو لا يعترف بقيمة الحب البشرى . فالحب لله الخالق المصور وحده : «والحب البشرى طفولة قلب . هو حماقة إذا تجاوز حدوده .. وإنما يصير نضجا وحكمة إذا كنت تحب المصور لا الصورة ، وترى كل ما تراه من جمال بشرى أثرا من آثار إبداعه» (ص ١١٣) .

وهو قط سياسى وواقعي صريح يعترف بأنه «صوفي الباطن وفيلسوف وحكيم وأناني ونفعي في نفس الوقت» وأن مذهبه هو النفعية ، وأنه هو نفس مذهب أمريكا ، ويتساءل بحكمة : «أليست النفعية هي المسؤولة عن قيام المدنية الأمريكية والمجتمع الأمريكي .. ان هناك دولة نفعية تحكم العالم دون أن تلقى بالا لرغباته . على أساس انها تعرف ما فيه خير العالم أكثر مما يعرفه العالم .. كيف تقاوم القطط هذا النموذج الناجح الذى تقدمه أمريكا .. كيف تقاوم القطط إذا كان البشر لا يقاومون» (ص ١١٥) .

هكذا يستلهم الكاتب الإسلامى المصرى أحمد بهجت روح «كليلة ودمنة» ونهجها ، في كتابه «حوار بين طفل ساذج وقط مثقف» . فينطق الحيوان بالحكمة في قالب قصصي حوارى مشحون بالفكر المعاصر والرؤى الإنسانية والاجتماعية والسياسية الحديثة ، ويمزج هذا كله بالمفاهيم الإسلامية والثقافة الإسلامية .

وبعد ، هذه أربعة طرق لإحياء التراث واستلهامه ، قد تتنوع أو تتباين في الرؤية والتناول . ولكنها تتفق في تمثلها للتراث وهضمه وفي تجديده بإبداعه ومزجه بالثقافة الحديثة والقضايا العصرية . وهذا هو الطريق الأمثل لبعث التراث .

أحمد محمد عطية

قيل عنه إنه كان جلاداً ، أو تخفيفاً ، أحد الجلادين في معسكر اعتقال أقامه النازيون في بولندا خلال الحرب العالمية الثانية .. لكنه لم يكن في الواقع سوى أحد الحراس في معسكر تريْبلينكا . أما الصهاينة فيقولون إنه مسؤول عن اعدام ٨٧٥ ألف يهودي ، ويطلقون عليه اسم « إيفان الرهيب » ، ويقول هو : لقد كنت مجرّد جندي في جيش هتلر .. وماذا يفعل الجندي غير تلقّي الأوامر وتنفيذها .

النّازيّة الجديدة تطارد النّازيّة القديمة

ديمجانجوك في قبضة النازيين الجدد

بقلم : عصام شريح

إنه جون ديمجانجوك ، المواطن الأكراني سابقا ، الذي لجأ إلى الولايات المتحدة في عام ١٩٥٢ ، وعاش هناك حتى ١٩٨٦/٢/٢٨ ، باسم آخر ، وعندما اكتشف « الموساد » هويته ، أخذت اسرائيل تلّح على الولايات المتحدة لتسليمها إيّاه ، بحجة أنه مجرم نازي ، كان مسؤولاً عن فتح صنابير الغاز في معسكر اعتقال تريْبلينكا ، وقتْل ألوف من اليهود ، وبعد جدل دام عامين ونصف العام ، جردّته امريكا من جنسيته المكتسبة بدعوى اخفاء الحقيقة ، والتضليل حول حقبةٍ من عمــره . ويــوم ١٩٨٦/٢/٢٨ ، وصل ديمجانجوك إلى « اسرائيل » ليواجه محاكمة صورية ، ثم يتمّ إعدامه بعد ذلك كسلفه « أدولف آيخمان » الذى أعدمه الاسرائيليون شنقاً في عام ١٩٦٢ ، بتهمة قتل الآلاف من اليهود في عهد النازية ، أو اختصاراً بتهمة « اللاّسامية » كما يطيب للصهاينة القول .

عَوْدٌ على بدء

وإذا كانت هذه المقالة غير مخصصَّة لتوثيق العلاقة الآثمة بين الصهيونية والنازية ، وهي علاقة ثبت قيامها ، وكان اسحق شامير وزير خارجية العدو الحالي أحد أركانها ، فإننا لا بُد وأن نشير إلى أنّ الصهاينة وجدوا في « اللاسامية » أو بالأحرى « كراهية أوروبا لليهود » سلاحاً قوياً لدفع اليهود إلى الهجرة من أوطانهم الأصلية والحقيقية إلى فلسطين العربية ، تمهيداً لتهويدها ، فراحوا يُذكون « اللاسامية » هذه ، ويتآمرون على اليهود الأوروبيين مع النازيين الهتلريين ، لارتكاب مذابح بحق يهود أوروبا ، من أجل بثّ الرعب في صفوفهم ، واستجلابهم إلى فلسطين .

وفي الواقع فإن الحركة الصهيونية ، تنبّهت « لسحر » اللاسامية قبل نشوء النازية ، وحتى قبل أن يولد هتلر زعيمها ومؤسسها ، ففي خطاب ألقاه مؤسس الصهيونية « تيودور هرتسل » أمام الجمعية الملكية البريطانية في عام ١٩٠٢ ، قال جوابا على سؤال حول كيفية إرغام يهود أوروبا خاصة ويهود العالم عامة ، على الهجرة من أوطانهم لتأسيس « دولة يهودية » في فلسطين بقوله : اللاّسامية !!

وعقّب هرتسل بعد ذلك في مذكراته : « في باريس اتّسعت آفاق نظرتي إلى اللاسامية ، التي بدأت أفهمها الآن ، وأغفر لها كل شيء ، وأكثر من هذا ، فإنني أعترف بتفاهة وعدم جدوى النضال ضدها ، ثم إن هذه القوة الجبارة المتمثلة فيها ، لن تجلب الضرر لليهود ، بل أعتبرها حركة مفيدة لتطوير الشخصية اليهودية ! » .

وقد وجد قادة الصهيونية خلال فترة الحرب العالمية الثانية ، في « رؤيا » هرتسل بالنسبة للاّسامية ، برنامج عمل للتعاون مع النازيين ، من أجل تهجير أكبر عدد من يهود أوروبا ، حتى لو أدى هذا التعاون إلى التضحية بعشرات الألوف من اليهود . وقد نشرت صحيفة « حيرُوت » في عددها الصادر يوم ١٩٦٤/٥/٢٥ ، مقالاً بعنوان « التاريخ سيُدين زعماء الوكالة اليهودية » ، جاء فيه : « كيف لنا أن نوضح حقيقة التزام قادة الوكالة اليهودية وزعماء الحركة الصهيونية جانب الصمت حيال المذابح التي ارتكبها النازيون ضد اليهود .. إنهم بصمتهم هذا قد تعاونوا مع الألمان بشكل لا يقل عن أولئك السفلة الذين سلموهم قوائم اليهود الذين كان مصيرهم الابادة ! » .

الصدام بين النازيتين

في الحقيقة ، لا تختلف الصهيونية كحركة عرقيّة عنصرية شوفينيّة ، عن الحركة النازية ، بل إن الحركتين صنوان في واقع الحال ، حيث للنازية الهتلرية نظريتها في صفاء العرق الجرماني ، وتفوقّ السلالة

الجرمانية ، عن غيرها من السلالات البشرية ، مما يؤهلها لحكم الأعراق أو الاجناس الأخرى ، والسيادة عليها ، تماماً كما للصهيونية نظريتها في « الشعب المختار » الذي هو أيضا أرقى الشعوب ، والذي لا يجوز أن يختلط دمه المميز بدماء « الغوييم » أو الشعوب الأخرى الأدنى في سلّم الاجناس والسلالات : ليبقى سيّداً أبداً على « الأغيار » !

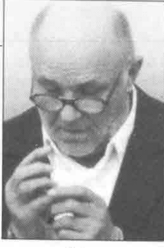
ومن هنا ، وبصرف النظر عن انتهازية الصهاينة إبان العهد الهتلري ، وتعاونهم الخفيّ مع النازيين لتهجير اليهود الأوروبيين الى فلسطين ، فان التناقض بين النازية الهتلرية والنازية الصهيونية كان قائما وسيبقى . ولذلك فإن مطاردة الصهاينة للنازيين القدامى ، حتى ولوْ كانوا مجرّد جنود أو مجنّدين ، ستبقى مستمراً لفترة طويلة ، لأن الصهيونية بحاجة ماسة على الدوام لإذكاء نيران « اللاسامية » : وتذكير اليهود « في الشتات » أنهم لن يكونوا في مأمن من المذابح مستقبلا على يد « اللاساميين » : أي غير اليهود . إلا إذا هاجروا الى فلسطين المغتصبة من أجل توسيع رقعة الكيان الصهيوني « كلما ازداد عدد المهاجرين » .

من هذا المنطلق يكون ديمجانجوك الضحية الجديدة للصهيونية النازية ، التي يُراد من ورائها تذكير اليهود الذين ما يزالون في أوطانهم ، بمذابح محتملة في المستقبل ضدهم على غرار المذابح الهتلرية .

أما ضحايا الصهيونية من الألمان النازيين ، فقد كانوا كُثُراً ، وقد كتب الدكتور « بارزوهار » كتاباً بعنوان « المنتقمون » ، روى فيه تفاصيل الصدام بين النازيتيْن الصهيونية والهتلرية ، ومطاردة الصهاينة للنازيين الألمان وقتلهم وذبحهم في كل مكان يتمّ فيه العثور عليهم ، نورد فيما يلي بعض ما جاء فيه .

دافيد وَولهلم

يقول بارزوهار : بعد الحرب العالمية الثانية ، لم يعد اليهود خرافاً ، بل أصبحوا ذئاباً ، وأخذت التصفيات الجسدية ضد النازيين الألمان طابع الانتقام ، فعشية انتهاء الحرب ، بدأ دور « المنتقمين » اليهود . وقد بدأ النازيون الصهيونيون في أيار (مايو) ١٩٤٥ ، بتشكيل الفرقة الأولى من « المنتقمين »



ديمجانجوك



تحت اسم « الفرقة اليهودية » ، التي رفعت الشعارات التالية :

ـ تذكّر أنك تنتقم من أجل شعب محارب .

ـ وتذكّر أنّ انتقامك هو جزءٌ من مهمتك ، التي هي إنقاذ اليهود ، وتحقيق الهجرة إلى فلسطين ثم « تحرير » فلسطين ! !

وكانت هذه الفرقة تابعة « للهاغاناه » ، ثم انشأت « الهاغاناه » فرقة ثانية من « المنتقمين » .

وقد أخذ هؤلاء النازيون الصهاينة ، يجوبون الشوارع والقرى والمدن في ايطاليا والنمسا وجنوب المانيا ، ويقتلون النازيين الألمان وكل من تعاون معهم ، كما قاموا بتفجير قنابل داخل صالات السينما ، وأشاعوا جواً من الارهاب في هذه الدول .

وفي عام ١٩٤٥ ، شُكّلت فرقة ثالثة من « المنتقمين » الصهاينة ، عُرفت باسم « الفرقة الألمانية » ، وكان صاحب الفكرة هنا موشي دايان ، أما رئيس هذه الفرقة فقد كان « سيمون كوش » ، وقد صدرت الأوامر لأفراد الفرقة بالتوجه الى المانيا ، فركبوا سيارات عسكرية تحمل نجمة داوود ، ويروي أحدهم ، وهو الآن مستوطن في حيفا ، أن الطرق كانت غاصّة بالألمان الذين يركبون الدراجات ، فقررْنا أن نصطاد هؤلاء الالمان واحداً واحدا ، وهكذا كانت السيارة تقترب من الدراجة ، ويفتح أحدنا الباب بعنف ، فيقع الالماني تحت عجلات السيارة ويموت ، ولقد اصطدنا العشرات منهم بهذه الطريقة ، وقد بلغ عدد الألمان الذين قتلوا على أيدى « الفرقة الالمانية » الصهيونية ، خمسمئة شخص ، يصفهم « بارزوهار » بأنهم من الذين تسلموا مراكز هامة أيام هتلر ! ! ويروي أحد أعضاء هذه الفرقة « الجنرال لاسكوف » وهو حاليا يشغل منصب المدير العام للمرافىء في الكيان الصهيوني ، كيف قامت الفرقة بتسميم المعتقلين النازيين بسجن مدينة نورنبرغ ، والذي كان يضم ٣٦ ألف معتقل .

يقول « لاسكوف » : أن الخطة الصهيونية كانت تقضي بتسميم جميع النازيين المعتقلين ، وعلى التوّ بدأ « المنتقمون » بالتخطيط لتنفيذ هذه المهمة ، وسرعان ما اكتشف عملاء الفرقة ، أن المعتقل كان يزوّد بالخبز من فرن صناعي كبير في المدينة . وكان الخبز على نوعين ، أسمر للنازيين ، وأبيض للحراس ، وقد استطاعت « الفرقة » معرفة طريقة تحضير الخبز ، فقامت بارسال نماذج منه الى بعض الخبراء ، لتحليله ودراسة كيفية مزج السمّ به من غير أن يشعر أحد بذلك ، ومن غير أن يكون مفعول السمّ سريعا ، وبالفعل فسرعان ما توصل « المنتقمون » الصهيونيون الى الفكرة التالية :

يُدهن الرغيف بمادة شبيهة بالطحين ، لكنها تحتوى على الزرنيخ القاتل ، وقد استطاع ستة من أعضاء « الفرقة » أن يحفروا دهليزاً تحت موقع الفرن ، وأن يدهنوا بالسم ألفيْ رغيف أسمر فقط ، لأن الحراس كادوا أن

يكتشفوا العملية . وفي اليوم التالي قضى ألفا ألماني نحبهم بالزرنيخ .

أما « مجموعة الخمسين » التي تشكلت بعد ذلك ، فقد وضعت مخططات أخرى للانتقام من جميع الألمان دون تمييز . وكان بين هذه المخططات واحد يهدف إلى حرق عدة مدن ألمانية ، وآخر يهدف لتسميم أهالي برلين وأهالي مدينة ميونيخ (مهد النازية) ، وكذلك مدن نورنبرغ وهمبورغ وفرانكفورت عن طريق مياه الشرب ، لكن صعوبة تنفيذها ، جعلت « مجموعة الخمسين » تعدل عنها . وتكتفي بتنفيذ خطة لتسميم مدينة نورنبرغ ، التي شهدت انتصار النازية . ويروي أحد الذين أشرفوا على وضع هذه الخطة ، تفاصيل تنفيذ العملية :

« دخل عدد من رجالنا كموظفين وفنيين في شركات المياه ، ودرسوا نظام توزيع المياه ، ثم وضعوا خطة دقيقة ، تقضي بقطع المياه ، عند ساعة التنفيذ ، عن الاماكن والاحياء التي تضم قوات الحلفاء والسكان غير الألمان . ولكن .. شاءت الأقدار أن تفشل الخطة . وأن تنجو نورنبرغ من هذه المؤامرة ، إذ باع اليهود بعضهم بعضا ، وقبض على عدة أشخاص » لكننا لم نأسف أبدا على وضع هذه الخطة » .

لكن « مجموعة الخمسين » ، قامت بتنفيذ أعمال انتقامية أخرى على صعيد فردي ، منها قتل احد الألمان أثناء احتفاله بزواجه : « تقدمنا ببطء ، حاملين رشاشاتنا وسط المدعوين الذين أصيبوا بدهشة شديدة جعلتهم يكتمون أنفاسهم .. ووقفنا أمام العريس الذى أخذ يرتعد من شدة الخوف . أما العروس فقد رمت بنفسها على أقدامنا ، وأخذت تتوسل إلينا أن نعفو عن ذلك النازي ، ولو لمدة شهر واحد ، لكننا .. رفعنا رشاشاتنا وصوبناها نحوه ، وقتلناه ! » وقبل حوالى ربع قرن ، اختفى في وارسو عاصمة بولندا ، بوغادان بياسيكي (١٧ سنة) ، وهو نجل بوليسلاف بياسيكي ، مؤسس منظمة (باكس) الكاثوليكية المؤيدة للحكومة البولندية . وبعد بحث استمر عدة أشهر ، عثر على جثة الشاب بوغادان مدفونة داخل جدار ، وتبيّن فيما بعد أن الصهيونية تقف وراء هذه الجريمة ، وكانت آخر مرة شوهد فيها الشاب ، عندما استقل سيارة تاكسي من مدرسة « أوغستين » للاهوت التي كان أحد تلامذتها ، ثم اختفت آثاره تماماً ، وظلت قضية اختفائه محاطة بالغموض ، إلى أن كُشف النقاب في وارسو ، عن أن الشاب بوغادان ذهب ضحية مؤامرة حاكتها الاستخبارات الاسرائيلية بالتعاون مع يهود بولندا ، للقضاء على بوغادان ، انتقاماً من والده الزعيم الكاثوليكي ، بسبب ما ينسبه إليه الصهاينة من تعاونه مع النازيين خلال الحرب العالمية الثانية ، واضطهاده لليهود . وكان الخيط الأول الذي قاد إلى اكتشاف هذه الجريمة ، معلومات أدلى بها سائق بولندي يهودي ، اعترف فيها أنه هو الذي نقل الشاب المغدور بسيارته من مدرسة اللاهوت ، ثم ما لبثت خيوط المؤامرة أن تجمّعت بعد ذلك ، ليتضح أنّ اختطاف ومقتل بوغادان بياسيكي ، كان عبارة عن مؤامرة صهيونية ، كما اتضح أن الرأس المدبّر لهذه الجريمة ، هو الدكتور سيمون ويسنتال رئيس ما يعرف باسم « مركز التوثيق » في فيينا ، وهو مركز تابع لجهاز الموساد الاسرائيلي ، ومهمته الرئيسية هي مطاردة النازيين الألمان والقضاء عليهم .

مؤامرة أخرى : « ليون ديغرل » ، كان من قادة الحركة القومية الاشتراكية في بلجيكا قبل الحرب العالمية الثانية ، اتهمه الصهيونيون بالتشيع للنازية ، وقد اختفى ديغرل في شباط (فبراير) ١٩٧٠ في اسبانيا حيث كان لاجئاً سياسيا . وكان قد تعرض لمحاولة اختطاف قبل ذلك في عام ١٩٥٣ . وروى ظروف تلك المحاولة فقال : « في عام ١٩٥٣ كنت في مدريد ، حين أقبل عليّ عدد من الضباط وأبلغوني أن هناك خطة مدبرة ضدي ، وقد يتم اختطافي بين ساعة وأخرى ، ثم أقاموا خمسة رجال على حراستي ، وقيل لي أن اخبار الاختطاف جاءتهم من ألمانيا ، وهي تقول إن الاستخبارات الاسرائيلية تتعقبني .. وكانت الخطة مدبرة بشكل محكم ، فقد علم هوريازيمان رئيس المجلس الوطني الروماني الأسبق ، وهو صديق لي ، وعلى اتصال وثيق بالأمريكيين في ألمانيا ، أنّ ثمة محاولة لاختطافي ، فأبلغ المسؤولين في مدريد .. ومضت أيامٌ ثمانية بعد ذلك ، تلقيت بعدها رسالة من كاتب سويسرى يُدعى فرانسوا غينو ، روى لي فيها تفاصيل غريبة ، وكان مما قاله لقد تناولت طعام العشاء في مطعم بمدينة لوزان السويسرية ، وكان يجلس بالقرب مني رجل يهودي ، أخذ يشرح لشخص آخر كان معه ، كيف سيقوم غدا باختطافك ، وقد تبين أن هذا الرجل يُدعى زواي البوبي ، وبعد يومين كانت سيارة « لنكولن » فخمة ، تقف عند الحدود الاسبانية ، وقد ترجّل منها احدهم ، وقدم جواز سفره ، فإذا به نفس الشخص اليهودي المذكور آنفاً ، فاعتُقل مع آخرين ، وفتشت سيارته ، فاذا بسبعة مسدسات كانت مخبأة فيها ، إضافة إلى صندوق خشبي كبير يشبه النعش إلى حدّ كبير ، كما عثر داخل الصندوق على معدات للتخدير ، كانت مهيأة لكي تُحقن في جسدي ، تمهيدا لنقلي مخدّراً داخل الصندوق إلى اسرائيل . وعلم رجال الشرطة الاسبان ، أن كمية وفيرة من النقود كانت ستدفع إلى عملاء في أسبانيا . كما كشفت التحقيقات مع المعتقلين ، عن أن باخرة كانت تنتظر الصندوق في مدينة برشلونه لنقلي إلى اسرائيل ، أما سبب اهتمام الاستخبارات الاسرائيلية باختطافي ، فلأنني على علاقات طيبة مع زوجة الزعيم النازي غورنغ وابنتها ، ونحن الثلاثة الوحيدون الذين يعرفون ما إذا كان الزعيم النازي « مارتن بورمان » ما يزال حياً يرزق أو ميتاً ، واسرائيل تبحث عن بورمان بكل السبل ، ويهمها أن تتقصى أخباره مهما كلفها ذلك من جهود » . وكان آيخمان قد أفاد قبل اعدامه ، أنّ بورمان حيّ يُرزق ، كما أفاد هنريش لينو ، أنه رأى بورمان في أحد القطارات بتاريخ ١٩٤٥/٦/٢٦ بألمانيا ، لكنه هرب من وجهه لئلا ينكشف أمره .

أما الدكتور جوزيف منجل طبيب معسكر أوشويتز ، فقد أشيع أنه اختطف ونقل إلى الكيان الصهيوني ، لكن قضية الدكتور منجل أثيرت قبل شهرين مجدداً ، وقيل إنه مات في البرازيل مؤخرا .

ونشرت صحيفة « جويش كرونيكل » بتاريخ ١٩٦٠/٩/٢٣ ، قصة مطاردة رجال الاستخبارات الاسرائيلية للنازي الألماني « فرانز راد يماشر » ، الذي عمل عام ١٩٤٣ ، في القسم الخاص لشؤون اليهود بحكومة هتلر ، والذي ادعت الصحيفة الصهيونية ، أنه ساعد على قتل ٢٠٠ ألف يهودي في معسكر أوشويتز ، وقد حكم على راديماشر بالسجن لمدة ٤١ عاما ، إلا أنه استطاع الهرب من سجنه بألمانيا إلى الأرجنتين كما يعتقد ، وما تزال

اسرائيل حتى اليوم مشغولة في البحث عنه .

أما قضية أدولف آيخمان . فقد كشف الرئيس الأسبق لجهاز «الموساد» الاسرائيلي «ايسير هاريل» . النقاب بتاريخ ١٩٨٢/١/٢٠ . عن زوايا جديدة في هذه القضية . حيث قال ان «فرنز باور» المدعي العام لمقاطعة هيس بألمانيا الغربية . وبتأييد من رئيس وزراء المقاطعة «أوغست زن» . هو الذي وضع الاسرائيليين على الطريق . لتعقب أثر آيخمان . الذي يعتبره الصهيونيين أحد العقول المدبرة لما يسمى بمذابح اليهود في العهد النازي . فقد ذكر «هاريل» في شهادته للمؤرخ والأكاديمي الفرنسي «ألان ديكو» . في برنامجه التليفزيوني «التاريخ موضع بحث» (التليفزيون الفرنسي ــ القناة الثانية) . أن المدعي العام «فرنزباور» . كان قد تلقى رسالة مفادها أن آيخمان كان ما يزال حيّاً . ويعيش في «بوينس ايرس» عاصمة الأرجنتين . ويضيف رئيس «الموساد» الاسبق . أن المدعي العام لمقاطعة «هيس» قرر آنذاك أن يرجع مباشرة في هذا الامر الى رئيس وزراء المقاطعة . ولما رأى الرجلان . أن السلطات الارجنتينية لن تسلم قط آيخمان لاسرائيل . وأن بدء اجراءات الدعوى ضده سوف تنبّهه الى الاخطار المحدقة به . وتجعله يجدّ في البحث عن مأوى آخر . قررا بدلاً من إبلاغ هذا الامر غير العادي الى شرطة وقضاء المانيا الغربية . إبلاغ الاسرائيليين الذين كانوا وحدهم كفيلين بالقيام بعملية اختطاف آيخمان (الرئيس السابق لتشكيلات الشرطة العسكرية النازية) . ولما نجحت عملية الاختطاف . أعلن رئيس حكومة العدو آنذاك دافيد بن غوريون عنها على الملأ يوم ١٩٦٠/٥/٢٢ . وقد حكم على آيخمان بالاعدام شنقاً . ونُفّذ فيه الحكم يوم ١٩٦٢/٥/٣١ .

بيْد أنّ «بارزوهار» . قدّم رواية أخرى . تجاهل فيها تماماً دور المدعي العام ورئيس الوزراء بمقاطعة «هيس» الألمانية الغربية . ومع أن بارزوهار قدم الرواية حول خطف آيخمان على لسان الجنرال «هاريل» . إلا أنه حاول إضفاء هالة من المجد والذكاء غير العادي على الصهيونيين قال بارزوهار في روايته : في ٣ كانون الثاني (يناير) ١٩٤٦ . أثناء إحدى جلسات محكمة نورنبرغ التي حاكمت مجرمي الحرب من النازيين . عرف الصهيونيون دور ايخمان في قتل اليهود . إذ استشهد أحد المتهمين النازيين . في معرض دفاعه عن نفسه . بعبارة للزعيم النازي «غورنغ» قال فيها «إن آيخمان هو الخنزير الكبير المسؤول عن عمليات قتل اليهود» . وسرعان ما بدأت فرقة صهيونية بالبحث عن آيخمان . وبعد عدة اسابيع . اعتقد «المنتقمون» . أنهم عثروا على الرجل ــ ضالّتهم في منزل ريفيّ صغير بقرية تقع بالقرب من مدينة سولزبورغ . وسألوا أهالي القرية عن ذلك المنزل . فعلموا أن أربعة رجال يقيمون في المنزل الذي يحرسه ثلاثة كلاب . وتوجه خمسة من «المنتقمين اليهود» نحو المنزل . وقد تراءى لهم أن آيخمان كان فيه بالتأكيد . واتجه أحدهم نحو الغابة المحيطة بالمنزل . ونبح . فهجمت الكلاب عليه . لكنه سمّمها بقطعة من اللحم . ثم هجم الخمسة على آيخمان . وضربوه بمسدس على رأسه . وحملوه الى سيارتهم . وابتعدوا به الى مكان نائي ومنعزل . وبعدما أنزلوه من السيارة . قال له «روفن» رئيس الفرقة الصهيونية . نحن يهود يا آيخمان . وستقضي حسابك الآن . لكن الرجل ضحك بسخرية وقال : لا تستطيعون الاساءة الى مطلقاً . وقبل أن يتابع كلامه . قتله أحد الصهاينة بمدفع رشاش . ثم نزع خبيرٌ أسنان الرجل وفحصها . فإذا بها كما قال «اسنان آيخمان» .. وبقي الاعتقاد سائداً بان آيخمان قد مات وانتهى . حتى عام ١٩٥٩ . حيث اجتمع «ايسر هاريل» بدافيد بن غوريون . وابلغه بتوفّر معلومات لديه عن أن آيخمان ما يزال حياً يُرزق . وانه يعيش في الارجنتين . فردّ عليه بن غوريون : «أريده حياً أو ميتاً . ولكنني أفضّله حياً .. هذا مهم جداً» . وبدأت مطاردة آيخمان . ويروى «هاريل» أن آيخمان كان قد تنكّر تحت اسم ريكاردو كليمنت ويعمل في مصنع لسيارات مرسيدس في بوينس آيرس . فقام رجال «الموساد» باستئجار منزل مقابل لمنزل آيخمان . وبدأوا يصورون تحركاته ويرصدون جميع خطواته . ويرسلون الصور الى اسرائيل . وفي شباط (فبراير) ١٩٦٠ . انتقل آيخمان مع زوجته وأولاده الثلاثة الى منزل آخر . وانتقل معه رجال الموساد بآلاتهم التصويرية . وفي ٢١ آذار (مارس) ١٩٦٠ . لاحظوا أن آيخمان اشترى باقة من الزهور قبل أن يتوجه الى منزله . وبعد البحث في ملف آيخمان . إتضح أنه تزوج في ٢١ آذار (مارس) ١٩٣٥ . وإذن فقد كانت الباقة لمناسبة ذكرى مرور ٢٥ سنة على زواجه . وهكذا تأكد هاريل من شخصية آيخمان . وجاءت الفرصة في ايار (مايو) ١٩٦٠ . حيث كانت الأرجنتين ستحتفل بمرور ١٥٠ عاماً على استقلالها . وكان من المنتظر وصول وفد اسرائيلي برئاسة أبا إيبان الى هناك . وقد اعلنت الحكومة الاسرائيلية وشركة «العال» للطيران . انهما ستحتفلان بهذه المناسبة . بتدشين خط جوى بين اسرائيل والأرجنتين . وتقرر أن تكون الطائرة الخاصة التى ستقل أبا ايبان والوفد المرافق . هي التي ستعود بآيخمان الى «اسرائيل» ..

يقول «هاريل» : «عندما وصلت الى بوينس آيرس لمتابعة العملية عن كثب . أثار وصولي تساؤل السلطات الارجنتينية . لكنني اقنعتهم بأنني هنا لكي أؤمّن زيارة أبا ايبان . وفي ١١ أيار (مايو) خطفنا آيخمان . وبقي حتى ٢٠ من الشهر نفسه في منزل أحد اثرياء اليهود بالارجنتين . وفي هذا التاريخ وصلت الطائرة التي كانت تُقل الوفد الاسرائيلي . وقد عادت في الليلة نفسها الى تل ابيب . وعلى متنها ادولف آيخمان . وفي اليوم التالي . وقف بن غوريون أمام الكنيست . وأعلن وسط تصفيق حاد . القبض على آيخمان» ...

الانتقام عملية مستمرة !

ولقد استمرت عمليات الانتقام ضد النازيين الالمان . ويقول البروفسور بارزوهار : أن عمليات انتقام فردية مختلفة قد تمّت . وبلغ عدد ضحاياها ألفاً من الألمان . لكنه يضيف أن الانتقام الأكبر إنما تمّ في عام ١٩٤٨ . (١٥ آيار ــ مايو) : بخلق «دولة اسرائيل» . ويصف «أحد المنتقمين» ذلك بقوله : «إن أكبر وأجمل انتقام حققناه في حياتنا . هو مولد اسرائيل» !! .. لكن الانتقام الأكبر هذا لم يكن من النازيين الالمان . بل كان ويا للهول من عرب فلسطين الذين لا ناقة لهم ولا جمل في الصراع الدائر بين النازيتيْن : الصهيونية والهتلرية !! .

عصام شريح

قوس قزح

بقلم: سـليـمان فيـــاض

دعابة ثقيلة

عرفت صاحبنا «قوس قزح» أول مرة، وأنا أغادر مبنى الإذاعة القديم بشارع الشريفين. سألني. ولم أكن أعرفه معرفة تذكر، سوى بالاسم. كما لا أعرف عنه سوى أنه كاتب، ولم أكن حتى تلك اللحظة، قد قرأت له شيئا، وأنه أحد المتواجدين في حياتنا الثقافية: والإعلامية. وكان شخصه، آنئذ، مرتبطا في ذهني أبدا بربطة عنق لا تفارقه في صيف أو شتاء، وبدلة يختلف دائما لون «جاكتتها» عن «سروالها». قال:

ـ أين كنت؟

قلت بدهشة لنوع السؤال، ووقته:

ـ كنت في هذا المبنى.

قال ببساطة مستفزة:

ـ من هناك؟

أجبته ببساطة عمن كنت معهم، أمام استوديو ١٢، في ركن الجلسة الدافيء المخصص لزوار النجوم من المذيعين. وكانت بينهم فيما ذكرت، مذيعة نجمة، اسمها من جهة «اللقب» هو نفس اسم «لقبه» فضحك وقال بهدوء شديد:

ـ أتعرف من هذه؟

قلت:

ـ لا.

فقال ببساطة بالغة، كمن يتنفس بيسر:

ـ إنها زوجتي.

وظننت لغفلتي، أو طيبتي، أن زوجته قريبة له أو أنها تحمل اسم زوجها، على الطريقة الفرنسية، بعد اسمها. وفيما بعد، في اليوم الثاني، أو العاشر، سألت صديقا لي، وزميلا لها يعمل مذيعا معها، عن «فلانة»: هل هي زوجة «فلان»؟ فضحك، وقال:

ـ من قال لك ذلك؟

فقلت له:

ـ هو.

فقال لي:

ـ كيف، وهي زوجة زميلنا «فلان»... المذيع معنا.

ووجمت، ففلان هذا أعرفه، كما أعرفها. وفكرت أن صاحبنا «قوس قزح» كان يهزل، أو ربما كان يعطي نفسه حجما، ونفوذا ما، في عيني لسر لا أعلمه، ولم أعلمه قط حتى الآن.

استعـــــارة

ذهبت لزيارة أستاذ جامعي، ناقد، أو بالأحرى مؤرخ نقد، وواحد من قلة قليلة في بلادنا، تحسن دراستها للأدب المقارن. وكان الأستاذ صديقا بقدر ما تكون الصداقة بين أستاذ وتلميذه. قيل لي إنه معتكف، وقيل لي إنه مريض، وكنا في فصل الشتاء. سألني عن «قوس قزح» وأنا أعوده:

ـ أتعرفه

قلت:

ـ أجل.

وأردفت بدهشة، وتخوف، لا أدري سببه:

ـ هل وصل إليك؟

توقعت في نفس اللحظة، أن يكون قد ألحق به أذى ما، لا أدري: لم؟. قال لي الأستاذ الصديق:

ـ أجل، لم أكن أعرفه من قبل، حتى تلفن لي، وطلب مقابلتي، فحددت له موعدا وجاء.

وكأن سؤالي قد رابه، فقال لي:

ـ أليس هو معيدا بقسم اللغة الفرنسية، بكلية الآداب؟

ضحكت، وقلت:

ـ هل قال لك؟

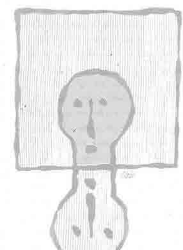
فشحب وجهه قليلا، وقال، كأنه شعر بأنه قد وقع في فخ:

ـ لكنه قدم لي بطاقة، عليها اسمه، وتحت اسمه: معيد بقسم اللغة الفرنسية، بكلية... جامعة...

قلت مقاطعا:

ـ لا صلة له يا أستاذنا بأي قسم، ولا بأي كلية، ولا بأي جامعة.. حتى الآن. وجم الأستاذ الجامعي الصديق، وتمتم:

ـ قال لي إنه يعد رسالتيه الماجستير، والدكتوراه عن الأدب المقارن. وطلب عوني، وقال إنه سيستشيرني كلما واجه مشكلة في رسالة. فهو لا يثق بأساتذة القسم، ولا بالمشرف عليه، بقدر ثقته بشخصي وعلمي. تصور.





قلت بتخوف :

ـ هل أعطيته كتبا ؟

قال للفور :

ـ صفوة ما عندى من كتب ، حتى الكشاكيل التى كنت أدون فيها ملاحظاتى وتعليقاتى ، وأنا فى أثناء الحرب العالمية الثانية ، لا أستطيع أن أغادرها .. طول ست سنوات ، أعطيتها له .

قلت :

ـ كم مضى على أخذه للكتب والكشاكيل ؟

فقال ، وهو يجهد للتذكر :

ـ عامان أو أكثر .

قلت بيأس من أية قدرة على معاونته فى استرداد كتبه ودفاتره :

ـ لن يعيدها إليك . استعوض الله فيها .

ولا أعرف حتى الآن إن كان قد أعادها إليه ، أو طلبها الصديق الاستاذ منه ، لكننى أكاد أجزم أن كلا الاثنين لم يحاول شيئا نحو الآخر ، وربما لم ير أحدهما وجه صاحبه .

فيما بعد ، عرفت أن هذه الاستعارة ، غير المردودة ، كانت فى حينها . فصاحبنا « قوس قزح » يحسن الاستفادة من الكتب والملاحظات ، والتعليقات ، فيما يكتبه من كتب ، ومقالات ، بالقص ، واللصق ، والمونتاج ، وحسن الصوغ لأفكار الغير ، بطريقة يحسن إخفاءها ، عن أى معرفة لنسبتها ومصدرها .

وصديقنا الأستاذ الجامعى ، مرض بذات الكبد ، مرضا طويلا ، وودع الدنيا ، وما بقى عنده من كتب ، بل ودفاتر ، ورسائل جامعية للطلاب الذين كان يشرف عليهم ، بيعت من بعده ، بأرخص الأثمان ، على الأرصفة مع باعة الصحف ، وأسوار الكتب الشعبية ، ومكتبات الكتب القديمة ، فحدثت نفسى : هل كان صاحبنا « قوس قزح » على صواب ، حين أخذ ما أخذه من كتب ؟!

زيـــــارة

زارنى صديقنا الكاتب ، المغترب الأبدى ، وقال لى ؟! إن صاحبنا « قوس قزح » مريض ، وأجريت له عملية جراحية ، لا أذكر إن كانت زائدة دودية ، أو بواسير ، وإنه ذاهب لزيارته وجاء ليصحبنى معه . فصحبته الى بيته .

دخلنا غرفة مكتبه ، وطلب منا الانتظار ، فصاحبنا « قوس قزح » بالحمام ، فأدركت أنه الآن بخير . وفى فترة الانتظار التى طالت ، جيء لنا بالشاى ، ولما كانت الكتب ليست أسرارا خاصة ، وكانت الأوراق المكتوبة من الأسرار الخاصة ، حتى تنشر ، أو يطلعك كاتبها عليها ، قبل نشرها ، فقد تجافيت عن أوراقه على المكتب ، ورحت أقلب فى الكتب الموضوعة على مكتبه . كانت كلها كتبا نقدية ، ضخمة الحجم ، وصدرت خارج القاهرة ، وبعضها كان مترجما هذه الترجمات المتعجلة ، غير الأمينة ، التى تصدر فى العاصمة « الترانزيت » . وكانت بين صفحات الكتب ، بين بعض الفصول ، أو صفحات بالفصول ، قصاصات أوراق مستطيلة ، ولفتت نظرى خطوط طولية ، مقوسة على فقرات بعينها قد تستغرق صفحات ، وقد كتب صاحبنا « قوس قزح » بجانبها بالقلم الرصاص أيضا : « تنفع فى فصل كذا ، بكتاب كذا » ، وهكذا كانت كل الكتب ، بجانب كل الخطوط ، فى عديد من الكتب والصفحات ، أطلعت صديقنا الكاتب ، المغترب الأبدى ، عليها ، وقلت ، فيبدو أننى ولدت مسحوبا من لسانى :

ـ أرأيت ، صاحبنا يكتب بطريقة القص ، واللصق ، وأشك أنه يسطو ، ويحسن الصياغة ، وفن الإخفاء .

فلم يعلق صديقنا الكاتب ، المغترب الأبدى ، بشيء ، وفكرت أن كلاهما ينتمى الى الآخر ، ذلك الانتماء الذى يوقع فى الانحياز ، والتعصب الذى يُحسن كلاهما إخفاءه .

وجاء صاحبنا « قوس قزح » مستحما ، ضاحكا ، متورد الوجه كعادته ، وقلت له ضاحكا ، بعد السؤال عن الصحة :

ـ كنا ننم عليك .

وأريته ما رأيته ، وأعدت عليه ما قلته ، فضحك ، ولم أشعر أن ضحكه مراعاة لكرم الضيافة ، وقال :

ـ ياسيدى ، (بمعنى : لا شيء يهم ، أو لا تأخذ فى بالك ، أو ..)

بوتيـــــك

فى سنوات الهجرة الكبرى لأصحاب الأقلام بأقلامهم ، أو بأقلامهم وأبدانهم معا ، إلى الأقطار الشقيقة ، والأجنبية ، مع أصحاب الحرف والمهن من الزراع والصناع ، هاجر صاحبنا « قوس قزح » بقلمه وشخصه الى عاصمة عربية ، من هذه العواصم « الترانزيت » و « البوتيك » الكبير لكل شيء : الفكر والمادة معا ، الذى تصب فيه كل الروافد ، وبين حين وآخر ، كنا نقرأ له ، مقالات وكتبا ، كانت شجاعتها تثير العجب ، والخوف ، لو أنها صدرت له وهو فى القاهرة ، كان صداها يمكن أن يكون عندئذ أكبر ، حتى لدى السلطة التى كانت تسير آنذاك فى شجْب عهد مضى ، بين المثقفين والسياسيين وغيرهم ، لكن الوافد من كتب صاحبنا « قوس قزح » وصحفه كان قليلا ومحدودا ، لا يثير ردود فعل داخلية تذكر .

وللدهشة ، فوجئنا بصاحبنا « قوس قزح » ، يعلن عن إصدار مجلة فكرية « نارية » ، ويبْلغنا أنه كتب لهذا ، أو لذاك ، يطلب منه التعاون معه بالمقالات فى تحرير المجلة ، وأنه سيدفع أجرا جزيلا ، وزاد فى

قوس قزح

دهشتنا أننا لا نعرف أية دار نشر ستصدر عنها هذه المجلة الفكرية «النارية» . أو من سيموّلها . فصاحبنا «قوس قزح» فيما نعرف . يعيش بالكاد من قلمه . وربما بسبب ذلك كانت هجرته بشخصه وقلمه معا .

وصدر من المجلة الفكرية «النارية» عددان ، رفيعا التحرير ، والطباعة ، والمادة ، والمستوى ، وعلى غير انتظار توقف صدور المجلة الناجحة ، لسبب لا نعلمه . وجاءتنا الأخبار بأن صاحبنا «قوس قزح» . ارتحل إلى مدينة النور . وقيل لنا (والعهدة على الرواة من مروجي الاشاعات) : إن صاحبنا «قوس قزح» . قد أخذ عشرين ألف (كذا) من عاصمة عربية ، زاعما لها أن المجلة الفكرية «النارية» مجلتها . وأخذ عشرين ألف (كذا) أخرى : من عاصمة عربية ثانية : زاعما لها أن المجلة الفكرية «النارية» مجلتها . وخلال ذلك أصدر العددين بما تيسّر من تكلفة ، وحمل بقية المبلغين معه ، وارتحل إلى عاصمة النور . والأمل ! !

منــــازع كاتب

كم سنة مرت ، وصار صاحبنا «قوس قزح» . مشرفا على صفحات أدبية . أحسن حقا الاشراف عليها ، وتحريرها ، تحرير متابعة للواقع الأدبي . والفني . وبأقلام رفيعة المستوى . لكن صاحبنا «قوس قزح» سقط من عيني فجأة . إذ كتب مقالا . من هذه المقالات التي ترصد حصاد الواقع الثقافي لعام مضى . فلم يتوقف إلا عند عطاء الكبار (دون غيرهم من الموهوبين) . وعند عطاء اثنين ينتميان إليه ، وينتمي إليهما . وجاء المقال مثيرا للامــتعاض ، والشعور بعدم الحــيـاد ، والأمانة . ولم يغفر له ذلك في نفسي قط ، بالنسبة إلى نفسي ، وإلى غيري ، من جيلي ، ومن الأجيال الصاعدة . ولم تشفع له عندي تحيته النقدية لأول مجموعة قصصية صدرت لي ، وإطـراؤه لحـوارهـا ، واسـتثمـارهـا للأسطورة . وعدّى واحدا من بضعة كتاب يعدون على أصابع اليدين . باحث في داخل تحيته ، وأيقنت أنه يسير في طريق آخر ، تحدوه المجاملة والتقرب ، أو يدفعه الانحياز الانتمائي إليهما .

في تلك الأثناء ، راح صاحبنا «قوس قزح» يصدر كتبا عن كبار الكتاب ، متخطيا مسؤليته الأولى عن جيله ، والأجيال التالية ، ومهتدياً بالحكمة القائلة «من ليس معه يؤخذ منه ، ومن معه يعطى ويزاد» . كان حريصا ، مثل كثيرين غيره من كتاب جيله المشتغلين بالنقد ، على دعم أواصره للعمل الوظيفي ، وللتواجد المهني ، بنجوم ورواد ، حتى بعد موت أحدهم ، من أعمدة الأدب وعمدها .

انتهز فرصة موته ، ونشر حديثا ، أو محاورة مطولة ، معه ، قال انها تمت معه قبل موته ، في مرضه الأخير ، وكنا نعرف ، أنه معزول ، في مرضه هذا ، عن كافة الخلق ، إلا من أهله ، وأنه ، على ضيق ذهنه ، يعاني من تتابع القول ، والجهد المبذول للقول .

وثارت الأوساط الثقافية ولم تقعد .

وانكفأت على قراءة الحديث المحاورة ، على أن أرى جديدا فيه ، يقوله عمدة الأدب الراحل ، وخرجت بانطباع واحد ، لا رادّ له في نفسي ، بغض النظر عن كل ما قاله أو كتبه غيري آنذاك ، أن هذا الحديث المحاورة «مفبرك» من ألفه إلى يائه ، فالمقولات ، على لسان عمدة الأدب ، في الحديث المحاورة ، هي نفسها التي قرأتها له في كتبه من قبل ، فقط ، الاختيار موفق ، والصياغة ماهرة وقديرة وماكرة ، لم أجد الشجاعة ، آنئذ ، أو ربما الدافع ، لأقول رأيي ، في حديث محاورة ، اختلقه ، فيما أعتقد كاتب مهاجر بالقلم وبالبدن ، ينتمي إلى بلدي ، وانتمي إليه ، وينتمي إلى انتماء الوطن .

زوبعة .. في فنجان

هبت على القاهرة ، عاصفة أخرى ، من عواصف صاحبنا «قوس قزح» ، البشوش الوجه ، الواسع العينين ، الذي لم أره ثائرا أبدا ، ولا غاضبا مرة .

تناقل النمامون والمغتابون ، من رواة الإشـاعـات (والعهدة على الرواة) خبر انقضاض صاحبنا «قوس قزح» ، على مطار عاصمة عربية ، فألقى القبض عليه ، والعهدة على الرواة ، لأنه سبق أن وجع هذه العاصمة ، في مال أخذه لمجلته الفكرية «النارية» ، و(العهدة على الرواة) ، فطلب مقابلة سياسي كبير ، (والعهدة على الرواة) لأنه جاء على عجل لمقابلته (والعهدة على الرواة) ، فأذن له بالمقابلة إثر مكالمة تليفونية ، (والعهدة على الرواة) ، وجلس صاحبنا «قوس قزح» إلى السياسي الكبير (والعهدة على الرواة) ، وفاجأه بأنه قرأ نظريته عن الكون والانسان والحياة (والعهدة على الرواة) ، وآمن بكل ما فيها (والعهدة على الرواة) . ففاجأه السياسي الكبير بأن طلب منه أن يعلن ذلك على الملأ كافة (والعهدة على الرواة) ، واتصل السياسي الكبير بتليفزيون بلاده ، وحجز له ساعة على الشاشة الصغيرة ، يقول فيها رأيه الذي آمن به في نظريته الكونية هذه (والعهدة على الرواة) ، ولم يجد صاحبنا «قوس قزح» مفرا من الذهاب إلى التليفزيون ، والتحدث فيه ساعة عن نظرية السياسي الجديدة البكر (والعهدة على الرواة) ، ويعلن صاحبنا «قوس قزح» فيما يعلن عن تغييره لانتمائه (والعهدة على الرواة) . ويعود إلى السياسي الكبير فيعطيه (والرقم مبالغ فيه فيما أرى) ربع مليون مرة واحدة (والعهدة على الرواة) لكي «يبشر» بانتمائه الجديد في بلاد الخواجات ، بهذه الفلوسات ، (والعهدة على الرواة) وتعس كل الرواة ! !

ويعود صاحبنا «قوس قزح» إلى القاهرة ، وأسأله عن كل ما قاله الرواة في غيبته (نما وحقدا) ، فيضحك ، ويقول فقط :

— وأنت .. هل تصدق ؟

ولكم أود إلى الآن ، أن أعرف : هل أصدق فأصدق ؟ أم هل أكذب فأصدق أيضا ؟ !

والحق أقول لكم انني حيال صاحبنا «قوس قزح» أخشى أن أظهر إعجابي به ، فيسخر مني الرواة ، أو ضيقي به ، فأفقده ، وهو ما سوف يحدث إثر قراءتكم عن هذا الوجه .

كلما تذكرته ، تذكرت ما أعرفه عن ألوان «قوس قزح» في واد ضيق كالأخدود ، بين قمتي جبل ، من قمم جبال السلط بالأردن ، في يوم شتوي ، ضاحي الشمس ، لبخره ندى ، ألوان تثير الانبهار والخوف ، والاعجاب والرعدة ، تسري جميعا في منابت الشعر .

سليمان فيــاض

تعقيب على حديث الدكتور هيكل

لقـــاء الكُتَّاب العــــرب

بقلم: عبـــاس خضـــر

قرأت الحديث الممتع المستفيض الذى أدلى به الصديق الكريم الدكتور أحمد هيكل وزير الثقافة المصرية الى السيدة « سارة » التى أحسنت عرض الحديث وشققت أمام الوزير نواحي الثقافة المختلفة فى مصر ذات الاشعاعات الممتدة الى سائر الوطن العربى . فتفجرت ينابيع الأديب المثقف حتى أتى بما عهدناه فيه من فيض غزير.

أفضى الدكتور هيكل بما فعله كوزير وما يزمع أن يفعله لهز شجرة الثقافة حتى تؤتى أكلها .

شيء واحد استوقفنى من بين حديثه . وهو قوله جوابا على سؤال « سارة » : هل تنوى الوزارة متابعة وتطوير المؤتمرات العربية الثقافية التى تدور على محاور منها الاتصال بالكتاب فى العالم العربى وتطوير العلاقات مع العالم العربى ؟ قال :

« أقول لك بصراحة شديدة : ان المقاطعة العربية الرسمية غير المبررة وغير المفهومة لدى رجل الشارع فى مصر تقف حائلا دون عقد مثل هذه التجمعات التى اذا تمت فستكون لونا من التحايل على واقع مرير . ومحاولة الدخول من طريق خلق : أنا أتعجب مع رجل الشارع من هذه المقاطعة . فالحديث يدور حول مصر الأم ودرع الأمة العربية وضرورة عودتها . ثم لاعودة ولاخطوة إيجابية نحو هذا » .

لا يادكتور هيكل . ليس هذا ماجرينا عليه ونشأنا فيه منذ عهد « الرسالة » التى كنا نجول فيها ونصول لانعبأ برسميات ولا بدسائس الاستعمار الذى كانت جيوشه لاتزال فى معظم البلاد العربية . فلا تعبأ بشيء من ذلك ، بل تستمر وتجد فى سيرها نحو الأهداف المشتركة . وكانت بذلك ملتقى الأفكار العربية والأقلام العربية الحرة . وقد برزت فيها كتابات ساطع الحصرى الداعية الى القومية العربية . كان كتاب العرب يجتمعون فيها بأقلامهم وبأشخاصهم أحيانا . لايعبأون بأى حاجز مهما كان . وكان فى ادارة الرسالة غرفة مؤثثة مفروشة لبعض اللاجئين العرب الفارين من بطش الطغاة فى بلادهم .

وقد تمثلت بذلك وحدة ثقافية عربية استمدت غذاءها من الجذور الأولى وامتدت فروعها مورقة الى يومنا هذا لاتستطيع أية رسميات ممزقة أن تنال منها . وحيا الله مجلتنا هذه « الدوحة » وزميلتها « العربى » الكويتية . فانهما تؤديان رسالة « الرسالة » الخالدة مع تطوير مناسب للزمان المتجدد . وهذه الرسالة تيار قوى يسرى فى عروق الأمة العربية لايمكن أن يقف فى طريقه شيء مهما اختلف الحكام ومهما لعبت السياسة ألاعيبها المعوجة .

وأنا لم أقتنع بأن لقاءات الكتاب العرب وتجمعاتهم تكون بأنها لون من التحايل على واقع مرير ومحاولة للوصول من طريق خلق .. كيف يكون ذلك ؟ ولنفرض أنها كذلك فماذا فى أن يتحايل الأخ للوصول الى أخيه ؟ ولنفرض أنه قيلت من أحد كلام . أليس من الممكن أن يدفع بالتى هى أحسن ويجرى الحوار التسامحي لتقويم ماقد يقول من اعوجاج ؟

ان مجرد اجتماع الأدباء وتعارفهم وتبادل الآراء والأفكار والتعبير عن الهموم والأمانى هو فى ذاته كسب كبير . لقد جربنا ذلك فعلا فى لقاءات مؤتمرات الأدباء العرب ومهرجانات الشعر التى كان يقودنا اليها طيب الذكر المرحوم يوسف السباعى وهو سكرتير عام للمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب وهو وزير للثقافة . كان يقودنا اليها شرقا وغربا ويدعو اليها أدباء العرب مشارقة ومغاربة . وكان الواحد منهم يحمل بعض مؤلفاته ويهديها الى الآخرين . وبهذا كان يتم التعارف والتجاوب الأدبى ويتصل ما كان من قبل مقطوعا . أذكر أن كنا فى أحد هذه المؤتمرات ببغداد : وعند الانصراف والمغادرة شرع موظفو الطيران يزنون مانحمل من كتب ويحسبون ، فكان حسابهم عسيرا من الناحية المالية . فشكا الجمع من ذلك . فصدر الأمر بالاعفاء . فكان لذلك وقع حسن وأثر كبير .

ان تجمعات الأدباء فى أى بلد عربى تقضى على كثير من الحساسيات والاشكاليات مثل التى تحدث عنها الدكتور جابر الأنصارى فى مقالة بالدوحة (عدد ١٢٢) بعنوان « الحساسية المغربية والثقافة المشرقية » ولولا دعوات المغرب لكتاب المشرق وذهاب هؤلاء الى لقاء اخوانهم فى الغرب ماظفرنا بهذه الكتابات فى « الدوحة » وغيرها عن الحياة الأدبية والفنية فى تلك البلاد الشقيقة .

لقد كنا نشكو من الحواجز التى يصنعها الاستعمار ومحاولة التفريق بين الاخوة . ونجاهد لتخطى هذه الحواجز . فما بالنا اليوم وقد تحررنا من الاستعمار نتقاعس ونتخاذل أمام عقبات هى مع الأسف من صنع بعض أهلينا .. ؟

أما مسألة الانفاق على لقاءات الكتاب فيمكن تدبيرها بأية وسيلة . فى مصر مثلا يستجلب لاعبو (التنس) ومدربو الكرة الأجانب وتغدق عليهم آلاف الدولارات .. أليست الثقافة أولى بذلك ؟ أولا يمكن أن تلعب بدور الخواجات والدولارات ؟

لابد أن وزير الثقافة يعاني ويجاهد ليأتى للثقافة بالمال . كان طه حسين يقول وهو وزير المعارف : علىّ أن أعلم وعلى وزير المالية أن يدبر المال .

قد يكون كلام الدكتور أحمد هيكل ذاك من أثر هذه المعاناة والمجاهدة ولايدل على اقتناع حقيقى .. أنا أعلم علم اليقين أن النزعة العربية والرغبة فى لقاء الاخوة الأدباء من سائر الوطن العربى ــ كامنة فى أعماقه . والدليل على ذلك مابدر منه وهو يتحدث فى هذا الموضوع إذ قال : « أنا لاأرفض اللقاء بالكتاب العرب لأنهم قومى وأهلى » وإن أردف ذلك بقوله : « ولكنى لا أفضل عقد مثل تلك اللقاءات فى مثل هذا المناخ غير الصحى » وهذه معاناة أخرى : كان الله فى عونه .

ان لقاء الكتاب العرب يجب أن يكون فى كل مناخ . بل ان اللقاء نفسه يصحح غير الصحى .

وفقك الله يادكتور أحمد ومنحك القدرة على مواجهة مشكلات الثقافة والذود عنها . لا فى داخل وزارة الثقافة فحسب . بل كذلك فى خارجها .. والله المستعان .



بقلم : الدكتور عبد السلام العجيلي

حمداً لله ...

في زيارتي الأخيرة لعاصمة بلادنا التقيت في الشارع بصديقي الدكتور عبد الرحمن. قال لي بعد أن تبادلنا التحية :

ـ لم أرك منذ شهور... منذ استمعت الى محاضرتك التي جعلت عنوانها «صدّق أو لاتصدّق».. لاأريد أن أطريك فأقول لك كم استمتعت بها، بعض الغرائب التي رويتها والتي دهش لها المستمعون لم تدهشني شخصيا. ولكن حكاية مظاهرة طلاب طوكيو التي شهدتها أنت بعينك أعجبتني حقا. كانت ضربة معلم أن ختمت بها المحاضرة.

من ناحيتي فهمت لماذا أعجبت تلك الحكاية هذا الصديق. فهو قبل أن يصبح أستاذا جامعيا كان مدرسا في الثانويات. وقد عذبت وجدانه وأثارت أعصابه خلال حياته المسلكية تظاهرات الطلاب التي يغتنمون بها كل مناسبة لتعطيل الدراسة والتملص من متابعة المقرر في المناهج. والحكاية التي أشار إليها والتي ختمت بها محاضرتي حين ألقيتها منذ بضعة شهور تتلخص بأني خرجت ذات مرة من سهرة في أحد مرابع طوكيو عاصمة اليابان، وكان ذلك بعد منتصف الليل، فلاحظت أن سيارات الشرطة كانت تملأ الحي وأن أفرادا من البوليس يلبسون الخوذات ويحملون الهراوات كانوا يطاردون فلولا من الشباب ويتعقبونهم في الأزقة الجانبية المتفرعة من الجادة الكبيرة التي كنا فيها. سألت مرافقي الياباني عن أولئك الشباب وعن تجمعهم وسبب تعقب رجال الشرطة لهم فقال : هذه مظاهرة طلاب.. إنهم يتظاهرون احتجاجا على سياسة الدولة وتصرفاتها في بعض جوانب الحكم التي لم تعجبهم. قلت أنا متسائلا : مظاهرة طلاب في منتصف الليل؟ لماذا لايتظاهرون في النهار؟ فتطلع صاحبي الياباني إليّ مستغربا تساؤلي وقال : في النهار؟ كيف؟ في النهار هم في المعاهد والكليات يتابعون دراستهم. فكيف تريدهم أن يتظاهروا في تلك الحين؟!

تابعت مع صديقي الدكتور عبد الرحمن سيرنا في الشارع من حيث لقيته وقلت له، وأنا أعني تلك المظاهرة وتعليق مرافقي الياباني :

ـ إنها واقعة بسيطة. إلا أن من أرويها لهم يعجبون منها. القضية، كما قلت في محاضرتي إذا كنت تذكر، هي في أن كثيرا من الأمور العادية عندنا تُستغرب في بلاد أخرى، مثلما نستغرب نحن أمورا تعتبر عادية في تلك البلاد الأخرى. ألم يقل باسكال : حقيقة مادون البيرينه خطأ ماوراءها؟ لاتزال في بالي وقائع كثيرة من هذا القبيل مما مرّ بي في زيارتي لليابان، وغير اليابان من مدن الشرق الأقصى، على الرغم من مضي نحو خمسة عشر عاما على تلك الزيارة. وقائع على بساطتها أثارت انتباهي في حينها، وساقتني إلى أن أقارن سلوك الناس هنا وسلوكهم هناك أكثر من مرة.

قال صاحبي مستفسرا : مثلا؟

قلت : إليك مثالا واحدا. أنت تعرف كم يقدس اليابانيون امبراطورهم هيروهيتو. ولا يستحل أيّ منهم، مهما كانت منزلته من السمو، أن يرفع رأسه إليه إذا حظي بمقابلته، لئلا تلتقي عيناه بعيني جلالة الامبراطور. هذا واقع يعرفه العالم كله. لذلك كان عجبي كبيرا حين عدت الى غرفتي في فندقي في طوكيو ذات مساء وأدرت زر التلفزيون فشاهدت ماشاهدته من صور مذلة لذلك الامبراطور يعرضها التلفزيون الرسمي على المشاهدين في كل أنحاء بلاده.

سألني الدكتور عبد الرحمن : صور مذلة للامبراطور؟

قلت : نعم. في الوقت الذى زرت أنا فيه طوكيو كان الامبراطور وزوجته يقومان بجولة في أوروبا. زارا فيها عددا من بلدانها واستقبلا في تلك البلدان بحفاوة رسمية تليق بمقامهما الامبراطوري. كانا في اليوم الفائت قد زارا هولندا ولاحقهما في تلك الزيارة مصورو التلفزيون في كل تنقلاتهما. أن يعرض التلفزيون صور الاستقبال الرسمي كان أمرا منتظرا. ولكن غير المنتظر كان أن يعرض صور مابعد الاستقبال الرسمي. لاتنس أن اليابان في الحرب العالمية الثانية، وتحت حكم هيروهيتو نفسه، كانت احتلت المستعمرات الأوروبية في جنوب شرقي آسيا وطردت هولندا من جزر اندونيسيا. لم ينس الهولنديون هزيمتهم المريرة ولاخسارتهم الفادحة في تلك الحرب، ولاكون هيروهيتو هو رأس الدولة التي أذلتهم وأفقرتهم، فتجمعت جماهير من سكان امستردام في طريق

● لم ينس الهولنديون هزيمتهم المريرة ولا خسارتهم الفادحة في تلك الحرب، ولا كون "هيروهيتو" هو رأس الدولة التي أفقرتهم وأذلتهم!

موكب الامبراطور الياباني في عودته من الاستقبال وراحت تقذف سيارته بالبيض الفاسد والبندورة العفنة وتصرخ في وجهه بالهتافات المعادية والعبارات المشينة. كل ذلك كان التلفزيون الياباني يعرضه بتفاصيله على المشاهدين له في كل مكان من جزر اليابان...

قال صاحبي كالمتعجب مما أرويه له: أما كان للمشرفين على ذلك التلفزيون أن يوفروا على امبراطورهم، وعلى أنفسهم، تلك المناظر المذلة؟ يبدو أن اليابانيين يدينون بمبدأ سقراط في قوله: افلاطون عزيز علي، ولكن الحقيقة عزيزة علي أكثر!

نحمد الله على أن أحدا في البلاد الكثيرة التي يزورها رجالنا البارزون لايتعرض لهم بهذا الذي تعرض به الهولنديون لهيرو هيتو.

قلت أنا: ومن يقول لك هذا؟ لعل الأصح أن نحمد الله على أن الموكلين بالاعلام عندنا ليسوا في تعلقهم بالحقيقة مثل اليابانيين. إنهم يوفرون علينا سماع ما يقال عن رجالنا البارزين ورؤية ما يقابلون به في تلك البلاد. ان لهم أذنا عن الفحشاء صماء، وعينا عن المزعجات عمياء.

* * *

قادنا الحديث عن اليابان وامبراطورها هيرو هيتو الى دور الأخير في استسلام بلاده في الحرب العالمية الأخيرة، بعد سقوط القنبلتين الذريتين الأمريكيتين على هيروشيما وناغازاكي. قال الدكتور عبدالرحمن:

ـ قرأت في المدة الأخيرة شيئا عن هذا الدور فيما قرأته. قرأت أن عددا كبيرا من القادة اليابانيين، وجماهير لاتحصى في صفوف الشعب، كانوا يؤثرون الفناء وامحاء اليابان من الوجود على الاستسلام المهين. ولكن الامبراطور، وهو في العادة يملك ولا يحكم، قال كلمته فتوقفت كل معارضة للاستسلام التام، وانتهت الحرب بذلك. إلا أن ذل الهزيمة لم يكن أمرا تقبل معه الحياة عند اليابانيين صغارا وكبارا. تجلى هذا في موجات الهاراكيري، وهو الانتحار على الطريقة اليابانية، التي تلت نزول الحكومة على طلب الامريكيين الاستسلام بدون قيد أو شرط. وزير الدفاع الياباني، واسمه الجنرال أنامي على ما أذكر، ركع في اتجاه القصر الامبراطوري وبقر بطنه بسيفه بعد أن غرسه في خاصرته اليسرى. قبل أن ينتحر ذلك الوزير خط على قطعة ورق كلمات اعتذار عن الاساءة التي سببها بانتحاره لجلالة الامبراطور. كما خط على ورقة ثانية مقطوعة شعر يودع بها الحياة...

قاطعت صديقي قائلا: شعر؟

قال: نعم، ليس قصيدة مطولة كالتي رثى بها مالك بن الريب نفسه بعد أن لدغته الحية، وإنما ثلاثة أبيات من نوع الهايكو. ليس وزير الدفاع وحده الذى انتحر. بل ان مجموعات كبيرة من الضباط انتحرت برمتها في وحداتها. كما توجه الكثيرون من المدنيين الى القصر الامبراطوري وفتحوا بطونهم هاراكيري أمام شرفاته. سفير اليابان في سويسرا، وهو الذى كان وسيط مفاوضات الاستسلام بين حكام طوكيو وواشنطن، قتل نفسه بعد أن أتم الوساطة. حتى الصبيان لم يتحملوا عار الهزيمة. فقد تقدم أربعة أصدقاء في الخامسة عشرة من عمرهم الى ذويهم وأعلنوهم بأنهم سينتحرون تحت شجرات الصنوبر قرب قصر الامبراطور لكي يعينوا جلالته على تحمل فاجعة الاستسلام. عقدت امهات أولئك الفتية أكفهن على صدورهن علامة الرضوخ وأحنى الآباء رؤوسهم قبولا بقرار الأبناء، وتقدم هؤلاء..

قاطعت هنا الدكتور عبدالرحمن بقولي له: كفى ياصاحبي. أعرف ما ستقول... لقد تقدموا نحو واجهة القصر ورفعوا أنظارهم الى حيث تصوروا أن امبراطورهم يقف وغرسوا سيوفهم في خواصرهم ثم شقوا بها بطونهم! لابد لي أن أودعك الآن، ولكن ليس قبل أن أقول لك ان علينا أن نحمد الله على أننا لسنا يابانيين. تصور لو كنا كذلك مع صنوف المذلة التي مافتئنا نذوقها منذ أربعين عاما الى اليوم! أترى يبقى أحد من سادتنا وقادتنا، أو منا جميعا، على قيد الحياة لو طبقنا الهاراكيري على أنفسنا كما يطبقه اليابانيون؟ الحمد لله إذن. ضحك صاحبي وقال وهو يشد على يدي مودعا:

ـ الحق معك. علينا أن نحمده على ذلك حمدا كثيرا، فهو الذى لايحمد على مكروه سواه.



الشاعر الكبير بدوي الجبل في آخر صورة له

يختم عميد الأدب العربي القومي الكاتب الكبير أكرم زعيتر في هذا الفصل الجديد مذكراته وذكرياته الرائعة مع الشاعر العربي الراحل بدوي الجبل في قصائده وتجاربه النضالية المختلفة



بقلم: أكرم زعيتر

وأقبل ولدي (سري) ممتقعاً ، وهمس إلى أمه بكلمات ، فاكتأب وجهها ، وتمعّر لونها . فتطيّرتُ من ذلك ، وأدركت أنهما يحاذران صدعي بنبأ أليم ، وسألتهما عما يفزعهما فلبثا واجمين ثم دفعا إليَّ جريدة « النهار » البيروتية وفي صدرها مقال بقلم صديقي الرئيس تقي الدين الصلح جعل عنوانه « بدوي الجبل » وكدت أصرخ : مات بدوي الجبل لولا هتاف أوس بن حجر :

أيـــتـــهـــا النفس أجملي جزعـــا   إن الـــذي تحـــذريـــن قـــد وقعا

واستنجدت بالعبرات فما أسعدت ، وبالآهات فما أسعفت ، وأقمت له في خاطري مأتما . وفيه تنافست مما أحفظ له من القصائد الرائية ، أبكت فؤادي ولكنها جففت عيني ، وأورت كبدي ولكنها عصبت لساني ..

ثم تناولت مرثاة أخي تقي الدين الصلح ورحت أترشف معه من سطورها الحزن الوديع على أخي الكبير وشاعري الأثير وقد بوأه تقي الدين أعلى مراتب الصدارة بين شعراء العربية على الاطلاق غابرين ومعاصرين : « ومن حقه أن يحشر في موكبهم الزاهي الفخم بدءاً بأصحاب المعلقات إلى شعراء صدر الاسلام والعصرين الأموي والعباسي حتى النهضة الحديثة وعمالقة شعرائها الذين تودع اليوم آخرهم . هو الشاعر لكنه الثائر أولاً . هو لسان الثورة ونغمها .. ولكنه هو محرك ومطلق موقظ ومشعل . ملهم وملهب لجماهيرها » ثم وصف هلّة البدوي على إخوانه السابقين في الفردوس الأعلى : « وتراه عيني حائراً .. وقد حيّره الاختيار : إلى جانب من يأخذ مقعده ؟ ألى جانب المتنبي والمعري أم إلى جانب شكري وهنانو وسعد الله ورياض ؟ وكل منهم يتجاذبه إليه ليسمعوا من فمه المبدع آخر ما غنّى وأنشد ويتعرفوا أين موضع قومهم وأين موضع حلمهم أصبح ، أنه خالد في الخالدين . يموت سيف الدولة ويخلد المتنبي . وإن بقي من سيف الدولة ما بقي فما أراده شعر المتنبي أن يبقى .. والبدوي يبقى ويحيا بعد الموت ، وينمو ويكبر ويتعاظم قدره وذكره مع نمو أمته وتعاظم شأنها وقدرها »

اتحاد المجامع اللغوية العلمية العربية
الأمين العام المساعد

دمشق في ١٤/١١/١٩٨٥

سيدي الأخ الأعز الأكرم

انتهيت الساعة من قراءة الحلقة السابعة من [illegible]
سلسلتك الذهبية عن فقيدنا الغالي شاعر العربية الفذ،
وقد سحرني بيانك [illegible] وأشجاني أسلوبك [illegible]،
[illegible]
[illegible] ما سيقوله التاريخ [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

المحب [illegible]

رسالة الدكتور عدنان الخطيب الأمين العام المساعد لاتحاد المجامع اللغوية ونائب رئيس المجمع العلمي بدمشق الى كاتب المقال يقرظ فيها الحلقة السابعة من « بدوي الجبل.. وإخاء اربعين سنة ».

« وبدوى الجبل يبقى طرباً للعاشقين ، وفتنة للمثقفين ، وزاداً للمفكرين وغذاء للعاطفيين ولكنه يبقى ويجب أن يبقى شعلة على درب النضال ومحركاً للطاقات ومدرسة للطموح وأحلام المجد لكل جيل من أجيال هذه الأمة كما كان في جيله ولجيله ».

وطويت الجريدة ورأيتني أرتل بلسان البدوي من شعر البدوى :

أحبة قلبي إن بعدتم فما نأى عن القلب لا الذكر الملح ولا الحب
على طيفكم أغمضت عيني والتقى صيانا له في مقلتي الهدْب والهدْب

* * *

وعدت من عمان الى بيروت وقد عز عليّ ألاّ أكون في مشيعيه الى مرقده في مقام والده في السلاطة في جبل اللاذقية . وجاءتني بطاقة من اللاذقية من الدكتور عدنان الخطيب كتبها بعد التشييع وفيها يقول : « أكتب إليك هذه الكلمات ناعياً اليك صديقنا الغالي البدوي العظيم وقد وُري الثرى أول أمس (١٩/٨/٨١) يالهفي عليه وهذه دموعي كعفو الله عوضه الله جنان الخلد وعوض العربية خيراً ».

وبادر اخوان البدوي في بيروت الى الابراق الى آل الفقيد الكبير يقولون : « شيعنا معكم أخانا ورفيق دربنا وشاعرنا الأكبر بأرواحنا وحسراتنا وأغلى ذكرياتنا ، نبادلكم العزاء ، له الرحمة والخلود ولكم طول البقاء » . وقد وقعها الأساتذة : نصوح الأيوبي ومحمد شقير وزهير عسيران وواصف كمال ومحي الدين رسلان وأكرم زعيتر و(المرحومان) ظافر القاسمي وعرفان الجلاد .



الشاعر الكبير محمد مهدي الجواهري يعود بدوي الجبل في مرضه الأخير ويرى في الصورة من اليمين : صابر فلحوط . الدكتور أحمد سليمان الأحمد (شقيق البدوي) وحفيدته رنا متعلقة بجدها بدوي الجبل . ثم السيدة حسيبة زوجة ابنه منير . ثم الشاعر الجواهري . ثم جهينة حفيدة الشاعر وقد سماها باسم بنته الفقيدة . وفي الوسط (لما) حفيدة الشاعر

أيَتُهَا النَّفْسُ أجْمِلي جَزَعَا
إنَّ الَّذي تَحْذَرِينَ قَدْ وَقَعَا

● كان شاعرنا واحدًا من الثالوث الشعري العظيم :
المتنبي وشوقي وبدوي الجبل

أزاهير الوفاء
على ذكرى الشاعر العظيم

ـ وهذه آراء للبدوي كان ينثرها لدى عواده في مرضه تدور حول الشعر.. قال : « ان المدرسة والثقافة والمجتمع والتاريخ قد تخلق عالما وقد تخلق فيلسوفاً وقد تخلق فاتحاً وقد تخلق مخترعاً وقد تخلق أنواعاً متعددة من العظمة ولكنها لن تستطيع أن تخلق شاعراً فالله وحده هو الذي يخلق الشاعر » .

ـ « الجمال والشعر أخوان لا يفترقان ، فالشعر تعبير عن الجمال والجمال ملهم للشعر » .

ـ « الوزن في الشعر العربي قطعة لاتتجزأ منه ، وكل عبث بالأوزان هو عبث بالشعر وعبقريته والهامه » .

ـ « أنا لا أقرأ الشعر الحديث إلاّ إذا كان لمن أحبه وأعتقد فيه الشاعرية كأدونيس ونازك الملائكة . أقرأ شعرهما الحديث بحسرة ولوعة لأن كليهما شاعر رائع أضاع نفسه ويسعدني أن نازك الملائكة رجعت الى طابعها الأصيل وسأكون مغموراً بالسعادة أنا والشعر عندما يعود أدونيس الى طابعه الأصيل » .

ـ « لا حديث ولا قديم في الشعر . هناك شعر والشعر الحق هو حديث أبداً مهما امتد به الزمان » .

ـ « هناك خاتمة للأنبياء وليس هناك خاتمة للشعراء » .

ـ « إذا فقد الشعر ديباجته الصافية لم يبق شعراً . ان الديباجة الصافية وطن الشعر إذا صحّ التعبير وبدونها يكون الشعر غريباً أو بالأحرى لا يكون شعراً على الاطلاق » .

ـ « أنا لا أؤمن بوحدة الشعر لأن المعاني هي التي تفرض نفسها أما الالتزام بوحدة الشعر ففيه نوع من الصنعة وقد يجافيه الابداع . والصنعة مهما تأنقت لا تكون الهاماً ولا ضوءاً ولا عطراً » .

ـ « هناك متنبي واحد فقط » .

ـ « الاسلام الصحيح وحده يمكن أن يعيد لهذه الأمة كرامتها وعزتها وصفاءها وكبرياءها ، كبرياء الحق لا كبرياء الباطل » .

* * *

ولعل أكرم ما أختم به هذه الذكريات أن أورد آراء أعلام في الشعر والأدب في البدوي وشعره وهي آراء أئمة تصُفّهُ في صف أكابر شعراء هذه الدنيا .

وأود قبل ذلك أن أقول . إنني ما سمعته يتلو قصيدة أو قرأت له قصيدة إلا تمثلت بقول الأمير شكيب ارسلان في أحمد شوقي :

أتلو قصائده فتملأ مهجتي فرحاً ... يزيل همومها وعناءها
وأظل مفتخراً بها فكأن لي ... دون الأنام ثناؤها وسناؤها

* * *

ـ قال الشاعر بشارة الخوري (الأخطل الصغير) : « ... جزالة نظم البدوي لا تناسب لطف نفسه إلاّ أحياناً . في نفسه شاعران إذا انتصر أحدهما للقديم اعترضه نصير للجديد فما خرجت القصيدة من نفسه إلاّ وعليها طابع الشاعرين . هذا هو بدوي الجبل في شفق عمره فكيف به وهو في رأد الضحى ؟ ... » .

ـ قال الشاعر محمد مهدي الجواهري : « إنما أخشى من شعراء العصر وأحسب حسابه هو بدوي الجبل . أكبر شاعر في هذا العصر بدوي الجبل وشاعر آخر » .

ـ قال الشاعر نزار القباني : « إنه السيف اليماني الوحيد المعلق على جدار الشعر العربي في عباءته ألف لبيد وألف شريف الرضي وألف أبو تمام » .

ـ قال الشاعر أدونيس ـ وللبدوي في مدرسته الشعرية رأي سلبي ـ « ان بدوي الجبل هو أكبر شاعر كلاسيكي حي ، وواحد من كبار شعراء العربية في مختلف عصورها ، وصدور ديوانه حدث شعري كبير وأرى أنه مما يليق به أن يتحول هذا الحدث الشعري الى حدث قومي .. أن يكون عيداً للعرب جميعاً .. » .

ـ وقال الشاعر سعيد عقل : « البدوي هو واحد من قلائل شعراء العرب وهنيئاً لك ياعصر » .

ـ وقال الشاعر أمين نخلة : « بدوي الجبل أمير الشعراء وأوفى الأوفياء » .

ـ وقال الشاعر الياس خليل زخريا : « البدوي شاعر جيل ـ كاتب تراث ـ رحالة قديم في مجاهل النفس ومذاهب القومية وخلجان الموت » .

ـ وقال العلامة الشيخ عبد القادر المغربي : « لو أن الأصمعي القائل في شعر أبي العتاهية : إنه كساحة الملوك يقع فيه الخزف والذهب استشف ما سيبدعه بدوي الجبل لقال : هذه ساحة لا خزف فيها إنها سوق الذهب واللؤلؤ والمرجان . وعهدنا بكل شاعر أن يتدرج الى النبوغ في الشعر تدرجاً فهو يقول أولاً فيسمع ويشجع ثم يتقدم الى الانشاء فيقبل في المحفل والمجمع ، ثم يجرى في الحلبة فيسبق ويبرع . أما بدوي الجبل فقد تمردت عبقريته على ناموس التدرج ، فلم نعلم أن رأيناه في السابقين ومعدوداً على حداثة سنه بين الفحول المقرمين » .



نجمات الشعر الثلاث : الشاعرة فدوى طوقان وعلى يمينها الشاعرة نازك الملائكة وعلى شمالها الشاعرة سلمى الخضراء



الأمير فهد بن عبدالعزيز (الملك فهد حالياً) ومأمون الكزبري الوزير السوري - والوزير محمد سليمان الأحمد (بدوي الجبل) (التقطت الصورة عام ١٩٦٣)

ــ وقال سامي الكيالي أديب حلب الشهباء: «ان مرتبة بدوي الجبل تأتي بعد شوقي مباشرة».

ــ وقال علامة العراق بهجة الأثري: «كان بدوي الجبل وفيا للعرب والعربية والاسلام، صادق الشعور، واسع أفق الفكر والعقيدة. وما أنس لا أنس رثاءه البليغ العجيب في طراوة شبيبة أستاذي الأكبر الأمام الألوسي والكاتب الأشهر المنفلوطي سنة ١٩٢٤ وهو عندي من يومه ذاك في الطليعة التي تلي شوقي مع خير الدين الزركلي والأخطل الصغير في الطبع الشعري والديباجة البحترية».

ــ وقال الدكتور ابراهيم مدكور رئيس اتحاد المجامع المصرية ورئيس المجمع المصري: «بدوي الجبل كان من القلة الباقية من شعرائنا الشوامخ الذين حفظوا على الشعر العربي أصالته ورونقه وبهاءه».

ــ وقال محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي بدمشق، وكان البدوي في العشرين من عمره: «الشعراء في الأمم اليوم رسل الاصلاح ودعاة النهضة وحملة النور الى العقول، ولا شك ان بدوي الجبل هو في مقدمة شعراء العرب الذين يحملون لواء وحدتها ويقودونها الى سبيل سلامتها وعظمتها. يدعو الى الاعتقاد بهذا ما يبدو من سيره وسيرته وغرامه بصنعته».

ــ وقال عيسى الناعوري الأديب الأردني: «وبدوي الجبل هو خليفة شوقي في شعره الجزل المدوي مثلما كان شوقي خليفة المتنبي من قبله. المتنبي وشوقي والبدوي ثالوث شعري عملاق صنع الشعر على أمتن بنيان وأجمله وأجزله وأجدره بالخلود».

ــ وقال الأديب الناقد جهاد فاضل: «شعر بدوي الجبل شعر أولاً. شعر في زمن النضوب والندرة والعقم. شعر في زمن انحطاط الشعر العربي وتقليد الشعر الغربي الذي هو في انحطاط ايضاً.. وسواء تغزل بدوي الجبل او غنى أفراح بنى قومه أو مآتمهم فهو في كل شعره العبقري والإمام والأستاذ».

ــ وقال حسني فريز الأديب الشاعر الأردني الناقد: «في ديباجة شعر البدوي نفحات الصياغة البحترية وطلاوة ابن زيدون وموسيقا ابن هانئ. وأما معانيه التي يخترعها ويبتدعها فإن لها في النفس ألواناً من روعة التأثير. أرأيت ان كنت في هدأة الليل وسمعت الناي يناجي الحبيب فذهبت في الخيال كل مذهب؟ أرأيت ان كنت في شوق مستكن مستكين وطلع عليك الحبيب الهاجر بوجهه المشرق وثغره البسام؟ أرأيت ان كنت لاهياً عن ظمئك الشديد وجاءت إليك عفو الخاطر بكأس روية، مياسة القد مجنونة الصبا؟ كذلك تطلع عليك معانيه رائعة حتى لتقول إنه لا عهد لي بمثلها في دواوين عمالقة الشعر في مطلع هذا القرن!».

ــ ويقول الدكتور عدنان الخطيب الأمين العام المساعد لاتحاد المجامع اللغوية العربية: «ما أحسب شاعراً بعد المتنبي بلغ مبلغه في كثرة الأبيات التي ترقى الى الأمثال الأخاذة والحكم البليغة أو ليس لشاعر قبل بدوي الجبل أن يفخر أكثر من فخره بالشعر المطبوع المتدفق وبالحكمة البالغة تجري على لسان بلا تكلف ولا عناء أو يفخر بعدد الأبيات التي يمكن الاستشهاد بها في القصيدة الواحدة مع اللفظ الواضح كل الوضوح وفي التركيب المشرق كل الاشراق».

* * *

وبعد فهذه أزاهير الرحمة والوفاء نثرتها على ذكرى شاعرنا العظيم. وما أجزل شكري للكثيرين الذين أعربوا عن ترحيبهم البالغ بها. وما أعظم اعتزازي «بالدوحة» الفينانة التي أتاحت لي تقديم كبير شعرائنا الى دنيانا العربية التي تظللها دوحتنا القطرية!

أكـــرم زعيتـــر

حتى لا يفاجئنا المستقبل

في أزمات عالمنا المعاصر

بقلم: الدكتور علي الدين هلال

منذ بداية السبعينات صدرت عدة دراسات تتعلق بمستقبل العالم وتطرح بدائل مختلفة لمسار تطوره . وتراوحت هذه الدراسات بين التشاؤم الذى عبر عنه التقرير الأول لنادى روما بعنوان « حدود النمو » (١٩٧٢) وبين التفاؤل الذى يركز على الامكانات الجديدة التى تقدمها الثورة العلمية والتكنولوجية وبالذات في مجال الهندسة الوراثية وتطبيقاتها في الزراعة والغذاء عموما .

حدود المشكلة

وجاءت أزمة الجفاف التى واجهت إحدى وعشرين دولة افريقية في السنوات الأخيرة لتطرح من جديد قضية الغذاء ، ولتذكر العالم بأن الأخطار المترتبة على اهمال البيئة عند التخطيط لعملية التنمية لها نتائجها وتداعياتها الخطيرة التى لاتقل عن أخطار انتشار الأسلحة النووية والدمار الذري .

إن المشكلة البيئية التى يواجهها العالم اليوم تتسم بأنها تشمل الكرة الأرضية بأسرها ، وأنها ـ في نظر البعض ـ تمثل تهديدا للاستقرار في العالم . هذه المشكلة البيئية ذات أبعاد مختلفة ، وهى نتيجة عدة تطورات تتضمن الانفجار السكاني في العالم ، وسوء توزيع الغذاء بين الدول الغنية ، والدول الفقيرة ، وتضوب الموارد الأساسية ، وتجريف البيئة (مثل تدمير الغابات في البرازيل التى تعد رئة طبيعية للعالم) ، واحتمالات سوء استخدام الأسلحة النووية ، والتقدم المخيف في العلم والتكنولوجيا بما يفتحه من آفاق .

وكل هذه التطورات تطرح على المجتمع الانساني تحديات جديدة من الواضح أن التنظيم السياسي لعالمنا المعاصر غير قادر بعد على الامساك بتلابيبها ناهيك عن تقديم حلول فعالة لها .

هذه المشكلة ليست سياسية وحسب . بل انها حضارية ومفهومية . لقد قدمت الحضارة الأوروبية الحديثة نموذجا للتنمية ومفهوما للتقدم أصبحا عبئا على الجنس البشري اليوم وهما يقودان الى عالم مفعم بأشكال عدم المساواة . عالم تعيش أقليته في رخاء مادى ويطحن أغلبيته الحرمان والفقر . عالم تعددت فيه مظاهر عدم العدالة بشكل عميق وصريح حتى انها أصبحت خطرا يهدد الاستقرار والأمن فيه .

جنون السرعة

واحدى السمات الرئيسية لهذا العالم هي السرعة ، سرعة التغير بشكل متزايد حتى أن بعض المفكرين الاجتماعيين مثل ألفن توفلر أثار التساؤل حول قدرة الانسان على التكيف مع هذه الدرجة من السرعة . وهذه السرعة تمتد الى كافة جوانب الحياة التى نعيشها . فالتزايد السكانى مثلا وهو في المتوسط ٢٪ يبدو معقولا ومتواضعا ، ولكن إذا تذكرنا أن هذا يعني تضاعف عدد سكان الكرة الأرضية في ست وثلاثين سنة فإنه يصبح أمراً يجب التوقف عنده وعند دلالته ونتائجه .

وفي هذا القرن العشرين تضاعف عدد السكان ، وحجم الانتاج والاستهلاك ، وسرعة الاتصال والمواصلات بين المجتمعات وفي داخلها ، وعدد العلماء . ولكى تتضح هذه الصورة لابد أن نتذكر حداثة وقصر عمر عدد كبير من المخترعات التى نتعامل معها اليوم وكأنها معطيات كانت موجودة دائما . لقد بدأ هذا القرن مع المركبات التي كانت تشدها الجياد والدواب ويوشك أن ينتهى مع مركبات الفضاء .

بدأ بمذياع بدائى محدود القدرة على البث . وانتهى بأجهزة التلفاز التى تنقل لنا صورة رجال الفضاء وهم يصلحون أجهزتهم في الجو ، وتنقل لنا أصواتهم وهم يتحدثون مع بعضهم البعض .

وأغلبنا ينسى أن أول عرض للسينما كان في عام ١٩٠٥ ، وأن إنتاج السيارت على نطاق تجارى بدأ في عام ١٩٠٨ ، وأن البلاستيك أخترع في عام ١٩١١ ، والاذاعة العامة في عام ١٩٢٠ ، وأن أول بث تلفزيوني كان في عام ١٩٢٧ ، وأن ماكينات تصوير الورق والنايلون ظهرت في عام ١٩٣٨ ، وأن المذياع الترانزستور كان في عام ١٩٤٨ ، وأن أشعة الليزر استخدمت في عام ١٩٦٠ .

وحدث نفس الشيء في التكنولوجيا العسكرية ، فأول مدفع رشاش فعال استخدم في عام ١٩١٤ ، وأول سفينة أغرقت بواسطة



● نموذج التنمية بالمفهوم الغربي أصبح عبئا على الجنس البشري!

● إن لم نخطط لمستقبلنا خططه لنا الآخرون!

الغواصات كانت في سنة ١٩١٥ ، وهو نفس العام الذى شهد مولد الدبابات ، وأن أول قذف جوى لمناطق سكنية مدنية كان في عام ١٩٣٨ في اثيوبيا واسبانيا .

وارتبط بذلك ازدياد القدرة التدميرية لدى الدول الكبرى ، ويقدر الخبراء العسكريون أنه منذ عام ١٩٦١ زادت هذه القدرة ثلاث أو أربع مرات . كما ارتبطت بازدياد عدد الحروب ، وفي الكتاب السنوى لمعهد ستوكهلم لبحوث السلام عن عام ١٩٧٦ ورد أن عدد الحروب الأهلية والدولية في الفترة ١٩٤٥ ـ ١٩٧٥ بلغ ١١٩ حربا شملت أقاليم ٦٩ دولة وجيوش ٨١ دولة . وبالمقارنة فإن الفترة ١٩٠٠ ـ ١٩٤١ لم تشهد سوى ٢٤ حربا . وخلال نفس الفترة (١٩٤٥ ـ ١٩٧٥) كان هناك ٣٠٠ انقلاب عسكرى أو محاولة انقلابية تم اخمادها بالقوة .

الطريق المسدود

وفي عام ١٩٦٩ وقف السيد يوثانت أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة قائلا : « إنني لا أرغب أن أبدو دراميا ، ولكنني لا أملك بحكم المعلومات المتوفرة لي باعتباري سكرتيرا عاما للأمم المتحدة إلا أن أصل الى نتيجة مؤداها أن على أعضاء الأمم المتحدة أن يواجهوا موقفا صعبا للغاية مالم يتناسوا خلافاتهم التقليدية ويبدأوا مشاركة عالمية من أجل وقف سباق التسلح ، وتحسين البيئة الانسانية ، ومواجهة الانفجار السكاني ، واعطاء دفعة لجهود التنمية » .

ورغم انصرام عقود التنمية التي أعلنتها الأمم المتحدة فإن أوضاع الدول النامية لم تتحسن كثيرا ، بل زادت مديونيتها واعتمادها على الخارج . وهو الأمر الذى يرتبط بمفهوم التنمية ذاته واتخاذ معايير الانتاج المادى وتزايد الاستهلاك ومتوسط دخل الفرد باعتبارها المعايير الأساسية للتقدم . وهو ما ارتبط أيضا بتصور أن كل مشكلة لها حل تكنولوجي وأن الحل هو استيراد الآلات من الدول المتقدمة . وأن هذه الآلات كفيلة بحل مشكلة التخلف . وأهمل هذا المفهوم للتنمية الهدف الأساسي العملية ، وهو الوفاء بالاحتياجات الأساسية للبشر ، وأهمل موضوع التكنولوجيا الملائمة ، وموضوع علاقة الانسان بالبيئة .

نحن والمستقبل

وغير صحيح أن الاهتمام بالمستقبل يعد أمرا من قبيل الترف أو الهروب ، فالمستقبل يولد اليوم تحت أبصارنا . والقرارات التى نتخذها اليوم سوف تحدد شكل المجتمع والحياة التى سوف يعيشها أولادنا والأجيال القادمة . ومعرفة مشاكل المستقبل لابد أن تدفعنا إلى العمل لمواجهته من الآن . وهذه المعرفة ينبغي أن تؤثر على سلوكنا ، على كيف ننفق أو نستهلك ، في أى القطاعات نستثمر ونركز الجهد . فالمستقبل ليس أمرا حتميا أو مفروضا علينا بواسطة قوى خارقة ، ولكن الانسان صاحب الارادة ، والتى يعرف مايريد ، هو أيضا عامل أساسي في المستقبل وفي التأثير على شكله . أما اذا تجاهلنا ذلك وتصرفنا بمنطق « وبعدى الطوفان » فإن ذلك يضعنا في موقف صعب للغاية . لايمكن تبريره أخلاقيا ومعنويا .

وكما كتبت مرة من قبل فإن دراسة المستقبل ليست هروبا من مواجهة الحاضر . بل هى تنبيه الى أن مشاكلنا تتخطى هموم الحاضر الثقيلة ، وأن علينا في تخطيطنا وفي ممارساتنا عدم الاكتفاء بمواجهة ماهو آني وعاجل ، بل أن نضع في حسباننا أيضا تحديات المستقبل وأزماته ، فإذا لم نخطط نحن لمستقبلنا فسوف يخططه لنا الآخرون .

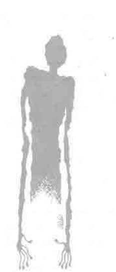
ولنتذكر أن السعى لمعرفة مشاكل المستقبل هو أيضا سعى للتأثير في شكل هذا المستقبل ، وأن الذين يثيرون أسئلة حول المستقبل يضعون في نفس الوقت جدول أعمال الغد .



رسالة عاجلة من القنيطرة إلى خالد ابن الوليد

شعر :
محمود حامد

قُمْ مِنْ تُرابِكَ ،
لا مَجالَ لِغَفْوَةٍ أُخْرى ،
نُريدُكَ عاجِلاً يا ابْنَ الوليدْ
خَيْلُ التَّتارِ عَلَى رُبى اليَرمُوكِ تَزحَفُ مِنْ جَديدْ
فَاخْلَعْ تُرابَ القَبْرِ عَنْكَ ، وَعُدْ إِلَيْنا ،
نَحْنُ في وَطَنِ العُرُوبَةِ بِانْتِظارِكَ ،
وَالدِّماءُ تُحيطُ بِالْقَتْلى ،
وَفُرْسانُ الصُّمُودِ يُجابِهُونَ المَوْتَ وَالأَعْداءَ في عَزْمٍ مَجيدْ
صَوْتي يَجيؤُكَ مِنْ بَعيدٍ ، مِنْ بَعيدٍ ، مِنْ بَعيدْ
فَأَمامَهُ الأَسْلاكُ شائِكَةٌ ، وَيَنْهَمِرُ الرَّصاصْ
فَافْتَحْ بِسَيْفِكَ لي طَريقاً لِلْخَلاصْ
سُحُبُ الفَواجِعِ في سَمائي ،
وَالجَماجِمُ حَوْلَ خاصِرَتي ،
وَتَمْتَدُّ الحَرائِقُ في الجَبين .
وَرُحْتُ أَصْرُخُ : أَنْقِذُوني ،
ضاعَ صَوْتي في الحِصارْ
وَتَلَفَّتَتْ عَيْنِي فَما أَلْفَيْتُ غَيْرَ دَمي يُصاحِبُني إِلَيْكَ ،
وَنَهْرُ حُزْنٍ يَقْتَفي أَثَري ، وَأَشْباحُ التَّتارْ
حَوْلي وَأَعْناقُ السُّيُوفِ تَلُوحُ مُتْعَبَةً ،
صَرَخْتُ شَعَرْتُ أَنَّ الصَّوْتَ يَبْلَعُهُ الدَّمارْ ،
وَأَنا أُراوِحُ في مَكاني ،
بَيْنَ كابُوسِ الهَزيمَةِ وَالدُّوارْ
جَسَدي تَمَزَّقَ تَحْتَ أَعْقابِ الْبَنادِقِ ،
وَالدِّماءُ تَسيلُ مِنْ وَجْهي .. ،
وَأَرْفُضُ أَنْ أَمُوتْ
في ظِلِّ أَعْقابِ البَنادِقِ ،
أَيُّ عارٍ قَدْ يُداهِمُني إِذا مِتُّ كَالْجُبَناءِ ،
في ظِلِّ الهَزيمَةِ ، أَيُّ عارْ
مَوْتُ الخَنادِقِ أَشْتَهيهِ ،
فَضُمَّني يا ابْنَ الوَليدِ إِلى جُيُوشِكَ ،
رُدَّ لي غَضَبَ الْبَيارِقِ ،
رُبَّما كَفُّ القُنَيْطِرَةِ الأَبِيُّ يَصُوغُ يَوْمَ الانْتِصارْ
أَوْقَفْتُ زَحْفَ الغاصِبينَ ،
فَلا تَقُلْ :
لَيْسَتْ نِساءُ الشّامِ خَوْلَةَ ،
كُلُّنا مِنْ نَسْلِ سَيْفٍ يَعْرُبِيٍّ





أوْقفْتُ زحْفَ الغاصبينَ ،
ومَجْدِيَ الأمويُّ يَبْقى ذلكَ المَجْدَ الأبيّ
مَوْتُ الخَنادِقِ أشْتَهيهِ ،
وإنَّهُ دَيْنٌ عَليّ
فَاجْعَلْهُ يوْمَ الثَّأْرِ لِي ،
واتْرُكْهُ في الأيّامِ أجْمَلَ ما لَدَيَّ
صَدْري وَمَنْ يَشْتاقُ غَيْرُكَ أنْ يَضُمَّ إليْهِ صَدري ،
لا أُريدُ سِواكَ يَحْضُنُ جَبْهَتي ،
حينَ العَواصِفُ تَسْتَفيقُ ،
وَحينَ تَنْتَفِضُ الصّواعِقُ في يَدَيّ
ضَجَّ الهُتافُ مَدى الحَناجِرِ يا دِمَشْقُ ،
أتَسْمَعينَ صَدى الدَّوِيّ
شَقَّ الفَضاءَ ،
أتَسْمَعينَ خُطى الرِّجالِ ،
وَصَوْتَ مَوْجي حينَ يَهْدُرُ ،
والجِباهُ الشّاهِقاتُ إلى السَّماءِ ،
وَكَيْفَ تَحْضُنُها شُموسُ النَّصْرِ في الأبَدِ القَصِيّ
قولي لِمَنْ شاءَ اقْتِحامي ،
ما أنْتَ لِغاصِبٍ جَنْبي ، وَلا
عَبَرَتْ شَبابيكي خَفافيشُ الظَّلامْ
قولي لِمَنْ شاءَ اقْتِحامي ،
هاهُنا المَوْتُ الزُّؤامْ
وأنا السَّلامُ لِمَنْ يُريدُ لِيَ السَّلامْ

° ° °

كانَتْ شِفاهي مُلْتَقى كُلِّ البَلابِلِ ،
عِشْتُ أحْلُمُ بالغِناءِ ... ،
أنادِمُ الأشْجارَ والأحْجارَ ،
أسْهَرُ في بَساتينِ الهَوى حَتّى الصَّباحِ ،
ولا أنامْ
كانَتْ عَصافيرُ الدُّروبِ تُحِبُّني ،
تَأوي إلى رُكْنٍ قَصِيٍّ تَحْتَ أجْنِحَتي ،
تُغازِلُني ، وأسْقيها حَناني ،
أسْتَضيفُ عَلى جَبيني تارَةً وَهَجَ الشُّموسِ ،
وَتارَةً ضَوْءَ القَمَرْ
والرّيحُ تُنْشِدُني قَصائِدَها ،
وَتَهْمِسُ لي حِكايا حُبِّها شَفَةُ الشَّجَرْ
كانَ الأمانُ يُحيطُ بي ،
والحُبُّ يَسْكُنُ هاهُنا
عَبْرَ الجُذورِ ، وَعَبْرَ أكْوامِ العُصورِ ،
يَجيءُ حيناً في السَّحابِ ،
وَقَدْ يَجيءُ مَعَ المَطَرْ
والأرْضُ تَضْحَكُ ،
كُلُّ شَيْءٍ كانَ يَضْحَكُ هاهُنا حَتّى الحَجَرْ
ثُمَّ انْتَبَهْتُ عَلى الخَطَرْ
فَنَفَضْتُ عَنّي كُلَّ أحْلامِ النِّساءِ ،
بَعَثْتُ خَوْلَةَ في الدِّماءِ ،
وَعِنْدَ قَبْرِ ابْنِ الوَليدِ ،
هُناكَ أقْسَمْتُ اليَمينَ ،
أنا القُنَيْطِرَةُ الحَزينَةُ ، والأبِيَّةُ ،
قَدْ خَلَعْتُ أنوثَتي ،
وَلَبِسْتُ أكْفاني وَمَوْتي ،
وامْتَشَقْتُ السَّيْفَ ، سَيْفَ أُمَيَّةَ المُضَرِيَّ ،
ثُمَّ وَقَفْتُ أصْرُخُ في الرِّجالِ :
أنا القُنَيْطِرَةُ الصَّبِيَّةُ ، غادَةُ الدُّنْيا ،
وَسَيِّدَةُ البَشَرْ
أيُّ الرِّجالِ يَكونُ يَوْماً سَيِّدي
هُوَ مَنْ يَشُقُّ الصَّعْبَ قَبْلي لِلظَّفَرْ

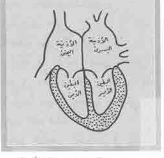
هل يستطيع الطب إطالة عمر الإنسان وتخليصه من الأمراض الخطيرة؟

بقلم: الدكتور عامر شيخوني

لا تيأسوا .. قالها المريض بصوت متهدج متعب وهو في حالة بين السبات واليقظة ، لا تيأسوا .. ولاحت في عينيه نظرة ملؤها الشكر والامتنان رغم سكرات الألم ، وعلى بعد خطوات قليلة من سريره جلس رجل في السبعين من عمره قضى أكثره في البحث عن المعرفة . ولاشك بأن هذه الكلمة قد أثارت في أعماقه كثيراً من الذكريات مع شيء من الفرح والاستغراب . فمنذ حوالي شهرين كاد هذا المريض أن يكون في عداد الأموات . والآن بعد أن أنقذه القلب الآلي من الموت مازال يتحدث عن الأمل والإصرار . هذه الكلمات التي تصدر من إنسان مريض متعب مشحونة بالشكران والأمل تدفع الطبيب المسن إلى مزيد من العطاء ومزيداً من البحث والاستقصاء . وفي مثل هذه الكلمات والنظرات يجد الطبيب خير مكافأة لسنوات العمر الطويلة التي قضاها في عمل متعب وبحث مستمر .

المريض

رن جرس الهاتف في مكتب جراح القلب الشاب ويليام ديفريز William De Vries في جامعة يوتا Utah ولم يقل المريض أكثر من كلمتين : أنا مستعد . وكان ديفريز بانتظار هذا الاقرار من مريضه بارني كلارك Barney Clark كي يتابع إجراءات الاستعداد للعملية المنتظرة : زرع القلب الآلي في صدر هذا المريض الذي أنهكه مرض القلب . وفي اليوم التاسع والعشرين من شهر تشرين الثاني « نوفمبر » سنة ١٩٨٢ وصل كلارك إلى المستشفى وهو في حالة سيئة : كان يبدو شاحباً مزرقاً وهو يحاول جاهداً أن يلتقط أنفاسه رغم قناع الأوكسجين الذي وضع على وجهه . وكان واضحاً لنظرة الطبيب المتفحصة أن كلارك في وضع صحي سيئ خاصة بعد أن لاحظ تورم ساقيه ووجود مزيد من التورم في بطنه ورئتيه . وبعد إجراء قسطرة قلبية سريعة تبين له أن قلب كلارك لا يضخ أكثر من ليتر واحد من الدم في كل دقيقة في حين أن قلب رجل في مثل وزنه يجب أن يضخ من خمسة إلى سبعة ليترات من الدم في الدقيقة كي يؤمن دوران الدم في الجسم وينقل إلى كافة الأعضاء ما تحتاجه من الغذاء والأوكسجين . وأكدت الفحوص المخبرية سوء حالة الكليتين والكبد نتيجة لنقص كمية الدم التي تصلهما من قلب كلارك المنهك . هل فات الوقت ؟ هل انتظرنا أكثر مما يجب ؟ أحس ديفريز بشيء من اليأس والقنوط وانتابه شعور مرير بأنه ربما قد تأخر في النصح بإجراء هذه العملية ولم يكن عند حسن ظن صديقه المريض .



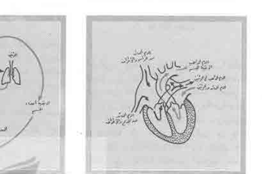
رسم توضيحي للقلب الطبيعي يبين الأذينتين في الاعلى والبطينين في الاسفل ، والصمامات التي توجه دوران الدم بينهما .

كانت إجراءات الاستعداد لهذه العملية الأولى من نوعها قد بدأت منذ شهور عديدة عندما جاء طبيب الأسنان المتقاعد بارني كلارك إلى جامعة يوتا في الولايات المتحدة الأمريكية كي يأخذ رأي أطباء القلب هناك في حالته المستعصية . كان قلب كلارك مصاباً بوهن العضلة القلبية Cardiomyopathy وهو مرض مجهول السبب ربما كان عائداً لإصابة سابقة بالحمات الراشحة (الفيروسات) أو بسبب التهاب مزمن في عضلة القلب أدى إلى تخريبها بشكل بطيء مستمر رغم العلاج بمقويات القلب والكورتيزون والأدوية المضادة للالتهاب والعلاجات المناعية الحديثة . وبعد حوالي سنتين من المرض وجد كلارك نفسه على أبواب جامعة يوتا في حالة من قصور القلب تسير من سيئ إلى أسوأ دون أن يستطيع أحد أن يوقف تدهورها . جاء كلارك إلى هذه الجامعة بالذات بسبب تقدم أبحاث القلب الآلي فيها . فقد بلغ ضعف قلبه مداه وحان الوقت لاتخاذ القرار الصعب فقد استهلك المرض المزمن ألياف عضلة قلبه ولم يعد باستطاعة قلبه المريض أن يضخ الدم لتروية

● في سنة ١٩٥٧ تمّ زرع قلب آلي في صدر كلب، وكانت هذه أول عملية ناجحة، وقد عاش الكلب ساعة ونصف ساعة بعد العملية

● في سنة ١٩٧٠ تمّ زرع قلب آلي لأحد العجول، واستمرت حياة العجل تسعة شهور بعد زراعة القلب الجديد

● سبعة شروط أساسية يجب أن تتوفر في القلب الصناعي حتى ينجح في أداء دوره..



رسم توضيحي للقلب الطبيعي يبين الأجواف والصمامات الأربعة، وتشير الأسهم الى اتجاه دوران الدم في القلب.

مخطط توضيحي للقلب الطبيعي ولدوران الدم في الرئتين (الدورة الصغرى) وفي بقية أعضاء الجسم (الدورة الكبرى).

جسده رغم العلاج والأدوية. ويبدو أن الأمل الوحيد المتبقي هو في الحصول على قلب جديد..!

هل يمكنه الحصول على قلب جديد عن طريق زرع قلب إنسان آخر في صدره؟ إن زرع القلب البشري عملية قد أثبتت نجاحها في مراكز عديدة في العالم منذ أن أجريت لأول مرة في عام ١٩٦٧. ولكن هذا الأمل الجديد الذي فتحه العلم أمام كلارك كان قصير المدى فقد بلغ كلارك من العمر إحدى وستين سنة في حين أن أطباء زرع القلب البشري لا ينصحون بالقيام بهذه العملية لمن هم في سن جاوزت الخمس وخمسين سنة وذلك بسبب ندرة المتبرعين بالقلوب! وهكذا وجد كلارك نفسه على أبواب جامعة يوتا حيث يقبع أمله الأخير ممثلاً في قلب آلي لم يستخدمه إنسان قبله. هل يصبح كلارك أول إنسان يعيش بقلب آلي؟ أم يجبن عن هذه المواجهة ويترك تقرير مصيره لقلبه المريض؟ كان اختيار كلارك بين احتمال الحياة مع قلب آلي جديد أو الموت المؤكد مع قلب منهك مريض. واختار الحياة.. ولا غرابة في إقدام هذا الطبيب المتقاعد على هذا الخيار وهو الرجل العصامي المكافح، فقد كان طفلاً في الثانية عشرة من العمر عندما توفي والده. فاضطر بدوره إلى العمل كبائع متجول كي يساعد والدته وإخوته، بل واستطاع بجهوده وعمله أن يتابع دراسته حتى أصبح طبيب أسنان ناجح. ترك كلارك انطباعاً ممتازاً لدى الأطباء النفسيين والأخصائيين الاجتماعيين الذين تفرغوا لدراسة حالته النفسية والعقلية والاجتماعية لتقرير فيما إذا كان كلارك مرشحاً مقبولاً لهذه العملية الجديدة وكان تقريرهم مشجعاً للغاية فقد وجدوا فيه الثقافة المناسبة والشخصية المرحة الحازمة والشجاعة والمحبة للمغامرة، كما وجدوا في زوجته وأولاده الثلاثة خير دعم وسند في الظروف الصعبة التي مر بها أثناء مرضه الطويل. وهكذا تلاقت الظروف المناسبة بين المريض الذي يحتاج إلى قلب جديد وبين مجموعة المهندسين والأطباء في جامعة يوتا الذين كانت دراساتهم وأبحاثهم في مجال القلب الآلي تبشر بالنجاح.

وراء القلب الآلي

لم تكن دراسات القلب الآلي جديدة على الأطباء والمهندسين في قسم الأعضاء الصناعية بجامعة يوتا فقد كانوا يعملون على تصميم القلب الآلي منذ سنة ١٩٦٧ تحت إشراف وليم كولف Willem Kolff مخترع الكلية الصناعية وأول من قام بتصميم قلب آلي ناجح، ففي كليفلاند كلينك Cleveland Clinic سنة ١٩٥٧ قام كولف بزرع قلب آلي في صدر كلب عاش لمدة ساعة ونصف وكانت هذه أول عملية ناجحة في هذا المجال. وقد ظل كولف بعدها رائداً من رواد دراسات القلب الآلي في العالم. انتقل كولف الى جامعة يوتا في عام ١٩٦٧، وفي عام ١٩٧٠ انضمّ روبرت جارفيك Robert Jarvik إلى مجموعة الباحثين في قسم الأعضاء الصناعية: وتحت إشراف وخبرة كولف قام جارفيك الطبيب والمهندس الحيوي الشاب بتصميم عدة نماذج من القلب الآلي تم تطبيق بعضها بنجاح على الأبقار والخراف، وكان أكثر تصميماته نجاحاً هو نموذج القلب الآلي جارفيك رقم ٧ الذي نجح بالمحافظة على حياة أحد العجول لمدة تسعة أشهر وهي أطول فترة مسجلة لحيوانات التجربة إثر عملية زرع قلب آلي.

المضخة الطبيعية الرائعة

يواجه تصميم القلب الآلي تحديات عديدة قبل أن يصبح بديلاً مقبولاً للقلب الطبيعي. لأن القلب الطبيعي مضخة عالية الكفاءة معقدة التنظيم تتألف من أجواف أربعة: جوفين سفليين (البطينين) وظيفتهما الأساسية هي القيام بدفع الدم وضخه في الجسم، ولأن ذلك يحتاج إلى طاقة كبيرة فليس من الغريب أن يكون جدارهما مؤلفاً من عضلة قوية سميكة. أما الجوفين العلويين (الأذينتين) فوظيفتهما الأساسية هي تخزين الدم وتنظيم نبضات القلب والقيام بدفع الدم نحو البطينين. ولأن هذه الوظيفة لا تحتاج الى طاقة كبيرة فجدار الأذينتين أقل سماكة من جدار البطينين. ويمكننا فهم عمل القلب بشكل واضح إذا تابعنا دوران الدم: يصل الدم الى القلب عن طريق

هل يستطيع القلب إطالة عمر الإنسان وتخليصه من الأمراض الخطيرة؟

الأوردة الرئيسية داكن اللون محملاً بغاز الفحم . وهو أحد النواتج الرئيسية للتفاعلات الكيميائية الحيوية التي تتم في أنحاء الجسم المختلفة . كما يصل الدم إلى القلب فقيرا بالأوكسجين اللازم لاستمرار هذه التفاعلات الكيميائية التي تشكل أساس الحياة ذاتها . يدخل الدم أولاً إلى الأذينة اليمنى التي تضخه إلى البطين الأيمن الذي ينقبض بقوة دافعاً الدم الداكن إلى الرئتين حيث يتم استخلاص غاز الفحم من الدم وتحميله من جديد بالأوكسجين الموجود في هواء التنفس . ويعود هذا الدم المنقى بعد دورته الصغيرة هذه أحمر اللون إلى الأذينة اليسرى التي تضخه بدورها إلى البطين الأيسر القوى الذي يقوم بدفع الدم في الشريان الأبهر الذي يوزع الدم النقي إلى كافة أنحاء البدن في دورة كبيرة يعود الدم بعدها إلى الأذينة اليمنى داكن اللون محملا بغاز الفحم وفقيراً إلى الأوكسجين من جديد . يحتوي القلب على أربعة صمامات توجه دوران الدم إلى الأمام دائماً وتمنع هذه الصمامات بانغلاقها بشكل متكامل عودة الدم في الاتجاه المعاكس أثناء انقباض البطينين وارتخائهما . ويزداد إعجابنا بهذه المضخة الطبيعية الرائعة إذا تصورنا التكامل والانسجام التام الذي يتم بين كافة حجراتها وصماماتها في كل دفقة من دفقاتها المتلاحقة . إذ يقوم القلب بدفع الدم إلى الجسم في حالة الراحة حوالى سبعين مرة في الدقيقة يضخ خلالها حوالي خمسة ليترات من الدم . وإذا تطلب الجسم مزيداً من الدم وسرعة أكبر في دورانه كما يحدث في حالات الغضب والانفعال أو في حالة الجري أو السباحة مثلاً فإن هذه المضخة الرائعة تستطيع أن تزيد من فعاليتها بشكل متكامل الانسجام حتى تدفع الدم حوالى ١٥٠ مرة في الدقيقة تضخ خلالها أكثر من عشرة ليترات من الدم ! كل هذا الانسجام والتكامل وكل هذه القوة مجمعة في عضو لايزيد حجمه على قبضة اليد ..! وإذا سلمت هذه المضخة الطبيعية من الأمراض ومن أذيات التدخين والسمنة وارتفاع الضغط فبإمكانها العمل بكفاءة تامة أكثر من سبعين عاماً تمتد طيلة حياة الانسان منذ بداية تشكله في رحم الأم حتى يضمه الثرى .

ولهذا يتحتم أن تتوفر الصفات التالية في القلب الآلي النموذجي :

١ : أن يكون حجمه مشابهاً لحجم القلب الطبيعي حتى يتمكن الجراحون من زرعه في الصدر مكان القلب الطبيعي .

٢ : أن يقوم بدفع الدم في الدورتين : الصغرى إلى الرئتين ، والكبرى إلى بقية أنحاء الجسم .

٣ : أن يكون مجهزاً بصمامات جريان الدم في الاتجاه الصحيح دائماً .

٤ : أن يتمكن من ضخ ٥ ــ ١٠ ليترات من الدم في الدقيقة .

٥ : أن يكون من الممكن تغيير سرعة نبضاته وتغيير قوتها بحيث يزيد من قدرته على ضخ الدم بحسب حاجة الجسم وتغيرها بين الراحة والعمل .

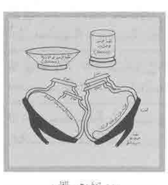
٦ : أن يكون مصنوعاً من مواد لا يرفضها جسم الانسان ولا تحرض على تخثر الدم أو تحلله .

٧ : أن يتمكن من العمل بشكل صحيح ومضمون فترة طويلة من الزمن في ظروف الجسم الطبيعية ورغم تعرضه لمختلف النشاطات الحيوية والمواد الكيميائية الموجودة في جسم الانسان .

وتشكل هذه المواصفات معضلة صعبة الحل قام العلماء بمحاولة حلها على طريق طويلة من الجهد والعمل والاختبارات المتواصلة المختلفة بكثير من الفشل وفترات من النجاح تزيد من الاصرار والأمل ، وبعد جهود مضنية وتجارب عديدة توصل الأطباء والمهندسون إلى تصميم مقبول لقلب آلي يمكن أن يحقق بعض هذه المواصفات وبحيث بدت أخيرا بوادر أمل حقيقي بالوصول إلى القلب الآلي النموذجي المطلوب .

جارفيك رقم ٧

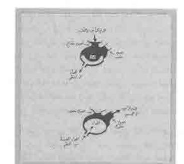
يتألف هذا القلب الآلي من مضختين مصنوعتين من البلاستيك والألمنيوم : مضخة يسرى تقوم بعمل البطين الأيسر من القلب الطبيعي ، ومضخة يمنى تقوم بعمل البطين الأيمن . وفي هذا القلب الآلي أربعة صمامات تقوم بعمل مماثل لصمامات القلب الطبيعي . تتألف كل مضخة في هذا القلب من قاعدة صلبة من الألمنيوم وجدران من البلاستيك ، وتحتوي في داخلها على غشاء مرن رقيق من مادة بلاستيكية (Polyurethane) . يشكل هذا الغشاء مع القاعدة المعدنية تجويفاً يتصل بمنظم لعمل القلب عن طريق أنابيب بلاستيكية تمرر خارج جسم الانسان إلى المنظم . ويتم ضخ الدم بأن يقوم منظم القلب بتمرير نفخات من الهواء المضغوط إلى تجويف القلب الآلي تدفع الغشاء المرن الذي ينتفخ دافعاً أمامه ما يحتويه القلب من الدم . ثم يسحب المنظم الهواء من القلب الآلي فيعود الغشاء المرن إلى قاعدته ويسمح بذلك بامتلاء القلب بالدم من جديد . وهكذا يقوم المنظم بدفع الهواء المضغوط وسحبه من القلب الآلي بمعدل ٥٠ ــ ١٥٠ مرة في الدقيقة بحسب ما يحتاجه المريض . وهكذا نلاحظ أن هذا القلب الآلي لا يمثل بديلا كاملاً للقلب الطبيعي وإنما هو في الحقيقة مضخة هوائية تقوم بعمل البطينين في القلب الطبيعي . كما أن طاقة الضخ التي يقوم بها هذا القلب الآلي مستمدة في الحقيقة من جهاز موجود خارج جسم المريض وهذا يحتم بالضرورة وجود أنابيب تصل القلب الآلي الموجود داخل صدر المريض بالمنظم الموجود خارج جسمه . وإن وجود مثل هذه الأنابيب يعني بالضرورة تحديد مجال حركة المريض كما يعني احتمال وصول الجراثيم إلى القلب الآلي داخل جسم المريض وبالتالي حدوث التهابات قد تؤدى إلى الوفاة كما حدث فعلا في حيوانات التجربة . لا يمثل هذا القلب الآلي بديلاً مثالياً للقلب الطبيعي ولكنه على كل حال بديل مقبول في هذه الفترة من التقدم العلمي ومازالت الأبحاث مستمرة في سبيل الوصول إلى صنع قلب آلي يزرع في صدر المريض ويستمد



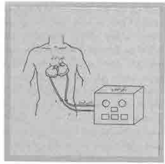
رسم توضيحي للقلب الآلي جارفيك رقم ٧

● القلب الآلي له مستقبل والتجارب مستمرة

● كل علماء الدنيا يتعاونون الآن لتحقيق النجاح الكامل للقلب الآلي



رسم توضيحي يبين آلية عمل القلب الآلي جارفيك رقم ٧



مخطط توضيحي يبين اتصال القلب الآلي الموجود داخل صدر المريض بمنظم القلب الموجود خارج الجسم

طاقة الضخ من جهاز صغير يمكن حمله في نطاق يلبسه المريض حول صدره ويتمكن بذلك من القيام بالنشاط الانساني المعتاد ، وقد حاول بعض العلماء في أمريكا استخدام الطاقة النووية والطاقة الكهربائية لتحقيق هذا الهدف ، إنما مازالت النتائج الميدانية غير مشجعة ومازالت التجارب مستمرة .

الحالة تزداد سوءاً

كان من المقرر أن يقوم الجراح ديفريز بإجراء عملية زرع القلب الآلي في صدر كلارك في صباح الخميس اليوم الثاني من شهر كانون الأول سنة ١٩٨٢ إلا أن حالة كلارك تدهورت بشكل سريع مساء الأربعاء وتسارعت دقات قلبه بشكل غير منتظم وراح في غيبوبة عميقة . قرر ديفريز إجراء العملية فوراً بشكل إسعافي في تلك الليلة إلا أن غرفة العمليات رقم ٤ المخصصة لعمليات القلب كانت مشغولة وفيها الطاقم الفني والجراحي الذي يساعد ديفريز في عملياته الجراحية . ومر الوقت بطيئاً ثقيلاً وحالة المريض كلارك تزداد سوءاً . وأخيراً في الساعة العاشرة والنصف من ليلة الأربعاء الأول من كانون الأول سنة ١٩٨٢ بدأت عملية زرع القلب الآلي . وكان ديفريز ومساعدوه في حالة التعقيم الجراحي التام على استعداد لإجراء التداخل الجراحي الاسعافي إذا توقف قلب كلارك عن النبضان أثناء بدء التخدير واستمرت التحضيرات اللازمة للتخدير في حين كان الفنيون يحضرون مضخة القلب والرئة وجارفيك بينهم يتابع تحضير القلب الآلي وصوت الجهاز الالكتروني الذي يتابع دقات قلب كلارك يزيد من توتر الأعصاب وحساسية الموقف . تمت المرحلة الأولى من التخدير بنجاح واستطاع المخدر ناثان بيس Nathan Pace أن يمرر أنبوب التنفس في القصبة الهوائية بأمان تم دون أن يسبب أي ضرر لقلب كلارك المنهك وبعدها بلحظات بدأ صوت جهاز التنفس الآلي الرتيب ليزيد من توتر الموقف . ورغم أن هؤلاء الأطباء والفنيين قد قاموا بمثل هذه الاجراءات مرات عديدة من قبل في عمليات القلب المفتوح وفي عمليات زرع القلب الآلي في حيوانات التجربة إلا أن الموقف هنا يختلف تماماً فهذه أول مرة يقومون بهذه التحضيرات لزرع قلب آلي في صدر إنسان شارف على الوفاة . إنسان يموت الآن بين أيديهم ولا ينقذه شيء من الموت المحتم سوى نجاحهم في زرع هذه الآلة الصغيرة التي لم تختبر في إنسان من قبل . وأخيراً حوالي منتصف الليل بدأ الجراحون عملهم على قلب كلارك واتموا وصله بمضخة القلب والرئة . تنفس ديفريز الصعداء وتابع العملية بهدوء على أنغام موسيقى رافيل Ravel . قطع ديفريز نقطة اللاعودة عندما استأصل البطينين المريضين من قلب كلارك وكانت تلك لحظة حرجة فقد أصبح كلارك الآن بلا قلب وفي حكم الموتى بشكل مؤكد إذا لم ينجح القلب الآلي في عمله . تناول ديفريز القلب الآلي من الممرضة المساعدة وبدأ في خياطة توصيلاته إلى الأذينتين في قلب كلارك وهي خياطة تحتاج إلى كثير من الدقة والهدوء خاصة وأن أنسجة كلارك كانت ضعيفة متهتكة تحت تأثير العلاج الطويل بالكورتيزون . واستمرت الخياطة مدة ساعتين كاملتين وحان الوقت لوصل القلب الآلي بالمنظم إلا أن المضخة اليسرى لم تعمل . ! وساد الموقف شيء من اليأس إلا أن ديفريز لم يفقد الأمل وقام فوراً بتغيير المضخة اليسرى من القلب الآلي بمضخة أخرى مماثلة . ونجحت العملية .

مفاجأة

بعد عملية استمرت طوال الليل نقل كلارك إلى غرفة العناية المشددة في الساعة السابعة من صباح يوم الخميس وهو في حالة جيدة ولا شيء يدعم دوران الدم في جسمه سوى القلب الآلي . وبدا الوضع مبشراً بالأمل فقد تحسن دوران الدم في جسم كلارك إلى حوالي سبعة ليترات في الدقيقة وانتعشت كليتاه وكبده من جديد مع وصول مزيد من الدم إليهما . بلغ التفاؤل مداه بعد حوالي يومين من العملية وقالت زوجة كلارك : «هذه فرصة ثانية للحياة بالنسبة لنا» . وفي ذلك اليوم بالذات ظهرت بوادر انتفاخ في الجانب الأيسر من صدر كلارك ، ولدى دراسة حالته ودراسة الصور الشعاعية تبين أنه يعاني من تجمع الهواء في أنسجة صدره . ما هو مصدر هذا الهواء : هل هو أنابيب الهواء المضغوط التي تصل المنظم بالقلب الآلي ؟ أم هو تسرب من رئتي كلارك ؟ ازداد الانتفاخ بسرعة تنذر بالخطر مما استدعى إجراء عملية جراحية ثانية تبين خلالها أن الهواء الذي سبب الانتفاخ صادر عن ثقوب صغيرة في الرئة اليسرى تم إغلاقها بسرعة وتحمل كلارك هذه العملية الثانية بكفاءة تامة وتحسن بعدها بسرعة بشرت بالتفاؤل من جديد .

مفاجأة غير سارة

مر يومان على إغلاق تسرب الهواء من رئة كلارك الذي كان يتحسن باستمرار وبدأ يسترجع قواه ويلقي بعض التعليقات المرحة . اقتربت الساعة من السادسة صباحاً وكان ديفريز كعادته في غرفة العناية المشددة بجانب سرير كلارك بعد أن قضى ليلته في المستشفى ساهراً على العناية بمريضه العزيز ، وفجأة بينما كان كلارك يتحدث إلى ديفريز انتابته اختلاجات شديدة عمت كافة أنحاء جسمه وراح في غيبوبة عميقة . واستمرت الاختلاجات طيلة ساعات ثلاث رغم الأدوية والعلاجات . الفشل !؟ راود ديفريز شعور مرير بخيبة الأمل فلابد أن سبب هذه الاختلاجات هو جلطة دموية انطلقت من القلب الآلي إلى الدماغ أو نزيف دماغي حاد نتج عن الأدوية المضادة للتخثر التي أعطيت لكلارك كي تمنع تخثر الدم في قلبه الآلي . وكلا الحالتين تعتبر مشكلة خطيرة حصلت مباشرة نتيجة لوجود القلب الآلي . وهذا يعني بدوره فشلاً ذريعاً لهذه المحاولة ومأخذاً هاماً على هذا النموذج من القلب الآلي وتدهوراً خطيراً في حالة كلارك الصحية . إلا أن الدراسات الشعاعية وتخطيط الدماغ أظهرا عدم وجود جلطة أو نزيف في الدماغ . ! وقرر الأطباء آنذاك أن هذه الاختلاجات ما هي إلا نتيجة لاضطراب التوازن الكيميائي في جسم كلارك

زادت من حدته بعض الأدوية التي كان يتعاطاها والتوتر الذي عاناه خلال العمليات الجراحية . ساد الموقف شيء من الحزن واليأس لأن كلارك لم يسترجع كامل وعيه بعد تمام السيطرة على الاختلاجات إنما راح في حالة بين السبات واليقظة تنذر باحتمال حدوث ضرر بالغ بدماغه .

الفشـــل !

استمر كلارك على حالته السيئة طيلة اسبوع كامل دون تحسن يذكر في حالة وعيه . ورغم هذه الحالة المتأزمة فقد كان فيها بعض الأمل فقد أثبت القلب الآلي حتى الآن جدارته في دعم دوران الدم في جسم كلارك خلال الاجهـاد الكبير الذي تعرض له أثناء الاختلاجات ورغم سوء حالة كلارك الصحية بشكل عام . إلا أن القدر لم يترك للأطباء في جامعة يوتا حتى هذا الشعور الحق بالنجاح المتواضع ! ففي اليوم الرابع عشر من شهر كانون الأول وبعد مرور اسبوعين على زرع القلب الآلي تدهورت حالة كلارك بشكل مفاجيء خطير وانخفض ضغط دمه الى حالة متردية تنذر بالوفاة . ومن جديد اندفع الأطباء مع كلارك الى غرفة العمليات . ولدى إجراء العملية الجراحية الثالثة تبين ديفريز أن سبب المشكلة هذه المرة هو فشل أحد الصمامات في المضخة اليسرى من القلب الآلي . فقد انفصلت بعض أجزاء هذا الصمام تحت تأثير الضغط المتواتر في القلب الآلي . وسمح انكسار هذا الصمام بضخ الدم في اتجاه معاكس مما أدى الى فشل القلب الآلي في دعم دوران الدم في جسم كلارك . ومرة أخرى قام ديفريز باستبدال المضخة اليسرى من القلب الآلي بمضخة جديدة مماثلة . ومن جديد عاد كلارك الى التحسن بعد هذه العملية الثالثة .

النجـــــاح

جلس كلارك على كرسي مريح بجانب سريره في غرفة العناية المشددة وهو يتناول وجبة طعامه . لقد مر وقت طويل منذ أن تناول آخر وجبة طعام حقيقية . حوالي شهر كامل على وجه التحديد منذ أن زرع القلب الآلي في صدره في تلك الليلة التي رأى فيها شبح الموت وطافت على وجهه المتعب ابتسامة خفية . لم يكن يدور في خلده قط ولا حتى في أكثر أحلامه تطرفاً وجنوحاً أنه سيحيا ذات يوم وفي صدره قلب آلي . آلة صماء خالية من الحياة والشعور تقوم بعملها بدقة وانتظام وصوتها الرتيب المبهم يذكره بوجودها في كل لحظة من لحظات حياته . ونظر إلى الانبوب الطويل الذي يمتد من صدره إلى المنظم الذي يقبع بجانب سريره صامتاً بارداً ومن خلفه أنابيب الهواء المضغوط التي تمد قلبه الآلي بقوة الحياة .. ! هذا هو قلبه الحقيقي .. ! إنه يكمن الآن خارج جسده في هذا الصندوق الصغير الذي ينظم دفقات الهواء المضغوط إلى قلبه الآلي . وهذا الانبوب الذي يصله بالمنظم هو خيط الحياة . ! فهو يعتمد الآن في حياته على هذا الانبوب مثلما يعتمد الجنين على الحبل السري الذي يصله برحم الأم لا يستطيع عنه انفكاكاً ولا فصلاً . لقد اتحد الآن في حياته مع هذه الآلة الصماء .. إنما لا بأس فلاشك بأن مجرد وجوده الآن على قيد الحياة أشبه بالمعجزة . كما أنهم قد أخبروه بأنه ربما يغادر المستشفى حالما تتم الاستعدادات اللازمة لتجهيز بيته بالهواء المضغوط والمعدات وأجـــهزة الانـــذار والاسعاف . بل وأنهم يقومون بإجراء بحث مكثف وسريع بالتعاون مع خبرات المانية لتصغير حجم منظم القلب وجعله خفيف الوزن بحيث يمكنه حمله والتجول به وبذا يتمكن من تحرير حركته . وأن هذه الأبحاث تسير الآن في تقدم حثيث بعد أن أمدها المتبرعون بالأموال اللازمة إثر انتشار الأخبار المشجعة عن حالته .

إنه مغامر شجاع يعيش في رحلة [illegible] بالغة التأثير على حياته وحياة الآخرين . قال صديقه بسرور واضح في حين قام ديفريز وأولاده السبعة بالغناء في غرفة كلارك في وحدة العناية المشددة واحتفلوا مع عائلته على أنغام أغاني أعياد الميلاد التي أعادت إلى ذاكرته أيام الطفولة والشباب . كانت هذه الفترة من أسعد لحظات حياته مع قلبه الآلي لأن حالته عادت بعدها الى التدهور البطيء . ورغم أن قلبه الآلي مازال يقوم بعمله بكفاءة وأمان إلا أن بقية أعضاء جسمه وخاصة دماغه ورئتيه مازالت تعاني من آثار سنين المرض الطويلة . إلا أنه مازال على قيد الحياة . ومازال في إصراره بقية من قدرة دفعته إلى القول بصوت ضعيف متهدج : لا تيأسوا .. قالها للعالم الجليل كولف الذي قضى عمره متأرجحاً بين اليأس والأمل في الطريق نحو تطويع الآلة في خدمة الانسان .

وهكذا دخل بارني كلارك التاريخ كأول انسان يعيش بقلب آلي . ورغم أن عملية زرع القلب الآلي كانت قد أجريت على الانسان من قبل في سنة ١٩٦٩ . ومرة أخرى في صيف سنة ١٩٨١ إلا أن تلك العمليات أجريت بهدف المحافظة على حياة المريض بشكل قصير مؤقت حتى تتاح الفرصة المناسبة لزرع القلب الطبيعي . في حين أن القلب الآلي الذي زرع في صدر كلارك يمثل الطريقة الوحيدة في العلاج وقد زرع هذا القلب للمحافظة على حياة المريض طوال الفترة المتبقية من عمره . عاش المريض الأول ٦٤ ساعة في حين عاش المريض الثاني ٤٨ ساعة فقط بعد زرع القلب الآلي . ولم ينجح زرع القلب الطبيعي بعدها لدى أي منهما .

توفي بارني كلارك بعد حوالي ثلاثة شهور من زرع القلب الآلي . ليس بسبب فشل هذا القلب وإنما بسبب تدهور حالة بقية أعضاء جسمه وكانت النهاية إثر حصول نزيف شديد في الأمعاء وحدوث الالتهابات الجرثومية في الرئتين . وقد تم زرع القلب الآلي بعده لدى ستة مرضى آخرين مازال اثنان منهم فقط على قيد الحياة . وقد عانى كلاهما من الجلطات الدماغية التي سببت تدهوراً شديداً في حالتهما الصحية والعقلية . وهكذا فمازال القلب الآلي يعتبر في بدايات سيره كما تعثرت كثير من اختراعات الانسان في اختباراتها الأولية . ومازلنا نذكر مصاعب الطيران والصواريخ في أوائل هذا القرن ولننظر الآن أين وصل الانسان في تطوير هذه الآلات .. ولننظر إلى القلب الآلي بعين الأمل والمستقبل كما نظر ذلك المريض الذي دخل التاريخ .

أثبت بارني كلارك وفريق الجراحين والعلماء في جامعة يوتا إمكانية نجاح القلب الآلي في دعم دوران الدم في الجسم . ورغم أن تصميم هذا القلب الآلي قد تم على يد الخبراء في جامعة يوتا الأمريكية . فقد تضافرت في تصميمه جهود علماء كثر من كافة أنحاء العالم في إضافات مستمرة على مر الزمن كما هو شأن بقية علوم الانسان .. فقد تراكمت المعلومات والخبرات دون تمييز في مصدرها بين قومية أو دين أو عرق أو حضارة أو دولة ... فالعلم الانساني ليس ملكاً لأية دولة أو حضارة بل هو نتيجة لجهود البشر في كل زمان ومكان . ورغم أن زرع أول قلب آلي في صدر انسان قد تم في الولايات المتحدة الأمريكية فقد كان وراء هذا الانجاز العلمي الهام جهود ساهم فيها ابن النفيس العربي وهارفي الانجليزي وكاريل الفرنسي وليندبرج الألماني وإيك الروسي وستار الأمريكي وكولف الهولندي وأكوتسو الياباني وسلسلة طويلة من الأطباء والمهندسين والعلماء الذين درسوا وظائف القلب ودوران الدم ودرسوا الخواص الفيزيائية والحيوية للمواد وصمموا مضخات وصمامات عديدة وقاموا بتجارب لا حصر لها .. ولم تكن عملية زرع القلب الآلي التي تمت في جامعة يوتا في أواخر عام ١٩٨٢ إلا خطوة أخرى ناجحة .

عـــامر شيخوني

وَأُنَقِّي قَمْحِي مِنْ رَمْلِ الوَزْنِ

شعر: محمد القيسي

وأُنَقِّي قمحي مِنْ رَمْلِ الوَزْنِ . أُنقّي الهَوْدَجَ والرُمحَ ، لِيَسْرَحَ في بَهوِ الفَلَواتِ غزالاً . أو مَوجاً يَتَشكَّلُ في هَدْهَدَةِ نخيلٍ يبتعدُ ، أُنقّيه فلا يَلتقطُ سنابلَهُ الطيرُ أُنقّي قمحي إلاّ ما فَلَتَ هُنا وهُنالكَ رَغْماً عنّي وأَنا أَعبرُ أنفاقاً غامضةً ، أو أَصعدُ جَبَلَ النَّرجسِ . في مَطْلَعِ هذي الزَفرةِ . أو خَلَلِ صُراخي في بَرِّ اللُّغةِ المُوحشَةِ حَناناً كالقتلِ . فلي ميزاني .

أَسْلَمتُ قيادي للكلماتِ تُلوِّحُ بي دونَ عَروضٍ أو سَقْفٍ رَسميٍّ . وتُطوِّحُني . تُسرجُني برنينِ قبائلِ روحي الخاسرةِ . وتلقيني في الأَبيضِ طفلاً لم ينطقْ بعدُ أمامَ بكارةِ مخلوقاتي الأُولى . حيث يُتاحُ فضاءٌ آخرُ لي . تتشابكُ فيه خُيوطٌ شَتّى وأَراني

فوقَ جسورٍ عائمةٍ تتحَرّكُ بي ، فأُجيزُ لها حُريةَ أنْ تَقلَعَ أَو تزرعَ ، أو تنسابَ كموسيقى أو طيرٍ بَحريٍّ ، قلتُ لها أَيَّتها الفوضى المَوزونةُ كوني ، أَيّتها الطُرُقاتُ الملغومةُ بالوردِ أجيريني ياكلماتُ لقد جُعتُ وَطَوَّفتُ قُراكِ ، وضعتُ على أَطرافِ صَحاريكِ ، هَجعْتُ ولم أَنطقْ بعدُ بمعجزةٍ ، في حَضرتكِ نَزَفتُ وفصَّلتُ دَمي آنيةً وَحريراً ليقيني حَرَّ الهاجرةِ . طَويلاً عُذْتُ مِنَ العُزلةِ ، مِنْ شرِّ الصَمتِ ، بفاكهةٍ من نارٍ ، وأَعوذُ بكِ الآنَ ، لِيخرجَ عنترةُ رشيقاً ومُعافى كالأُغنيةِ البيضاءِ العاريةِ ، كما الأعشابِ بلا وزنٍ ، تتهادى كالطعنةِ كالقبلة تخطفُ كالقُبلةِ أَلواني

ها أَنَذا أُسلكُ هذا الوَعْرَ العَشقيَّ إليكِ ،
فلم يبقَ على رَفْرافِ البيتِ سوى خمسِ حماماتٍ وبريدٍ لا يأتي ، وعَرفتُ فَلا ملجأً لي . قُلتُ أَجيءُ وأَقطفُ ما لا يُقطَفُ مِنْ أثماري الحجريّةِ . هُمْ مالوا برقابٍ يابسةٍ وَدَعوني لِلرَمْضاءِ . دَعوني ثانيةً للأَسفارِ . دعوني

في جمهوريةِ هذا الوَلَهِ الدافقِ . أُنشدُ وأُصدِّرُ أَقواساً وبَيَاناتٍ لا تَصِلُ إلى أُحدٍ ، وهُرِعْتُ إلى النهرِ فما بلَّ جفَافي ، وَوَصلتُ إلى كَرمٍ ، فَاسْتَيقَظَ مِنْ غفوتهِ ، الحارسُ وَرَماني

لم أَقْطِفْ مِنْ ثمرِ الكرمِ سَفَرْجَلَةً واحدةً ، كُنتُ إذنْ أَتأَملُ روحَ الأَشجارِ وصبوتها ، أُهمسُ في وحدتها المتأَلقةِ بما يُوجعُ مِنْ أَسرارِ الكونِ ، وأَنتظرُ يديكِ . فما هَطَلَ الغَيمُ . وَلا هَدأَتْ قُطعاني

وَوَحيداً ظَلّتُ أَجولُ ، وَحيداً عَنترةُ يُغنّي ، وَيجُودُ في السَّهمِ ، وَحيداً ينتظرُ جواداً وَيَداً لِيَفكَّ غُبارَ الصَدْرِ ، وَيمسحَ ما عَلِقَ به مِنْ طينِ سُلالتهِ الغاربةِ ، وما طوّقَ دمعتَه مِنْ همٍّ وسَلاسِلَ ، والهَودجُ ينأى ، القافلةُ تهومُ في مَلكوتِ الريحِ ، وَينأى في الأَسرِ حصاني

وَوَصلتُ إلى هذا الطقسِ ، فأَطْلَقتُ لِساني .
وَأَردْتُ حَصَاداً مُختلِفاً . وأَردتُ لِعبلةَ ميلاداً آخرَ ، فأَقمتُ الأَعراسَ . وَشَاعتْ في الخَلقِ أَناشيدي الملتاعةُ قالوا كيف يجوزُ خروجُ العبدِ على سيّدِه . كيف تؤولُ الى يَدِهِ مُلكيّةُ أَنْ يَحلُمَ بالهَودجِ وَيغنّي ! تلك بدايةُ رُمحي . أَوّلُ خيطٍ لوَّنَ ظُلماتي وَدَعاني

كَيما أَنثرَ روحي أَمواجاً . وأُحرِّرَ خُطُواتي من وَعْثاءِ السَفرِ المألوفِ . أُنقّلَ موتي في إيقاعٍ لا بحرَ له . وكما يحلو للصرخةِ والأَنّةِ أَنْ تمتزجا دونَ رباطٍ ، أو تَشْتَجرا في وَهَجِ التَجربةِ غسلتُ يَدي مِمّا كَانَ وَسوَّاني .

وَخَرجتُ إلى مَا سَيكونُ ، خَرجتُ إليَّ ، أَمامَ عيونِ الأشهادِ ، فها هيَ عَبلةُ ، ها هَودجُها يَنهضُ ، وَيضوعُ عَراراً في الأَنحاءِ ، وَهاأَنذا عَنترةُ الثاني .

تونس

السلطان عبد الحميد امام محكمة التاريخ

بقلم: فتحي رضوان

لا يزال العرب بحاجة إلى الوقوف طويلاً أمام تاريخ السلطان عبد الحميد ، الخليفة العثماني ، الذى شغل الناس فى أوربا ، وفى آسيا ، وربما فى أمريكا بما فعل ، وبما نسب إليه عن حق وعن حقد ، وبعلم وبعد درس ، وبجهل سوغ لكثيرين أن يتحاملوا على (عبد الحميد الثانى) ويتنافسوا فى رسم صورة له ، لعلها أقبح مارسم لرجل ولحاكم .

وحاجة العرب الى هذه الوقفات ، ان صورة عبد الحميد التى انطبعت فى أذهانهم ، واستقرت فى وجدانهم ، لايقف أثرها على (عبد الحميد) السلطان والخليفة وحده ، بل تجاوزته الى الدولة الضخمة التى قادها زمنا غير قصير ، ثم تجاوزت الدولة العثمانية ، الى الأمة العربية ، ثم تجاوزت هذا كله الى العرب أنفسهم والمسلمين قاطبة . فقد اعتبر عبدالحميد رمزا على العرب والترك والمسلمين ، وعد تاريخه تاريخ هؤلاء جميعاً فى الفترة التى امتدت من سنة ١٨٧٥ الى سنة ١٩٠٩ حين عزل هذا السلطان من عرشه ، بعد أن ثار عليه الجيش التركى فى يوليو سنة ١٩٠٨ .

ولابد لنا أن نقول إن السلطان عبدالحميد تولى الحكم فى بلاده فى فترة كانت فيها الدول الاستعمارية تتزعمها انجلترا وفرنسا ، وتليهما ألمانيا وايطاليا ، وتتبعهما بلجيكا وهولندا ، ثم اسبانيا والبرتغال ، قد قررت أن تهجم هجمتها الكاسحة للشرق الأقصى ، وللشرق الاسلامى ، وللشرق العربى ، وكانت هذه الدول فعلت كل مافى وسعها ، تمهيداً لهذه الهجمة ، وتوسيعاً لنطاقها ، وتعميقاً لآثارها ، فقد أطلقت سفراءها وقناصلها ، ومعاهد للتعليم ، ومراكز للبحوث وشركات ضخمة للتجارة ، وجواسيس فى شكل علماء ، وفى زى ساسة ، وفى صورة مراسلى صحف . وكانت غاية هذه الجماعات المتعددة ، والمتنوعة ، هي زرع كل أسباب الفتنة ، وكل دواعى الضعف ، وكل أجواء التحلل والتفكك ولذلك كان لابد أن يكون رجلاً على رأس أكبر دولة غير أوربية تقع فى أعلى بقعة من الأرض بين أوربا وآسيا ، وفى طريق أخطر خطوط الملاحة هدفاً لحملات الغرب الضارية ، لتحرمه من كل فضيلة ، ولتلصق به كل رذيلة ، ليخرج شيطانا ، وسفاكا للدماء ، وملاكا للموت بأنواعه ووسائله : الخنق والشنق ، والحرق ، حتى امتلأ البوسفور بضحاياه ، وسد بعظام قتلاه وجثثهم .

وتهيؤ الاستعمار للانقضاض على الشرق كله : الشرق الاسلامى والشرق البوذى والبرهمى ، والكونفوشيوسى ، تحول الى انقضاض كامل وغزو تام ، فبريطانيا بعد أن أخمدت ثورة الهنود المغول فيما بين سنتى ١٨٥٧ ـ ١٨٥٨ ، التى كادت تنتزع الحكم البريطانى من أساسه ، انطلقت الجيوش البريطانية كالاعصار تكتسح أمامها الهنود كأعواد القصب ، وتقتل الآلاف ، وتذبح الرجال والأطفال والنساء ، وتدمر وتحرق ، ولم يعد للمسلمين الهنود حاكم يدعون له فى مساجدهم بعد صلواتهم فى أعيادهم ، فاتجهوا الى الخليفة العثمانى ، وفى نفس الوقت غزا الروس القياصرة طشقند وسمرقند سنة ١٨٦٨ ، وأحالوا إمارة بخارى الى دويلة صغيرة لاحول لها ولاقوة ، اضطرت الى أن تدور فى فلك الامبراطورية الروسية ، وجاءت الحرب الروسية التركية فى سنة ١٨٧٧ ـ ١٨٧٨ ، فهددت وجود الدولة العثمانية إذ وصلت جيوش القيصر الروسى حتى حدود استانبول ، ثم ازداد الخطب وعمت المصيبة

فاستولت فرنسا على تونس سنة ١٨٨١ وأعلنت عليها حمايتها ، ثم دخلت جيوش بريطانيا القاهرة فى ١٤ سبتمبر ١٨٨٢ .

فى هذا الجو الملىء بالشعور بالهزيمة والضعف ، والاحساس بالأخطار المحدقة بدولة تركيا ، جاء السلطان عبدالحميد ليرتقى عرش بلاده ، وكان عليه أن يمسك بأطراف ملك يتفكك ، وتنحل أواصره ، ويحمى دولة يود مئات الأعداء أن يستولوا عليها ويلتهموها أشلاء .

ولذلك كان مما يكمل الخطة الموضوعة ، أن تشتد الحملات على رأس هذه الدولة التعسة التى أفل نجمها ، وانحدرت من عز وصولة الى الغروب . وفى وجه هذه الرياح العاصفة وقف السلطان عبدالحميد ، يحاول أن يعمر فى الداخل وأن يحمى الذمار فى الخارج .

ولم يكن ممكنا وسط إعصار هذا الغزو الجامح أن يذكر لرأس الدولة العثمانية أعظم أمبراطورية شرقية عرفها العالم ، واستمرت سداً فى وجه السيل المكتسح ، فضل واحد ، ولكن فى السنوات الأخيرة ظهر من المؤرخين الغربيين من اعترف بما أسداه السلطان عبدالحميد لبني قومه .

وقد ذكر الأستاذ الدكتور عبدالعزيز محمد الشناوى فى موسوعته التاريخية العظيمة الموسومة باسم « الدولة العثمانية دولة مفترى عليها » . وأسمى مؤرخين معاصرين أنصفا السلطان عبدالحميد وهما ستانفور شو وزوجته ايزال كوراك فى كتابهما تاريخ الامبراطورية العثمانية وتركيا الحديثة ، الذى أتبعاه بكتاب آخر عنوانه الاصلاح والثورة والجمهورية ، نشوء تركيا الحديثة .

وهناك مؤرخ اسمه برنارد لويس الذى ألف كتابه المعنون (ظهور الدولة التركية الحديثة)

هذان المؤرخان الغربيان ومعهما مؤرخون عرب فى مقدمتهم الاستاذ الدكتور عبدالعزيز محمد الشناوى ، سردوا مآثر ومناقب السلطان المغبون عبدالحميد الثانى ، ونحن ننقل عن هؤلاء بعض ماأسداه هذا الحاكم المظلوم ، ليعرف جيلنا بعض الذى نهض به ، وأداه هذا

السلطان عبد الحميد

الرجل الذى رفض فى إباء وتصميم ، أن يسمح لحركة الاستيطان الصهيونية أن تتسلل الى فلسطين العربية ، وقد أشرت الى موقفه هذا فى مقال بالدوحة .

كان التعليم أول ماشغل بال السلطان عبدالحميد رحمه الله وغفر له ، وكان ذلك منه فطنة وبعد نظر وحسن تقدير ، فالأمة التى تريد أن تنهض لابد أن تتسلح بالعلم وان تلتمسه فى جميع مظانه وتنفق عليه الشيء الكثير من الجهد والمال ، فالتعليم هو السبيل للقوة والنظام ، ولإصلاح أداة الحكم ، ولتهيئة الشعب للرقابة الصالحة المستنيرة للحكام ، ولاستنباط موارد جديدة للدولة ، ولاحسان استغلال مواردها القديمة .. الى آخر مايعرفه كل عاقل فى هذه الدنيا ، وكل داع للاصلاح ، وكل حريص على مصلحة أمته وذويه .

إهتم السلطان عبدالحميد بايجاد توازن بين التعليم العسكرى والتعليم المدنى ، فأنشأ كليات ومدارس عليا ومعاهد فنية لتخريج رصيد بشرى من ذوي الخبرة يهتمون بالنهوض بالدولة ، مع اهتمامه فى ذات الوقت بالتعليم العسكرى والمعاهد العسكرية (١) .

ومنذ سنة ١٨٧٧ ، أى السنة التالية لارتقائه العرش بدأ بالمدرسة الملكية وهى أول مدرسة ملكية (أى مدنية غير عسكرية) أنشأتها الدولة سنة ١٨٥٩ فى عهد السلطان عبدالمجيد ، فأعاد عبدالحميد تنظيم هذه المدرسة وأضاف الى مناهجها التقليدية القديمة مناهج حديثة وفتح أبوابها للطلبة ، الوافدين من الأقاليم العثمانية غير التركية كالبلاد العربية مثلا والبلاد الأوربية الواقعة فى شرق تركيا .

وقد قفز عدد خريجى هذه المدرسة من ٣٣ الى ٣٩٥ فى عهد عبدالحميد .

ومن المدارس العليا التى أنشأها عبد الحميد : المدرسة السلطانية للشئون المالية ومدرسة الحقوق أو مكتب الحقوق الشاهانى الذى كان يعرف باسم (مكتبى حقوق شاهانى) ومدرسة الفنون الجميلة سنة ١٨٧٨ ، والتجارة سنة ١٨٨٢ ، والهندسة المدنية سنة ١٨٨٤ ، والطب البيطرى سنة ١٨٨٩ ، والشرطة سنة ١٨٩١ ، والجمارك سنة ١٨٩٢ ومدرسة طب حديثة يعلم فيها أساتذة كبار غربيون من كل دولة كبريطانيا وألمانيا وفرنسا سنة ١٨٩٨ . وقد توج عبدالحميد نشاطه الواسع فى مجال التعليم بانشاء جامعة استانبول ، وكان مشروع الجامعة ، أملاً قوميا فى تركيا ابتداء من سنة ١٨٤٥ ، وقد درس هذا المشروع فى عهد عبدالحميد دراسة طويلة ، تناول كل جوانب المشروع الفنية والعلمية والمالية والادارية ، وبدأ عملها النافع والمؤثر فى أغسطس (آب) سنة ١٩٠٠ ، وكانت تتبع وزارة المعارف التى كانت تعرف بالتركية باسم (معارف عمومى نظارتى) . وقد ضمت هذه الجامعة أربع كليات فى مقدمتها كلية للعلوم الدينية العالية من فقه وتفسير وحديث وأصول دين فى حين كانت كلية الآداب تدرس اللغات التركية والعربية والفارسية والفرنسية وآداب هذه اللغات ، والتاريخ العام ، والتاريخ التركى ، والى جانب هاتين الكليتين قامت كليتا العلوم وشعبتان للرياضة والعلوم الطبيعية ، وكانت جامعة استانبول أول جامعة تنشأ فى العالم الأسلامى .

وكان لابد لهذه النهضة الشاملة فى مجال

السلطان عبدالحميد
أمام محكمة التاريخ

التعليم أن تؤسس على المعلم التركي العالم بأصول التربية الحديثة فأنشئت لذلك دور للمعلمين . وكان واجبا كذلك توفير مورد مالى دائم للانفاق منه على مختلف المعاهد والكليات والمدارس التى زاد عددها وتعددت درجاتها . ففرض عبدالحميد ضريبة خصص حصيلتها لهذا الغرض السامى . ولم يفرق عبدالحميد بين التعليم المدنى واقامة جامعة ودور للمعلمين مع الاكثار من المدارس الثانوية التى هى العمود الفقرى للتعليم فى كل بلد . عن التعليم العسكرى ، فقد أنشأ كليات حربية على الطراز الحديث فى مدن أدرنة ومناستر ودمشق وبغداد وغيرها من المدن الكبيرة المنتشرة فى أنحاء الامبراطورية المترامية الآفاق كما أنشأ مدارس للبحرية العسكرية والبحرية التجارية . وكانت المدارس الحربية ، مدارس للعلم المدنى نفسه فقد كانت هناك مدرسة للهندسة العسكرية والطب العسكرى ، وخريجو هذه المدارس كانوا علماء يساهمون فى الجهودات المبذولة لبناء الدولة وتنميتها روحيا وماديا .

والطريف الذى يجب أن يسجل لعهد عبد الحميد الذى رمى بالتعصب الشديد وكراهية أبناء الأديان الأخرى والجاليات غير المسلمة ، أنه فتح أبواب المدارس العسكرية للمواطنين العثمانيين غير المسلمين ، فكان من هؤلاء الخريجين يهوداً ، ويونانيين ، وأرمن ، وكانت بين تركيا وهذه الجاليات خصومات أفضت الى مذابح دبرها وعمل لها وهيأ أسبابها الاستعمار الغربى الأمر الذى سنشير إليه فى حديث تال بإذن الله .

أما المكتبات العامة فقد انتشرت فى أنحاء الامبراطورية ، فكانت معاهد مكملة للمدارس والكليات كما امتلأت بالكتب بكل اللغات القديمة والحديثة من انجليزية وفرنسية وألمانية وايطالية وقد أظهرت الاحصاءات أن أكثر هذه المكتبات كان مزدحماً بالرواد من طالبى العلم وواضعى الرسالات الجامعية والبحوث العلمية ، وطالبى الثقافة العامة .

وفى هذا الموضع يجب أن يذكر هنا اسم سياسى تركى وصل الى أعلى سدة للحكم ، وهى رياسة الوزارة التى كان يسمى شاغلها باسم (الصدر الأعظم) أربع مرات ، ذلك هو كوجوك سعيد ، وكان محمد سعيد باشا هذا مصلحاً نشيطا ، وصل الى رياسة الوزراء كما قلنا . وكان وصوله لهذا المكان الخطير لأول مرة فى أكتوبر (تشرين أول) سنة ١٨٧٩ .

ولم يكتف بالسلطة يسخرها للاصلاح ونشر التعليم ، وشق الطرق ، واقامة المبانى العامة واصلاح قوانين الادارة . وقد وضع الرسائل داعيا الى رعاية ثلاثة مرافق يراها أساس الملك ، وقاعدة السلطان هى التعليم والقضاء والمال .

وقد شرع عبدالحميد يتأثر خطى هذا المصلح ، فنجح نجاحا باهرا فى مجال التعليم كما سبق القول ، وشرع يصلح المحاكم ، ويسعى فى تخريج قضاة درسوا القانون ، وعرفوا الشريعة ، وتهيأوا لأداء مهمة القضاء الثقيلة ، ولكن الدول الأجنبية أصرت على التمسك بامتيازاتها القضائية التى منحها السلطان التركى أول مامنحها لرعاية الفرنسيين تبعا لطلب الملك فرانسوا الأول وكانت مقصورة فى البداية للتجار التابعين لهذا الملك . ولكن مالبثت الدول الغربية ان جعلت من تلك الامتيازات قيداً فى عنق الدولة التركية ، وغلا فى أقدامها ، وقد حال ذلك بعض الاصلاح القضائى المرجو لكى تبقى الدولة العثمانية متعثرة فى خطاها نحو الاصلاح المنشود .

وقد كان تعدد الجهات التى تتبعها المحاكم من عيوب النظام القضائى التركى فى عهد عبد الحميد ، وعهد الذين خلفوه حتى قام الحكم الكمالى بقيادة أتاتورك وألغى الامتيازات ، فقد كانت المحاكم الملية التى تفصل فيما عرف بالأحوال الشخصية تابعة لوزارة الخارجية ثم اتبعت لرئيس الوزراء (أى الصدر الأعظم) وذلك لحساسية ماتتعرض له هذه المحاكم فى بعض القضايا وإن بدا أن قضاياها قليلة الشأن لأنها تدور أصلاً حول الزواج والطلاق ونفقات الزوجات والمطلقات والأولاد ، ولكنها كانت تنظر أيضا فى الوصايا والأوقاف ، وبعض المنازعات .

وقد عرفت مصر ــ وعدد من الدول العربية ــ نظام الأقليات الأجنبية وعانت منه معاناة شديدة . ومع ذلك كان الاحتلال البريطانى يشكو منها أيضا لأنها كانت تتيح لعدد من الدول الأجنبية أن تعترض على بعض التشريعات التى يود المحتلون فرضها لصلحتهم . ولذلك كان الانجليز يضغطون على بعض الحكومات المصرية لتطلب إلغاء الامتيازات ، ولكن حزب مصطفى كامل فطن الى مايسعى له الاحتلال البريطانى فرفض الدعوة لالغائها إلاّ مع الجلاء البريطانى . ولذلك ماكاد المصريون يقبلون توقيع معاهدة مع الاحتلال البريطانى سنة ١٩٣٦ حتى كان من أول شروطها أن تساعد بريطانيا مصر فى الحصول على معاهدة مع الدول صاحبة الامتياز فى مصر لالغاء الحكم فى عهد عبدالحميد على هذه الجوانب الفكرية والروحية من تعليم وثقافة بل اتجه الى مايسمى اليوم بالبنية الأساسية للدولة ، يعنى السكك الحديدية ، والمواصلات السلكية واللاسلكية والقناطر والجسور ، وقد حقق فى هذا المجال عهد عبد الحميد تقدماً غير قليل .

ولكن لعل أهم مافعله السلطان عبد الحميد ، هو اصداره دستور سنة ١٨٧٦ فى الثالث والعشرين من ديسمبر (كانون أول) ويسمى هذا الدستور عند الأتراك (المشروطة) لكن روسيا أعلنت الحرب على تركيا فى فبراير ١٨٧٨ ، وقد توالت هزائم تركيا ، فأوقف السلطان هذا الدستور ، فى ١٤ من فبراير شباط ١٨٧٨ ، أى عقب الحرب الروسية التركية ولكن هذا حديث آخر ــ نعود اليه فى حديث تال باذن الله .

فتحى رضوان

هامش

(١) الأستاذ عبد العزيز الشناوى ص١١٥٨

قصيدتان

شعر: كمال نشأت

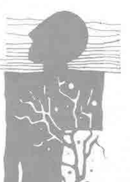
القطيطة والعجوز

تسكعت أشعة الشمس
ورقدت قطيطة نحيلةٌ
إلى جوار بابْ
والباعة الذين يزعقونَ
والحوار.. والسبابْ
وكان يمشي..
حاملا رجليه..
في عينيه..
دمعةٌ يابسةٌ
وحفنةٌ من العذابْ
أولاده
تشردوا في المدن البعيدة الكثيبة الضبابْ
وزوجه
لمّا تعدْ تلقاهُ عند البابْ
وحينما استراح فوق حافة الرصيفْ
تقدمت قطيطةٌ نحيلةٌ
قاسمها بقيةَ الرغيفْ



في المطار

وازدحم المطارْ
الناس في انتظارْ
القلق الذي ينفسونه ثرثرةً
قد انتهى
ونام بعضهم مفتّح العيونْ
وقام بعضهم
يسأل.. والسؤالْ
يُسأل بعد حينْ
والطائرة
قد أعلنوا غيابها
للواحده
وأنت والسيجارة العشرونْ
ترقبُ مجنونْ
للواحده...



كان « س . ص » رجلا جادا متزمتا ، يسكن مدينة مزدحمة ، ويمتلك سيارة حديثة ، ويعمل مديرا باحدى الادارات الحكومية ، ويعيش مع عائلته الصغيرة في رفاهية معقولة .. لكن زوجته ماتت وهو في سن الأربعين ، وتركت له أطفالا لم يتجاوز أكبرهم الرابعة عشرة، فزادت أعباؤه وهمومه بين عمله وبيته ، وذات يوم حدثت مشادة حامية بينه وبين أحد مرؤوسيه ، وبعد أن خرج المرؤوس ، دخل آخر ليجد « س . ص » بين الموت والحياة ، وتبين فيما بعد أنه قد أصيب « برصاصة » أحدثت له نزيفا في مخه ، ومن هنا تبدأ التحريات .. فمن الذى قتله ؟ ..



احذر القاتل الصامت وعملاءه!

بقلم : د . عبدالمحسن صالح

ان قصة « س . ص » تتكرر يوميا بطريقة أو بأخرى ، وهو ـ بلاشك ـ ضحية من ملايين الضحايا .. ضحية لقاتل صامت قد يزوره فجأة فيقتله أو يصيبه بالشلل ، لكن القاتل يأتيه هذه المرة من داخله .. أما « الرصاصة » التى أحدثت النزيف فهى ارتفاع ضغط الدم !

لكن ارتفاع ضغط الدم لايقتل عن طريق المخ فحسب ، بل تمتد يده الآثمة الى القلب فينهكه ، والى الكلية فيحدث فيها فشلا كلويا يعانى منه الملايين .. لكن المصيبة أن كل هذا وغيره قد يحدث دون أن يحس الضحية أنه مصاب بارتفاع ضغط الدم !

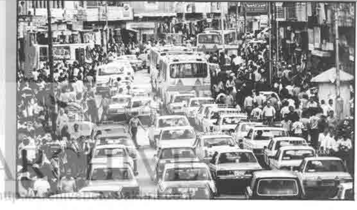
أذكر منذ ست سنوات أننى كنت فى زيارة لأخى ، وقضيت الليل عنده ، وفى الصباح كان كل شىء هادئا ومريحا وعاديا ، وبعد الافطار ، تمددت لأحتسى فنجانا من القهوة ، وأدخن سيجارة ، وفى أثناء ذلك أحسست كأنما هناك خناجر تتحرك فى صدرى ، وأسرع أخى باستدعاء طبيب ، فوجد نبضى مرتفعا ، وضغطى عاليا على غير العادة ، ورسم القلب يشير الى حدوث جلطة فى أحد شرايينه (كانت الثانية حتى ذلك اليوم) ، ولقد تأكد ذلك عندما أدخلونى حجرة العناية المركزة لأقضى بها تسعة أيام .

الغريب أننى لم أكن أشكو اطلاقا من ارتفاع ضغط الدم ، ولا كذلك أشارت اليه أية فحوص سابقة ، كما أن ارتفاعه الفجائى كان غير محسوس عندى ـ انما جاءنى الاحساس عندما انطلقت « رصاصته » الخفية الى القلب لتقاوم النبض وضخ الدم ، وكان من الممكن أيضا أن تطيش أخرى فى المخ ، لكن الله سلم !

ليس معنى ذلك أن كل من ارتفع ضغط



شكل (١) جلست هذه السيدة الى جهاز ضغط الدم الذى زودت به الأماكن العامة ، ليقيس لها ضغطها بعد ان تضع فيه نصف دولار . فالأمريكيون أكثر شعوب العالم ارتفاعا فى ضغط الدم .



شكل (٢) فى مثل هذا الزحام تتوتر الأعصاب ، خاصة اذا كان الانسان على موعد هام ، أو ممن يواظبون على الذهاب الى أعمالهم فى مواعيد مضبوطة ، أضف الى ذلك أن كثرة استخدام السيارة يزيد الخمول فى الدورة الدموية ويساعد على ترسيب الكولسترول فى الشرايين

دمه يصاب بجلطة فى القلب ، أو نزيف فى المخ ، أو فشل فى الكلى .. الخ ، بل يعنى أن حدوث هذه الأعراض قد تكون أكثر احتمالا فى وجود هذا الضغط عنه فيمن كان ضغطهم معتدلا .

احصائيات مخيفة

ولاشك أن معظمنا يعرف المعدلات الطبيعية لضغط الدم ، وكيف يقاس بجهاز الضغط .. ان هذا المعدل المضبوط يقع فى أغلب الأحيان عند ١٢٠/٨٠ ــ فالرقم الأول يشير الى الضغط أثناء انقباض عضلة القلب ودفع الدم خلال الشرايين ، والثانى يوضح الضغط عند انبساط العضلة تماما ، ومن الميسور قياس ذلك بنفسك بأجهزة الضغط الحديثة التى تنبهك الى القراءة الأولى والثانية دون عناء .. لكن هذا المعدل يتأرجح قليلا زيادة ونقصا ، إذ يكفى تدخين سيجارة لرفعه ، او طعام به ملح زائد ، أو مشادة كلامية مثيرة ، أو الوقوع تحت توتر واجهاد ، أو بذل مجهود بدنى ، أو حتى أثناء ممارسة الجماع .. وكل هذا وغيره يعتبر من الأمور العارضة التى ترفع الضغط ، ثم يعود الى توازنه بزوال المؤثر .. أى أن ذلك ظاهرة طبيعية وليست مرضية ، اللهم الا اذا زاد المؤثر عن حدوده ، فيرتفع الضغط الى درجات تنذر بخطر داهم ، مالم يتنبه الانسان لذلك .

لكن ضغط الدم يعتبر مرضا اذا ارتفع معدله باستمرار عن ١٤٠/٩٠ ، وإن كان معظم الأطباء لايعتبرون ذلك نذير خطر ، بل هو على شفا الحدود المسموح بها ، فهناك مثلا من يعيشون سنين طويلة وضغطهم يرتفع عن تلك الحدود (أى قد يصل الى ١٨٠/١١٠ أو أكثر) .

وأيا كانت الأمور ، فلا أحد يعرف بالضبط الميكانيكية البيولوجية التى تؤدى الى ارتفاع الضغط ، لكن العوامل أو المؤثرات التى تتسلط على الانسان فترفعه معروفة أسبابه التى تؤثر علينا ، وهى التى قدمناها فى بداية المقال مع « س . ص » على هيئة قصة تصورية ، لكنها تحمل بعض العوامل التى تؤثر على الفرد ، فتحدث فى داخله تفاعلات لم تكن فى الحسبان ، وهى ــ مع ذلك ــ تختلف بين انسان وانسان ، فالحساس ينهار ، وبليد الحس أو الصامد يقاوم .. وأنت ــ بلاشك ــ تستطيع أن تستخلص من قصة « س . ص » (وهو ليس واحدا بعينه ، بل يرمز لكل من يتعرض لارتفاع الضغط) أن ضغطه كان نتيجة عوامل أرغمته المدنية الحديثة أن يعيش فيها ، أو يتعايش معها .. لكن قبل ان نتعرض لهذه العوامل ، كان من الأوفق أن نسوق هنا بضع احصائيات عالمية تشير الى أمور لم تكن لترد على الخاطر .

فمن هذه الاحصائيات مايشير الى أن المجتمعات الحضرية أكثر اصابة بارتفاع ضغط الدم من المجتمعات الريفية والبدوية والبدائية ، وتعليل ذلك لايحتاج الى فراسة ، وان كنا سنتناول ذلك فى سياق المقال .. لكن المجتمعات الحضرية درجات ، ولهذا فان



احذر القاتل الصامت وعملاءه!

أرقاها درجة ، يكون أكثرها ضغطا ، يستوى فى ذلك ضغوط الحياة وضغوط الدم (فالأولى ـ على أية حال ـ تسبب الثانية) .. وعموما فهناك إحصائية تشير الى وجود فرد واحد من بين كل خمسة أفراد (فى الدول المتقدمة) مصاب بارتفاع ضغط الدم (أى أن ٢٠٪ منهم مصابون) ـ لكنها أكثر قليلا من ذلك بين الأمريكيين . على حسب ما ورد فى مجلة مختارات العلم الأمريكية . إذ يوجد مابين ٥٥ ـ ٦٠ مليونا من الأمريكيين (من بين ٢٣٠ مليونا) يزيد ضغطهم عن ١٤٠/٩٥ ، ومن ثم يعتبرون من المرضى بارتفاع الدم ، لكن نصف هؤلاء المصابين يعرفون انهم كذلك ، والنصف الآخر لايعرف ذلك .

وعلى هذا البلاء الذى يتسلط على الأمريكان يعلق دينيس جرادى فى دراسته المنشورة بمجلة « اكتشف » العلمية الأمريكية : « ان ارتفاع ضغط الدم يصيب الأمريكان بدرجة لم يكن يتوقعها أحد . لكن العلاج منه قد أنقذ أرواحا كثيرة لم يكن يتصورها أحد » !

ان التقدم العلمى والتكنولوجى والحضارى لاشك يحتاج الى فكر وعرق ومثابرة وتنافس وجدية وأعصاب . ولكل هذا ثمن . ومن أجل ذلك كانت الولايات المتحدة أغنى وأقوى دولة فى العالم . لكنها ـ فى الوقت نفسه ـ تمتلك أعلى نسبة من ارتفاع ضغط الدم . ومن هنا فقد اختار الأمريكيون شهر مايو من كل عام ليصبح « شهر ارتفاع ضغط الدم » .. ولقد ذهب الهوس والخوف الى مداه ، لدرجة أن وضعت أجهزة اليكترونية فى الأماكن العامة لقياس الضغط مقابل نصف دولار (شكل ١) .

حلقات متشابكة

لكن ارتفاع ضغط الدم ذاته قد يكون محتملا . لأنه فى أغلب الأحيان لايسبب شعورا بالألم أو المضايقة . ومع ذلك فخطورته تكمن فى أنه غير محسوس . اذ انه يدمر ويقتل فى الخفاء ... فمعظم حالات تصلب الشرايين ، وما قد ينتج عنها من أزمات قلبية (تؤدى أحيانا الى الوفاة) قد يساعد ارتفاع ضغط الدم على حدوثها . واذا حدث التصلب ، أدى الى ارتفاع الضغط ، ويعنى ذلك أيضا أن علاج ارتفاع ضغط الدم يخفض نسبة احتمال حدوث هذه الأزمات . وهذا ما أثبتته بالفعل دراسة فرامنجهام التى استمرت ثلاثين عاما على ٥٢٠٩ شخصا مصابين بهذا المرض .

ثم ان ارتفاع ضغط الدم يعنى عبئا على القلب . لأن اندفاع الدم منه أثناء النبض يجد مقاومة . وطبيعى أن يزيد هذا العبء بزيادة الضغط . والضغط نفسه يزيد بزيادة تصلب الشرايين . إذ من المفروض أن تكون الشرايين مرنة ، لتستوعب تدفق الدم من القلب ، أما تصلبها فشىء فى غير صالح الكائنات الحية ، ومنها الانسان بطبيعة الحال .

لكن تصلب الشرايين أساسه العادات الغذائية السيئة أى الاسراف فى الطعام ، وتناول الوجبات الدسمة الغنية بالكوليسترول (لمزيد من التفاصيل ، انظر مقالنا فى العدد السابق من هذه المجلة) .. وأساسه أيضا عدم تنشيط الدورة الدموية . وهذا من سيئات المدنية الحديثة . لأنها منحت الانسان سبل الراحة . فالسيارة تحمله ، والمصعد يرفعه ، والعمل المكتبى يأسره ، ومشاغل الأسرة ترهقه ، والزحام يؤرقه .. الى آخر هذه الأمور التى لم تكن موجودة فى العصور السابقة . فى مثل تلك العصور لم يعرف الناس ارتفاع ضغط الدم . ولا الأزمات القلبية بنفس الصورة الوبائية التى نعرفها فى ايامنا الحاضرة .

« س . ص » مثلا يذهب الى عمله بسيارة ، وهو يسكن مدينة مزدحمة . ويريد أن يكون منضبطا فى مواعيده ، لكن اشارات المرور تلعب بأعصابه ، فيصيبه القلق والتوتر (شكل ٢) .. وعندما يصل الى عمله ، فقد لايجد موقفا لسيارته . أو قد يجده . فيسبقه اليه آخر ، وتثور أعصابه . أو قد يجد مالا يسره أثناء قيادة السيارة . فيزاحمه على الطريق متهور . فتثور الدماء فى عروقه . وهذا فى حد ذاته ارتفاع أكيد لضغط دمه ـ أى أن التوتر يلازمه فى طريقه . وفى عمله . وفى قيادته ، وربما أيضا فى بيته . وكل هذه ضغوط نفسية لها ثمنها الذى ينعكس دائما على دمه وشرايينه وقلبه وضغطه .. الخ .. انها محصلة سيئة يعيش فيها اهل المدن المزدحمة ، ومن اجل هذا كانت أمراضهم أعظم .

خذ على سبيل المثال ذلك البحث الذى أجراه بعض الأطباء الانجليز على عدد كبير من سائقى ومحصلى أوتوبيس النقل العام بلندن ، وفيه تناولوا احتمال حدوث الأزمات القلبية ، والاصابة بارتفاع ضغط الدم ، بين هؤلاء ، مع أخذهم فى الاعتبار العوامل الأخرى مثل السن والحالة الاجتماعية وما شابه ذلك .. ولقد جاءت النتائج متوقعة ، اذ كان معدل الأزمات وارتفاع الضغط بين السائقين أعلى من المحصلين ـ وتعليل ذلك لايخفى على لبيب .. فجلوس السائق أمام عجلة القيادة لساعات طويلة ، وتوتر أعصابه ، من حركة الطريق امامه ، يختلف عن المحصل الذى يتحرك باستمرار بين الركاب ، ومن أسفل الى أعلى وبالعكس (أوتوبيسات لندن من دورين) ، ودون أن يشغله شاغل كما هو الحال عند السائق .

يؤكد ذلك التجارب التى أجراها العلماء على الحيوان ، إذ عندما تعرضت مجموعة منها لعوامل الخوف والتوتر والخمول والزحام ، ظهرت عليها نفس العلامات التى يمكن أن تظهر على الانسان ، فى حين أن المجموعة الأخرى التى عاشت فى مكان فسيح ، وجو مريح ، ونشاط مباح ، لم تظهر



شكل (٣) عندما عرف الأمريكيون أن حياة الركود والخمول من الأسباب المؤدية الى أمراض الدورة الدموية ، بدأوا فى ممارسة النشاط الرياضى بأنواعه ، ومن هذا النوع رياضة الجرى ، وفيها تنطلق جموع غفيرة من كل الأعمار ، ومن النساء والرجال ، ولعدة كيلومترات ، وكل حسب قدرته .. لاحظ ذلك الانسان الكسيح فى أسفل يسار الصورة ، وهو يمارس الرياضة ، لكن بساعديه





شكل (٤) يختلف أداء القلب باختلاف طبيعة حياة الانسان . وهذا ماتوضحه تلك الصورة التي يتبين منها أن القلب [illegible] (الصورة السفلى الى اليسار) كلما زاد نشاط الانسان . أما الخمول فتوضحه الصورة التي الى اليمين (أسفل) [illegible] هناك اختلافا كبيرا بين حياة النشاط والخمول ، وتنقله تلك الكاميرا التليفزيونية التي تسلط على قلب الانسان ، وترينا ، مالا عين رأت ،

عليها نفس الأعراض التي ظهرت على أترابها من المجموعة الأخرى .

ساعة من نشاط

لكن ليس معنى ذلك أننا ندعو لهجر السيارات أو سبل المواصلات المريحة ، بل يعنى أن يكون لبدنك عليك حقا ، لأن النشاط البدنى ، ينشط القلب ويقويه ، فتنشط تبعا لذلك الدورة الدموية . فلا أحد ينكر أن المجتمعات الحضرية أكثر خمولا ، وأقل حركة ونشاطا من المجتمعات الريفية أو الرعوية . وقديما عرف الناس خشونة ابن البادية ، وطراوة ابن الحضر من صفات لاتحتاج الى فراسة .. لهذا اذا سمعت أن أمراض ضغط الدم ، أو الأزمات القلبية ، او الفشل الكلوى ، أو حتى السرطان اللعين ينتشر بين المجتمعات المتحضرة أكثر من المجتمعات الريفية ، فان ذلك أمر لايدعو للدهشة .. فكثير من عادات أهل المدن ، وما يحيط بهم من عوامل بيئية سيئة (كالزحام والتلوث والضوضاء .. الخ) تؤدى الى ذلك . وهذا — بلا شك — يختلف عن بشر دائمى التنقل والترحال فى أجواء مفتوحة (كالمجتمعات البدوية مثلا) . او الذين يعملون فى الحقول والبساتين . فهذه الحياة الخلوية غير المقيدة بقيود المدنية قلما تجد فيها ضغط دم مرتفع . أو أزمات قلبية .. وهذا ماعبر عنه الشاعر جون دريدن فى مروياته على لسان حال الحيوان ، ننقلها هنا بتصرف :

أفضل لك أن تصطاد فى الخلاء من أجل صحة لاتشترى

لأن ذلك أوقع من زيارة طبيب قد تعطيه من جيبك كل ماحوى

فالحكمة فى الشفاء تعتمد على النشاط الذى فيك قد خبا

الله لم يخلق هذا الجمال فى الآفاق الا لكل ذى سعى

وهو يقصد طبعا هجر الناس للطبيعة الجميلة التى خلقها الله لكى يتمتع بها الانسان ، ويشرح بها صدره ، الى هذه التكدسات السكانية التى تشبه الأقفاص ، وتخنق الأنفاس .. انها دعوة تحمل الترويح عن النفس والبدن بالانطلاق فى الطبيعة الفسيحة لبعض الوقت ، وهذا بالفعل ماينصح به الأطباء الآن مرضى القلب وارتفاع الضغط وتوتر النفس او غير ذلك . اذ لابد من مزاولة رياضة المشى او الجرى لمن يقدر عليه (شكل ٣) فى أماكن خلوية . وبعيدا عن هواء المدينة الملوث . ولمدة ساعة على الأقل كل يوم لمن استطاع . أو لفترتين يوميا — كل فترة نصف ساعة ، أو على قدر مايتحمل مريض القلب.

وطبيعى أن هذه النصائح لم تنبع من فراغ ، بل جاءت نتيجة للقياسات الكثيرة ، والبحوث الموجهة التى أجريت على الانسان والحيوان (شكل ٤) .. فهناك دراسة تشير الى أن الانسان الجلوسى (أى المرتبط بالأعمال المكتبية او الجلوس طويلا) يبذل مجهودا يستهلك فيه حوالى ٣٠ سنتيمترا مكعبا من

احذر القاتل الصامت وعملاءه!

الأوكسيجين لكل كيلوجرام من جسمه فى كل دقيقة ، وأنه يستطيع أن ينتج طاقة تقدر بحوالى ١١٠٠ وات .. لكن ضع هذا الانسان تحت أى نوع من التدريبات البدنية المنظمة والمستمرة ، تجد تغيرات واضحة : فالقلب ينبض أقوى ، وعضلته تتخذ حجما أكبر ، والرئتان تكتسبان صحة واتساعا .. وضغط الدم أثناء الراحة ينخفض (اذا كان ضغطه مرتفعا قليلا) .. ولو حافظ على نفس كمية الطعام التى كان يتناولها قبل هذا البرنامج الرياضى (حتى ولو كان رياضة المشى) فإن وزنه ينقص ، والعبء على قلبه يقل ، واحتمال حدوث أزمة قلبية تنخفض .

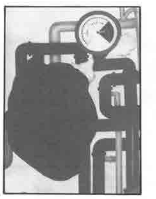
دراسة أخرى أجريت على الفئران والخنازير (الأخيرة لاحتوائها على دهون كثيرة ، وخاصة فى الشرايين) فى جامعة كاليفورنيا بسان وييجو (شكل ٥) ، فى الحيوانات الأخيرة تم تضييق الشرايين التاجية بوسائل صناعية . وبهذا تأثرت عضلة القلب وكأنما حلت بها ازمة ، ثم قسمت الى مجموعتين : مجموعة بقيت خاملة ، والأخرى دربت على الحركة بحيث تقطع كل أسبوع حوالى ١٥٠ كيلومترا فاتضح أن النشاط قد أدى الى تفرع شرايين جديدة لتغذى عضلة القلب المنهكة ، وبهذا استردت حوالى ٤٢٪ من كفاءتها . أما الخنازير الخاملة ، فقد كانت أقل حظا ، اذ وصلت الكفاءة الى ١٧٪ .. ولقد تبين أيضا أن نسبة الكوليسترول فى هذه الحيوانات قد انخفض بشكل واضح ، وان الشرايين قد بدت أكثر ليونة بعد ان اصابها التصلب .. الى آخر هذه البحوث الكثيرة التى تشير الى دخول عامل جديد فى الأزمات القلبية ـ عامل الخمول او الركود الجسدى جنبا الى جنب مع ارتفاع ضغط الدم ، وتصلب الشرايين ، وزيادة فى الوزن .. الخ .

شكل (٥) على الفئران أو غيرها من أنواع الحيوان تجرى التجارب أولا ، لتحديد مايمكن أن يسببه النشاط أو الخمول من تأثير على الدورة الدموية . وفى الصورة فأر يجرى على جهاز ليقيس كفاءة قلبه وشرايينه ، ثم نسبة الكوليسترول فى دمه

لعنة التدخين

ثم تجىء عادة التدخين لتضيف حلقة جديدة الى سلسلة العوامل التى تسبب قصورا فى الدورة الدموية وخاصة عند ذوى القلوب المريضة .. صحيح أن خطر التدخين يتضح أكثر فى زيادة حالات الاصابة بسرطان الرئة ، لكنه أيضا قد ينهك القلوب ، فيزيد أعباءها ، ويختصر حياتها .

أذكر أننى كنت فى زيارة لطبيب كبير متخصص فى أمراض القلب ، وأثناء سرد نصائحه على أخرج سيجارة ، ووجه لى الكلام محذرا : هذه هى الخطر رقم واحد بالنسبة لقلبك . ثم أشعلها ، وعرفت أنه من المدخنين . ثم عرفت أيضا أنه أصيب بعد ذلك



بأزمة قلبية ونجا منها . ولقد كنت أنا من المدخنين . وداهمتنى أزمة . وعدت للتدخين . فداهمتنى أخرى . وتوقفت . ومنذ حوالى ١٢ سنة مضت . مات طبيب قلب آخر (كان يعالجنى) بأزمة قلبية . وكان من المدخنين الشرهين . ورغم أن ما سردناه حالات فردية . الا ان احصائيات فى كل دول العالم تشير الى أن احتمال اصابة المدخنين بالأزمات القلبية أكثر منها فى غير المدخنين .

وفى تقرير لجمعية القلب الأمريكية يجىء : إن عدد الذين يموتون سنويا بأمراض القلب فى امريكا حوالى نصف مليون . لكن ثلث هؤلاء قد دفعوا حياتهم ثمنا للتدخين .. فالسيجارة تسرع بضربات القلب . وترفع ضغط الدم . وتحدث انقباضا فى الشرايين . وتدمر بعض الصفائح الدموية . وقد يؤدى ذلك الى تشابكها والتصاقها على جدر الأوعية الدموية : فتشارك فى عملية تصلب الشرايين . كما ان غاز أول اوكسيد الكربون السام يحل محل الأوكسيجين فى جزيئات الهيموجلوبين الموجودة بكرات الدم الحمراء . فيؤدى ذلك الى خفض الاستفادة من هذا الغاز بنسبة ١٥٪ .. الى آخر هذه المآسى التى تتمثل فى سيجارة . ومن أجل هذا . ونظرا للدعايات المركزة عن أضرار التدخين . هجر حوالى ٣٠ مليون امريكى السيجارة . رغم أن هجرها ليس بالأمر الهين . لكن يبدو أن ارادة الحياة عندهم أقوى من ارادة الموت .. هذا فى الوقت الذى ترتفع فيه نسبة التدخين فى العالم الثالث . وهو الآن السوق الرائجة لشركات الدخان . بعد أن انخفضت مبيعاتها فى كثير من الدول المتقدمة !

المحصلة المحزنة

أخيراً فقد يقول قائل : إن العلماء يبحثون ويقدرون ويحذرون : ولكن يقدرون فتضحك الأقدار . ثم ان الأعمار بيد الله . وهذا صحيح . لكن الصحيح أيضا « ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة » .. بل الانسان على نفسه بصيرة .

ان الانسان العادى يستطيع ـ من خلال ملاحظته مايجرى حوله ـ أن يتوصل الى بعض النقاط التى تشير اليها البحوث . فتأكيدا ان معظم الذين يموتون من أزمات قلبية مدخنون . ومعظم ذوى البدانة لايعمرون . وأخطار ارتفاع ضغط الدم وتصلب الشرايين لهما ضحايا كثيرون .. الى آخر هذه العوامل التى تتسلط على الانسان فتنال منه . وتصيبه بالمرض . وله بالتأكيد دخل فيها .. فالافراط فى الطعام . والاسراف فى الدهون . واجتلاب الهموم . واللجوء الى التدخين . والركون الى الخمول ـ كلها عوامل يقوم بها الانسان بمحض ارادته . كما أنه يستطيع ـ اذا عقد النية وقويت الارادة ـ أن يتجنب أضرارها .

ثم ان اجتماع عاملين من هذه العوامل الضارة فى انسان واحد ، قد يضاعف مشاكله . خاصة اذا سبق وأصيب بأزمة قلبية .. خذ على سبيل المثال تلك الدراسة التى أجريت فى سان فرانسيسكو بالولايات المتحدة على عدد كبير من السكان . وتعرضت لعاملين ضارين : التدخين وضغط الدم ـ فوجود كليهما فى الانسان يضاعف احتمال حدوث الأزمات القلبية بمقدار عشر مرات عن انسان لا يدخن . وضغطه معتدل . فاذا أضيف الى هذين العاملين عامل البدانة . فلاشك أن احتمال حدوث أزمة قلبية سوف يتضاعف مرة أخرى .. وهكذا .

وقد يثار هنا سؤال هام : هناك أشخاص يأكلون كثيرا . ويتحركون قليلا . ويدخنون طويلا . والكوليسترول فى دمهم مرتفع . ومع ذلك يعيشون حتى الستين أو السبعين دون أن يصابوا بأزمة قلبية واحدة . فى حين ان هناك أشخاصا آخرين يتريضون ولا يدخنون ولا يميلون للبدانة لكنهم يصابون بأزمة قلبية قد تودى بحياتهم .. فما تعليل ذلك .

لا أحد ـ فى الواقع ـ يستطيع أن يجيب على ذلك إجابة مؤكدة . أو بالدليل القاطع حتى الآن . ذلك أن البحوث العلمية والطبية لم تصل الى نهاية المطاف فى إدراك أسرار الجسم البشرى . ففى كل يوم نكتشف فيه جديدا . ومع ذلك فلسنا طبعة واحدة بالكربون من بعضنا .. أى أن هناك اختلافات بين تكوين انسان وآخر . وكذلك فى البيئة التى يعيش فيها كلاهما .. ولهذا فمن المحتمل ـ كما يقول دكتور جان بريسلو أستاذ علم الوراثة بجامعة روكفلر الامريكية . وهو الذى حدد جينة أو مورثة فى الجهاز الوراثى للانسان . وأوضح أنها مسئولة عن عدم ضبط تركيز الكوليسترول فى الدم ـ من المحتمل أن تكون هناك عوامل وراثية من وراء الأحداث التى تؤدى الى الأزمات القلبية . ويقدرها بنسبة تتراوح ما بين ٥٪ ـ ١٠٪ من بين السكان حتى ولو عاشوا حياة معتدلة . ونفس النسبة تقريبا لايصابون حتى ولو دخنوا ولم يتريضوا وأسرفوا فى الطعام والشراب .. الخ . أما الغالبية العظمى من البشر فيخضعون للعوامل التى تؤدى للاصابة بالأزمات .. أى ضغط الدم وأعوانه : الكوليسترول وتصلب الشرايين والتدخين والميل الى البدانة ونوع الطعام وعدم التريض أو تنشيط الدورة الدموية والتوتر والقلق . أو أية عوامل أخرى لازالت مجهولة . فلا يزال الانسان يتعلم ويكتشف « وما أوتيتم من العلم الا قليلا » .

عبدالمحسن صالح

طرائف شرقية وغربية

فكـــرة

حكم القاضي الانجليزي « وليام روبرت » بالحبس شهرين على تاجر باع سلعة بأزيد من التسعيرة . ومن الطريف أنه نص في الحكم على أن يتم تنفيذه يوم السبت والأحد من كل أسبوع وذلك حتى لا يقضى على مستقبله باضطراره إلى غلق متجره !

ازدحـام العلوم

قال عربي لمؤدب ولده : « لا تخرجهم من علم إلى علم حتى يحكموه ، فإن اصطكاك العلم في السمع وازدحامه في الوهم مضلة للفهم » .

آخر كلمات فولتير

قضى « فولتير » الأديب الثائر نحبه وهو في الثالثة والثمانين ، وكان ذلك في مايو عام ١٧٧٨ ، وكانت آخر كلماته التي أملاها على سكرتيره هي : « إنني أموت وأنا أعبد الله ، وأحب أصدقائي ، ولا أكره أعدائي وازدرى الخرافات » .

إلى أن ... ملّـه من

قال ابن السماك لجارية له تصغي إلى كلامه : كيف تجدين كلامي ؟ قالت : ما أحسنه إلا أنك تكثر ترداده قال : « إنما أردده ليفهمه من لم يفهمه » قالت : « إلى أن يفهمه من لم يفهمه ، ملّه من قد فهمه » .

الحلـم والغضـب

قال رسول الله ﷺ : « ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب » .

وروى أبو هريرة رضى الله عنه أن رجلا قال : يا رسول الله : مرني بعمل ، وأقلل ، قال : « لا تغضب » ثم أعاد عليه فقال : « لا تغضب » .

معركة حول اللذة

بعث « الرشيد » وزيره « تمامة » إلى دار المجانين لتفقد أحوالهم ، فرأى بينهم شاباً حسن الوجه كأنه صحيح العقل .. فأحب أن يكلمه ، فقاطعه المجنون بقوله : أريد أن أسألك في مسألة .

فقال الوزير : هات سؤالك .

فقال الشاب : متى يجد النائم لذة النوم ؟

فأجاب الوزير : حين يستيقظ .

فقال الشاب : كيف يجد اللذة وقد فارقه النوم ، والمعدوم لا توجد له لذة ..

فقال الوزير : بل يجد اللذة قبل النوم .

فاعترضه الشاب بقوله : كيف يتلذذ وهو لم يقارب النوم بعد وهل توجد لذة الشيء قبل الحصول عليه .

فقال الوزير : بل يجد اللذة في حالة النوم .

فرد عليه الشاب بقوله : إن النائم لا شعور له . فكيف تكون اللذة بلا شعور !

فبهت الوزير ، ولم يستطع جواباً ، وانصرف مزمعا ألا يجادل مجنونا أبداً !!

ثلاثة أقمصـــة

أجرى الله تعالى أمر يوسف ــ عليه السلام ــ من ابتدائه إلى انتهائه على ثلاثة أقمصة : أولها : قميصه المضرج بدم كذب والثاني : قميصه الذى قُدَّ من دبر والثالث : قميصة الذى ألقى على وجه أبيه فارتد بصيرا .

ماذا يفعل ؟

سئل ابن الشاعر جرير :

ما كان أبوك صانعاً حيث يقول : لو كنت أعلم أن آخر عهدكم يوم الرحيل . فعلت ما لم أفعل .

فقال : كان يفقأ عينيه ولا يرى رحيل أحبابه .

ديمقراطية الاسلام

قال عليه الصلاة والسلام : « لا يقولن أحدكم لمملوكه : عبدى وأمتى ، ولكن يقول : فتاي وفتاتي . ولا يقول المملوك : ربي وربتي ، ولكن يقول : سيدى وسيدتي » .

علاج المكاره

المكاره قسمان : قسم فيه حيلة فالاحتيال دواؤه ، وقسم لا حيلة فيه فالصبر شفاؤه .

أصول المعاشرة

وصفت الممثلة الانجليزية الشهيرة « جريسى فيلدز » عدة قواعد لأصول المعاشرة وآداب المجتمعات فيها : « إذا أراد الانسان أن يكون عضواً محبوباً في المجتمع ينبغى عليه قبل كل شيء أن يخفي مواهبه وأن يكتم مبلغ احتقاره للناس » !

الطين للشاعر ايليا أبي ماضي

نسي الطين ساعة أنه طين حقير فصال تيهاً وعربد
وكسا الخز جسمه فتباهى وحوى المال كيسه فتمرد
يا أخي لا تمل بوجهك عني ما أنا فحمة ولا أنت فرقد
أنت لا تأكل النضار إذا جعت ولا تشرب الجمان المنضد
أنت في البردة الموشاة مثلي في كسائي الرميم تشقى وتسعد
أنت مثلي من الثرى وإليه فلماذا يا صاحبي التيه والصد

المرأة بين الحب والزواج

- ما من امرأة تكره الحب إلا من شقيت من الحب (سيروس) .
- تضيع سعادة المرأة إذا كانت لا تستطيع أن تعتبر زوجها كأفضل صديق لها (جورج صاند)
- إذا ذاقت المرأة طعم الحب ، لم تستلذ الصداقة (لارشفوكو) .
- فى إمكان الرجل أن يعكر صفاء الحياة الزوجية ولكن ليس فى إمكانه أن يجلب لها الصفاء ، فهذا من اختصاص المرأة .

أحلى كلام

- إذا رأيت رجلاً يمدحك بما ليس فيك : فلا تعجب أن يذمك بما ليس فيك .
- ينبغى لمن ينثر الشوك ، أن يحذر المشي وهو حاف .
- المثل العليا كالنجوم ، تهتدى بها ولا تراها وجهاً لوجه .
- التجارب هى الحكمة الحقيقية عند الأمم

هل تعلم ؟

- أن الكلية الواحدة يمر فيها نصف لتر من الدم كل دقيقة فى حالة الراحة .
- أن الانسان يتنفس بين ١٢ ألف إلى ١٥ ألف لتر من الأوكسجين والهواء كل يوم ، وتحوى الرئتان ٣٥٠ مليون خلية رئوية تقريباً .
- أن القلب أشد وأقوى رافعة فى العالم بالنسبة لحجمه .
- أنه يوجد فى جسم الانسان من الخلايا نحو ٣٢ بليون خلية .

قالوا فى المحبة

- المحبة هى النار التى تصهر الزوجين ببوتقتها لتجعل منهما جسداً واحداً يتقاسمان السراء والضراء !
- المحبة هى الأنشودة الخالدة أنشودة الغبطة والسعادة ، والأمن والسلام !



- قال عمرو بن معد يكرب :
« إذا لم تستطع أمراً فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع » .
- قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه : « الرغبة مفتاح النصب ، والحسد مطية التعب » .
- قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « ما رفق أحد بأحد الا رفق به يوم القيامة » .
- قال سليمان الملك : « مالك روحه خير من يأخذ مدينة » .
- قال التهامى : « ثوب الرياء يشف عما تحته : فإذا التحفت به فإنك عار » .
- قال الفارابي : « اللهم انى أسألك يا واجب الوجود ، وياعلّة العلل ، يا قديماً لم يزل ، أن تعصمنى من الزلل ، وأن تجعل لى من الأمل ، ما ترضاه لى من عمل » .
- سأل معاوية الأحنف عن الزمان فقال : « أنت الزمان فإن صلحت صلح وإن فسدت فسد » .
- قال أبو المعالى مجدود : « الزهادة فى اللذات الناقصة مفتاح الرغبة فى السعادة الكبرى » .
- قال بعض الحكماء : « شيئان يتزين بهما الانسان : نشر البشر وترك الكبر » .
- قال أبو الحسن الأنبارى : « الساعي غاش وإن قال قول النصيح » .
- قال أبو مضر محمود : « كمال السخاوة قطع الطمع عما فى أيدى الناس مع بذل ما فى يدك » .
- قال أبو محمد العدلى : « قطع الكلام بعد افتتاحه سخف ، والسخف دناءة » .
- قال أبو زيد البلخى : « من طلب لسره حافظاً أفشاه » .
- قال المنصور : « الملك يحتمل كل شيء من أصحابه إلا ثلاثاً : إفشاء السر التعرض للحرم والقدح فى الملك » .
- قال أبو العباس : « نقل المسرور إلى غير مسرورك أهون من نقل المهموم إلى غير همه » .
- قال حسنين بن اسحاق : « من خاف شقاوة الدنيا ، ما اكتسب سعادة العقبى » .
- قال الفارابى : « تمام السعادة بمكارم الأخلاق كما أن تمام الشجرة بالثمرة » .
- قال محمد الحارثان : « لا سفر أحسن من سفر العقل فى الملكوت الأعلى » .

كانت الكاتبة الفرنسية المعروفة فرانسواز ساجان ضمن وفد إعلامي مع الرئيس ميتران في رحلته إلى كولومبيا في أمريكا اللاتينية، وأصيبت هناك بأزمة قلبية كادت تقضي على حياتها.. فماذا حدث بعد ذلك؟ وكيف تصرف ميتران؟.. إن وقائع هذه القصة الحقيقية تقدم إلينا نموذجا حيا لمكانة الأديب في المجتمعات المتقدمة.. وهذه هي التفاصيل.

بين الأدباء والرؤساء

ميتران ينقذ فرانسواز ساجان من الموت

منذ فترة اعتقد الجميع أنها على حافة الموت. كانت قد سافرت إلى كولومبيا ضمن الوفد المرافق لفرنسوا ميتران في رحلته الرسمية إلى هناك. وقعت في غيبوبة عميقة في غرفتها بأحد فنادق العاصمة بوجوتا إثر اصابتها باستسقاء رئوى. ونقلت على الفور على متن طائرة ميستير ـ ٥ تابعة للرئاسة إلى مستشفى «فال دى جراس» بباريس حيث تلقت عناية مركزة لمدة ١٥ يوما. وتستجم فرنسواز ساجان حاليا في المنزل الذى ولدت فيه في «كاجارك» ولكنها فترة نقاهة واستجمام نشيطة فهي تعد كتابا جديدا.

تحظى فرنسواز ساجان بشعبية كبيرة. إلا أن تواضعها الطبيعي يمنعها من استغلال هذه الشعبية. إن الحادث الذى تعرضت له في بوجوتا وقلق الفرنسيين عليها عندما علموا بأنها في غيبوبة والزهور والبرقيات والخطابات التى تدفقت دون توقف على بيتها والاتصالات الهاتفية التى لم تتوقف من أصدقائها ومن معجبين مجهولين كشفوا لكاتبة «صباح الخير أيها الحزن» أنها لا تتمتع فقط بتقدير وتدليل الفرنسيين ولكنها تحظى بحبهم أيضا. لقد تأثر الجميع لفكرة فقدان فرنسواز ساجان ابتداء من القارىء المخلص الذى ينتظر كل كتاب من كتبها بفارغ الصبر إلى كل من يحبونها دون أن يعرفوها. ومن بينهم الصديق الدائم الذى جاء خفية وبدون موكب ليراها بمجرد عودته لباريس. كان هذا الشخص الذى قدم بتواضع كأى مواطن عادى ليطمئن على اخبارها هو فرنسوا ميتران شخصيا الذى وضع تحت تصرفها عند وقوع الحادث طائرة رئاسية ميستير ـ ٥ معدة لتكون طائرة طبية لاعادتها إلى فرنسا. أوضح الرئيس بهذا التصرف مدى الاهتمام الذى يوليه للكاتبة. فنظرا لتحفظ وكتمان فرنسواز كان أغلب الناس يجهلون هذا الاهتمام ولولا هذا الحادث لما اكتشف الناس هذا الاهتمام.

في هذا الصباح بمستشفى فال دى جراس كان الرئيس كاسف البال ولكن لم تكن مشكلات فرنسا هي التى تثير قلقه، كان موضوع

● عندما ابتسمت للرئيس وهي في نصف غيبوبة، شعر بأنها انتصرت في معركتها مع الحياة

الكاتبة الفرنسية فرانسواز ساجان عقب نجاتها من الأزمة المرضية التي أصابتها في الفترة الأخيرة، وقد عادت أخيرا لكتابة رواية جديدة

واحد يشغل باله وله الأولوية على قضية سفينة السلاح التابعة لحركة الخضر وعلى مناظرة فابيوس مع شيراك وعلى استطلاعات الرأى العام التى لا تثبت على حال . فهناك فى فراشها بالمستشفى كانت فرنسواز ساجان ضعيفة وشاحبة محاطة بالأنابيب تخوض معركة الحياة ضد الموت فى منتصف الطريق بين هذا العالم والعالم الآخر الذى لا يعود منه أحد . وفى مواجهة هذه المعركة يبدو كل شيء تافها . لعدة لحظات تركز كل انتباه فرنسا على محيط هذه الغرفة المحدود وأصبح الرئيس إنسانا مثل غيره يعانى من فكرة فقد شخص عزيز ، فهو يراقب على الشفاه الساكنة أولى علامات العودة إلى الحياة . وكان يتساءل بينه وبين نفسه أيمكن أن تكون قد انتهت إلى الأبد لقاءات الغداء فى منزلها حيث كانا يتقاسمان حبهما للبط بالبرتقال التى كانت تطلبه خصيصا له من مطعم فى شارع « سيفر » وشغفهما بالآداب ؟ وكان يتأخر معها حتى الساعة الخامسة بعد الظهر يتبادلان انطباعاتهما عن آخر ما نشر من كتب . واستطرد متسائلا أيمكن الا تأتى بعد ذلك إلى الاليزيه لتزعج بوجودها المتحدى وضحكتها المشاكسة قاعات الاستقبال الفخمة الباردة ؟

ورحل مرة أخرى بعد أن استعلم عن حالتها من البروفسير الذى يتولى علاجها . وكان يستفسر منه يوميا عن أخبارها . وذات يوم تعرفت عليه وابتسمت له وهى فى نصف غيبوبة وشعر فى هذا اليوم بنفس الاثارة السعيدة التى شعر بها غداة الانتخابات : لقد انتصرت فرنسواز فى معركتها .

وعندما قالت فرنسواز لصديقتها الحميمة « بيجى لاروش » (التى أمضت يومين وليلتين معها لتهدئتها ومنعها من مغادرة المستشفى) إنها رأت الرئيس « اعتقدت « بيجى » أن صديقتها فرنسواز تهذى وان هذه الرؤية من آثار غيبوبتها الطويلة . وأثارت هذه الكلمات فزعها فذهبت لمقابلة البروفسير الذى يتولى علاج فرنسواز وطمأنها على الفور وأكد لها أن الرئيس جاء لزيارة مدام ساجان وكان يسأل بانتظام عن أخبارها .

وهو موقف مدهش بلاشك من رئيس جمهورية مشغول مثل ميتران ينوء تحت كل أنواع الأعباء ولكنه كصديق مخلص ومجامل يقدر صداقة ٢٥ عاما كانت فرنسواز تطلبه على خطه المباشر ولم يغير توليه الرئاسة شيئا فى سلوكه . ويقال إن ميتران هو الذى نصحها

ميتران ينقذ فرانسواز ساجان من الموت



فرانسواز ساجان محمولة الى الطائرة الطبية التي خصصها الرئيس الفرنسي

بالظهور على شاشة التليفزيون لكي تطمئن الفرنسيين عليها. وفي الجانب المقابل فان فرنسواز لا تحتمل أن ترى أحدا يهاجم أو يعارض ميتران فهي تصبح عنيفة جدا إذا تعلق الأمر به. فبعد خروجها من المستشفى بقليل وأثناء عشاء عند أحد أصدقائها انزلق الحديث إلى قضية «سفينة السلام» التابعة «لجماعة الخضر» فانبرت فرنسواز قائلة إن الفرنسيين يسخرون من هذه القضية التي لا تمس الرئيس، فميتران رجل نظيف وأضافت أن هذه القضية ليست مثل بعض القضايا التي وقعت في ظل أنظمة أخرى فهي تتعلق بعملية مؤسفة لأجهزة المخابرات ولكنها ليست فضيحة سياسية تخفي وراءها قصة رشوة.

وعندما قال لها أحد المدعوين إن هذه القضية أثارت بلبلة لدى الفرنسيين أكفهر وجهها واختفى مرحها في الحال. وكانت قد كتبت منذ فترة بأسلوب خلاب في جريدة «لوموند» تدافع عن صديقها وذلك ردا على مقال كتبه «جان دانيال» اعتبرته مقالا فظا بالنسبة للحكومة والرئيس. وكثيرا ما تقول إنه من الطبيعي أن ترتكب حكومة ميتران بعض الأخطاء فهي حكومة فتية ونظام جديد يتعين منحه الوقت لكي يتدرب على السلطة أما عن ميتران فهي تقول هو أشرف رجل قابلته فهو لا يستطيع الكذب وهي صفة أساسية بالنسبة لي. إنني أقدر سعة أفقه وتسامحه. إنه رجل مخلص ومثل هذا الرجل لا يمكن إلا أن يكون طيبا.

ولكن ليست الصداقة وحدها هي سبب هذا الحماس وانما قناعات فرنسواز الفكرية التي ساهمت في التقارب بينها وبين ميتران وكذلك حبهما المشترك للآداب.

فرنسواز ساجان مخلصة وأمينة وكريمة أكثر مما يجب في بعض الأحيان، ولكنها تصبح شريرة إذا ما هاجم أحد من تحبهم فعندئذ تصبح قادرة على توجيه الضربات المعنوية والمادية أيضا وإن كانت غير قادرة على الضغينة فهي من العناصر النادرة التي تعرف معنى العطاء ولذلك فإن الجمهور يمنحها كل هذا الحب مثلما فعل مع «سيمون سينوريه».

ولا يقتصر عطاؤها على من تعرفهم وانما يمتد الى من لا تعرفهم، ويقدر الأصدقاء هذا الاخلاص السخي حق قدره. ولذلك كان أول عشاء لها بعد خروجها من المستشفى مفاجأة أعدتها صديقاتها الحميمات فلقد ذهبن الى بيتها وكل منهن تحمل معها طبقا من أطباقها المفضلة وأعددن لها عشاء نسائيا مرحا. ومنذ ذلك الحين والدعوات تتدفق من كل جانب وباقات الورد والبرقيات التي تتمنى لها شفاء سريعا. وتجد سكرتيرة فرنسواز نفسها أمام مهمة غاية في الصعوبة وهي الرد على هذه التمنيات التي لا حصر لها.

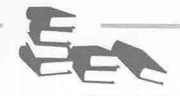
وعندما تخرج ساجان للسوق يحيط الناس بها ويستوقفونها ويشدون على يدها ويسألون عن صحتها ويعربون عن مدى الخوف الذي سببته لهم. وعندما ذهبت لتناول الغداء في مطعم «ليب» مؤخرا وقف كل الموجودين بمجرد ظهورها. ويحمر وجه ساجان محرجة من هذه التعبيرات الوردية وتكاد أن تعتذر عن أنها سببت كل هذا القلق لجمهورها. وتختفي في حياء تأثرها وراء خصلات شعرها الحريرية المتدلية على جبهتها.

وبالرغم من ادراكها انها كانت على وشك الموت وانها محظوظة لأنها عادت الى الحياة فهي لا تقدر ما حدث لها حق قدره فبمجرد أن استعادت وعيها بعد غيبوبة طويلة فكرت في مغادرة المستشفى بالرغم من العناية الكبيرة التي كانت محاطة بها والتي أعربت عن سعادتها بها.

وفي الأسبوع الماضي وبعد اجراء مجموعة من الفحوصات الناجحة غادرت باريس متوجهة الى منزلها العائلي في «كاجارك» حيث يمكنها الراحة في هدوء وسلام بصحبة وصيفتها وكلبيها. فهي ترفض أي لقاء صحفي حتى مع معارفها القدامى من الصحفيين ولا تستقبل سوى الأصدقاء المقربين الذين يتناوبون في زيارتها على امتداد شهر كامل.

وتستمتع هناك بمتع الريف الصحية والبسيطة فهي توزع وقتها بين القراءة وركوب الخيل والتنزه في الغابات وشاي الساعة الخامسة والكتابة فهي لا تفكر إلا في روايتها القادمة.

إعداد لبنى الريدي
عن «باري ماتش»



بقلم : الدكتور محمد البهي

كسب الإنسان

يسند القرآن الكسب الى الانسان . وهو كسب مال ، أو قوة ، أو كسب عمل سيء أو صالح . ففي جانب كسب المال يقول تعالى في سورة المسد كجزاء لأبي لهب « ما أغنى عنه ماله وما كسب (أى لم يجد نفعا له : ما كان يملك من رأس مال وما حصل عليه من أرباحه .. في وقايته من عذاب الله له في دنياه وفي آخرته) » (المسد : ٢) .. ويقول : « يا أيها الذين آمنوا انفقوا من طيبات ما كسبتم ، ومما أخرجنا لكم من الأرض » (البقرة : ٢٦٧) .. فهو في الوقت الذي يضيف فيه عمل الله الى المؤمنين والى نشاطهم : كسب المال ـ بجانب مساعدتهم على إنبات ما في الأرض ـ يحثهم على أن ينفقوا للمحرومين وأصحاب الحاجة من طيبات ما كسبوا . ولا يقصدوا الخبيث منه والردىء ، فيخرجون منه .

وفي جانب كسب المال ، والقوة المادية يذكر القرآن قول الله تعالى : « أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، كانوا أشد منهم قوة وأثاروا في الأرض ، وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » (الروم ٨) .. والقصد بكسبهم : ما أعدوا به أنفسهم من قوة العدد ، والعدة . وقوة المال والبنيان والعمارة في الأرض . وقوة السلطة والتمكن .

ويأتى الكسب بمعنى السعى في تحصيل العمل السيء ، أو في تحصيل العمل الصالح : « تلك أمة قد خلت (وهى أمة ابراهيم وبنيه) : لها ما كسبت ، ولكم ما كسبتم ، ولا تسألون عما كانوا يعملون » (البقرة : ١٣٤) .. أى كل أمة لها شأنها في مسئولية العمل الذى تأتى به . وكما أن كل فرد : له ـ أو عليه ـ نوع ما يحصله من عمل .. كذلك كل أمة وجماعة مسئولة عن كسبها الخاص في العمل . ثم يأتي ذلك المبدأ العام : « كل امرىء بما كسب رهين » (الطور : ٢١) .. ويأتي ما وجهه الرسول عليه السلام إلى أهله : يا بني هاشم : لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم » .

فللانسان كسب ، وإرادة خاصة به مستقلة : في تحصيل المال .. أو في اعداد القوة .. أو في السلوك السيء ، أو في السلوك الحسن . وبسبب إرادته المستقلة في كسبه .. كانت مسئوليته الشخصية ، وكان جزاؤه بالسوء ، أو بالحسنى : على توجيه ما يكسبه في تحصيل المال .. أو في إعداد القوة .. أو في التمكن من السلطة . إن في سبيل الخير أو سبيل الشر .. وكذلك على ما يكون عليه كسبه : أن يباشر عملا سيئا ، أو غير سيء .

والانسان ـ في نظر القرآن إذن ـ ليس سلبيا ، ولا متواكلا . والآية التى عبرت سابقا بقول الله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا : انفقوا من طيبات ما كسبتم .. ومما أخرجنا لكم من الأرض » .. فميزت بين عمل الانسان .. وعمل الله : فاسندت إلى الانسان : كسبا .. وإلى الله إخراج ما في الأرض .. هذه الآية تحدد النظرة الواضحة الى الانسان : على أنه ايجابى ، وعلى أنه صاحب مسئولية في العمل من أجل معيشته ورزقه .. وصاحب مسئولية كذلك : فيما يباشره من عمل سيء ، أو صالح .

وما جاء في بعض الآيات التى تجعل الله متكفلا برزق الانسان ، في مثل : « وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها » .. فإن الآية ذاتها تنطوى على عمل خاص بالانسان كذلك . إذ الدابة ـ وهى كل ما يدب على الأرض ويتحرك فيها من مخلوقات الله ـ لا تستحق هذا الوصف ، بالدابة .. إلا إذا تحركت بالفعل . وليست حركتها إلا السعى أو العمل . وإلا لم تكن دابة ، بل كانت جمادا .

وما جاء في بعض الآيات الأخرى التى تنسب الضلال ، والهداية الى الله : « يضل من يشاء ، ويهدى من يشاء » ... وبذلك يبدو الانسان مسلوب المشيئة نحو الايمان والكفر . ونحو العمل السيء والعمل الصالح .. ماجاء على هذا النحو لايرفع مسئولية الانسان ، ولا كسبه الارادى . فتدخل مشيئة الله في ايمان من يؤمن أو في كفر من يكفر : عن طريق رسالته التى يوحى بها الى رسوله .

والانسان في قبولها أو في رفضها : حر ، وصاحب اختيار ومشيئة . وليست للرسول المرسل عليه ولاية الالزام بالهداية . وايمان من يؤمن : يرجع الى تحكيم المنطق وعدم التأثر بجو البيئة ، وكفر من يكفر : يعود الى المصالح الخاصة التى يفيدها بسبب كفره ..

سبيل العطشان

مهبط إلهام الشعراء ونبع أغاني المحبين

صفحة مشرقة في تاريخ العمارة الإسلامية

بقلم: فاروق أباظة

سبيل رقية دودو بشارع سوق السلاح (١١٧٤هـ ـ ١٧٦١م)

سبيل القاضي عبد الباسط (٨٢٣هـ ـ ١٤٢٠م)





سبيل أم عباس

تغنى به شعراء الهوى كنبع يروى العطاشى من ظمأ الحب ، واتخذه القصاصون محورا تدور حوله أحداث أعمالهم ، وأبدع الفنانون فى تصميمه وتزيينه وزخرفته .. إنه السبيل مقصد الظمآن من لفح الهجير عندما تصبح جرعة الماء هى إكسير الحياة ... ومن تعاليم الاسلام كدين يحض على الانسانية والعطف والقيام بالعمل الصالح لكسب الثواب الكبير ، أن يوفر المسلم لأخيه النجدة من العطش . ورغم مرور مئات السنين بقي السبيل شاهدا ليحكي أحداث التاريخ وليضفى قيمة رائعة على جماليات العمارة الإسلامية .

● السبيل الإسلامي يُترجم حضارة لم تعرفها أوروبا لتمجيد الإنسان

حادى القافلة ورحلته القاسية عبر الصحارى المقفرة ، والجيوش الراجلة والراكبة فى الزمن القديم تتسابق حول مورد الماء . والمحبون الذين أضناهم العشق والشوق الى الحبيب .. كلهم كانوا يبحثون عن الارتواء . فتغنوا بالماء . ولأن بلادنا العربية تغدق عليها الشمس حرارتها طوال العام ، أصبح للماء أهميته الكبرى ، ولمن يمتلك عيونه وموارده الحق للفخر على بقية القبائل ، ولن ننسى قول عمرو بن كلثوم فى موضع فخره بقومه :

ونشـــرب إن وردنـــا الماء صفواً
ويشــرب غيـرنـا كـدرا وطـيـنـا

وفى العصر الحديث ومن تراثنا فى الغناء الشعبى الذى بقي متألقا يردده الناس فى كل مكان ، واستخدمه الفنانون فى الغناء وصياغة اللحن بل والأعمال التشكيلية ، وأيضا الجملة الشعبية الخالدة : عطشان ياصبايا دلونى على السبيل ..

وعندما تغرّب الشاعر الشعبى المبدع بيرم التونسى منفياً الى ميناء مرسيليا الفرنسى

سبيل العطشان

مهبط إلهام الشعراء ونبع أغاني المحبين
صفحة مشرقة في تاريخ العمارة الاسلامية

ليعيش غربة فرضتها عليه السلطة لأنه أدان الاستعمار بكل أشكاله ، تجلت عبقريته التى إختصه بها الله وكتب زجلا أودع فى كلماته الصادقه حنينه إلى الوطن جاء فيه :

عطشـــان يـــاصبـــايـــا
عطشـــان يـــامصريـــين
عطشـــان والنـــيل فى بلادكم
مـــتعكـــر مليـــان طـــين
ولانـــهـــر الـــرين يـــرويني
ولامـــيـــة نـــهـــر السـين
ودمـــوع العيـــن مـــاتـــروى
نـــــار القلب الحزيـــن
يـــابنت املى واسقـــينـــي
كـــاســات البـــنـــدكتـــين
فـــاضل على العتـــبـــة الخضرا
خمســـين يـــوم بـالــهجـين

السبيل والكوثر

لقد وضحت أهمية السبيل الإسلامى للقيمة التى أضفاها القرآن الكريم على المياه فى بعض الآيات مثل « وسقاهم ربهم شرابا طهورا » و « إنَّا أعطيناك الكوثر » و « وخلقنا من الماء كل شيء حي » . وقد كان شرف لبنى هاشم قبل ظهور الاسلام أن تختص بالسقاية فى زمن الحجيج الى مكة . وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن خير عمل من أعمال البر فقال « سقاية الناس » ..

والسبيل الإسلامى عاش عصره الذهبى فى العصرين المملوكى والعثمانى داخل القاهرة المعزية ، وقد تأثرت عمارته بالطرز المعمارية الأوربية خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر وخاصة طرازى « الباروك والروكوكو » .. وكانت هذه الأسبلة تقام داخل المنازل والمساجد والمدارس والخنقاوات ثم انفصلت لتصبح مستقلة على أن يعلوها مدارس أو كتاتيب لتعليم الأطفال ثم انتشرت على طول الطرق بين القرى والمدن واتخذت فى الريف طابعا بسيطا ، فهى اما زير فخارى مستقر تحت ظلال شجرة عتيقة ويثبت فى غطائه سطل من الصفيح ، أو عدة عيون أسمنتية فوقها قبة صغيرة وتملأ كل عين بالمياه النقية مع عدة كيزان نحاسية ثبتت فى النوافذ الصغيرة الخاصة بالسبيل . وربما تغير السبيل الثابت ليتحول إلى مجموعة من القلل والأباريق الفخارية يتسابق على تزويدها بالماء عابرو السبيل ، وكانت الأسبلة تقام عادة فى الأماكن المزدحمة . وفى الأسواق والوكالات ولم تكن تفتح إلا بين صلاة الظهر والعصر وفى وقت الحر الشديد .

وكان السبيل فى بادئ الأمر يتشكل من مبنى مربع الواجهة تزينه من ناحية أو من ثلاث نواح نوافذ نحاسية مزخرفة يستطيع عابر السبيل أن يمديده ليشرب من الماء الصافى فى حوضها الرخامى .. وفى أعلى السبيل يقع كتاب تعليم الأطفال والذى يصعدون إليه بواسطة سلم يقود الى غرفة الدارسين المتصلة بشرفة واسعة متجددة الهواء ..

وكانت الصهاريج يتم تنظيفها خاصة قبل الفيضان ويتم تطهيرها وتبخيرها .. أما المزملاتى فهو الشخص المكلف بنقل مياه السبيل ، وهذه الوظيفة كان يطلق عليها تسبيل المياه . وكان لأصحاب الأوقاف التى تنفق على إنشاء السبيل وتزويده بالمياه شروطهم التى يسجلونها فى أوراق الوقف وتتناول مايجب أن يطبق على المزملاتي من شروط وخصال أخلاقية . فقد كان من المحتم كما يقول الدكتور محمد أمين فى كتابه عن الأوقاف والحياة الاجتماعية فى مصر أن يكون المزملاتي رجل ثقة أمينا : جميل الهيئة نظيف الثياب وسليم البدن والجسد من العاهات . وذا قوة وشطارة ونهضة ومروءة وأن يسهل الشرب على الناس ويعاملهم بالحسنى والرفق ليكون أبلغ فى إدخال الراحة على الواردين صدقة دائمة وحسنة مستمرة .. وكان على المزملاتي تنظيف رخام السبيل ومسحه والعناية بالأدوات المستخدمة فى السبيل وهى الليف والكتان للتنظيف . وأوانى الشرب والمكانس الخوص والأسطال النحاس والأباريق والقلل الفخار وفوط المسح ..

وكانت مياه السبيل تُعطر بماء الورد ورائحة أزهار الليمون مع الحرص على أن تكون باردة . والأمر يرجع فى ذلك إلى السلسبيل أو الشذوران كما كان يسميه الفاطميون . وهو لوح من الرخام عالجه الفنان الاسلامى بحفر سطحه بأشكال وألوان من

● القـــرآن الكريـــم أضـــفى عـــلى المـــاء أهمّيّـــة خاصّـــة في أكـــثر من آيـــة قـــرآنيـــة

● مـــاذا قـــال "لـــين" و"ريـــمون" و"المقـــريـــزي" و"عـــلي مبارك" عن أسبلة القاهرة ؟

● كانت الأسبلة تقام داخل المساجد والمنازل ، ثم أصبحت منفصلة تعلوها كتاتيب تعليم الأطفال

الرسوم البارزة تمثل الطيور والأسماك والأمواج والأشكال الهندسية ، وبعض الحيوانات . وتحيط بسطح لوح الرخام الممتد لمسافة ثلاثة أمتار ، والذى تنساب فوقه المياه ببطء متخللة ثنايا الرسوم ، وحين وصولها الى الحوض تكون قد امتصت برودة الرخام واستحقت أن تسمى بالماء السلسبيل ، اسم العين التى ذكرت فى القرآن الكريم .. « ويُسْقَوْنَ فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا عينا فيها تسمى سلسبيلا » صدق الله العظيم .

وكان بناة الأسبلة يفتخرون بما بنوه . ويحرصون على نقش اسم من أنشأ السبيل ، ولذلك تبارى علية القوم والعامة والنساء أيضا فى بنائها ؛ ففى جوار باب زويله سبيل « رقية دودو » وجلسن وبدوية شاهين ، بدرب الحجر قرب السيدة زينب ، وسبيل منزل حسيبة غزال بمدينة رشيد ، وسبيل أم محمد على الصغير بميدان المحطة .

السقا شربة

والسبيل الإسلامى له تاريخ طويل رصده المؤرخون فى كتبهم ، وعلى رأسهم على باشا مبارك فى خططه التوفيقية ، والمستشرق الفرنسى أندريه ريمون فى كتابه « فصول من التاريخ الاجتماعى للقاهرة العثمانية » والمستشرق الانجليزي « ادوار وليم لين » : (المصريون المحدثون : عاداتهم وشمائلهم) ...

يقول على باشا مبارك (الزمان أواخر القرن التاسع عشر) .. يوجد الآن بمدينة القاهرة مائتا سبيل ، والسبيل عادة يتركب من ثلاث طبقات ؛ الأولى تحت الأرض ، وهى الصهريج ، وهو إما كبير أو صغير ، وتحمل عقوده على أعمدة ، ولكل صهريج خرزة من الرخام أو الحجر مثل خرزة البئر ، والطبقة الثانية مع مستوى الأرض أو فوقه بقليل وفيها المزملة لتفريق الماء بكيزان من النحاس مربوطة

● كل الرحالة الاوروبيين تحدثوا عن هذا الرجل الذي يحمل تحت إبطه "قربة" من الجلد وهو ينادي: "يعوض الله"!

بسلاسل ، وللمزملة شباك من النحاس . والثالثة مكتب لتعليم الأطفال . وفى زمن الفرنساوية كان الموجود منها مائتين وخمسة وأربعين سبيلا : منها نحو ستين سبيلا من أعظم المبانى المتقنة الفخيمة . وبالنسبة للباقى منها الآن يكون عدد ما اندثر منها فى ظرف تسعين سنة خمسة وأربعون سبيلا بسبب الاهمال والترك . وقبل أحداث تقسيم مياه القاهرة كان لتلك المبانى أهمية عظيمة ، خصوصا فى زمن تحاريق النيل ، والآن قلت هذه الأهمية . ومع ذلك مازال أكثرها مستعملا ، وقدرت بوجه التقريب مايمكن خزنه فيه من الماء فوجدته قريبا من ستمائة ألف قربة ، كل خمسة عشر منها متر مكعب والباقى من المكاتب التى فوق الأسبلة المذكورة هو ست وسبعون مكتبا .. ويوجد بالقاهرة أيضا حيضان لسقي الدواب وكانت فى الأزمان السابقة يعتنى بها ، وكان أغلبها بقرب الأسبلة . وهى عبارة عن حيضان من الحجر تعمل فى فجوة معقودة مزينة بأعمدة وقباب ، أعتنى بزخرفتها ، وكانت مجعولة لسقي الدواب على اختلاف أجناسها .. وكان لها أوقاف يصرف عليها من ريعها لبقائها ، والآن لم يبق منها إلا النادر وهو غير مستعمل ..

ويقول المستشرق « الفرنسى أندريه ريمون » إنه كان يوجد بالقاهرة عام ١٨٠٦ م ثلاثمائة سبيل معظمها كان عبارة عن منشآت خيرية أسسها بعض الأمراء الأغنياء لمنفعة السكان . وكان هناك أيضا السبيل المتنقل الممثل فيما يسمى « بالسقاشربة » وهو بائع المياه بالقطاعى ، فى الشوارع . وكان هؤلاء الباعة يمثلون طائفة من السقايين انتشرت فى القاهرة ومصر القديمة وحي بولاق ؛ وهؤلاء الباعة أثاروا انتباه الرحالة الأوربيين ، فمن ليون الافريقى حتى إدواردلين يكاد لايوجد رحالة لم يتحدث عن « السقاشربة » الحامل تحت إبطه قربة من الجلد ذات خرطوم طويل من النحاس أو برميلا صغيرا والذى يعلن عن نفسه بنداء « يعوض الله » .. ويضيف لين أن بعض أسبلة القاهرة زودت بأحواض خارجها تأخذ منها السيدات مايلزمهن من المياه مجانا ، كما كانت هناك خراطيم ليشرب منها العطشى من المارة بل لقد كان بعض السقايين أنفسهم يترددون على هذه الأسبلة ليتزودوا بالمياه التى سيبيعونها للمارة بالقطاعى . وهذا العدد الكبير من الأسبلة الموزعة على أحياء القاهرة كان يكفى حتى نهاية القرن التاسع عشر لضمان وجود المياه الصالحة فى متناول الأهالى اللهم إلا إذا حالت الأحداث الخارجية دون تموين هذه الأسبله . وكان يلحق بهذا السبيل أحواض جميلة المنظر خصصت لسقاية الماشية ... ويقول المؤرخ العربى المقريزى إن الأسبلة كانت وسيلة لنيل الثواب لمن بناها وقد نظمت وثائق الوقف أجر العريف الذى يعلم الصبية فى



كتاب السبيل وكان من حق كل تلميذ يتيم أن يمنح كسوة فى الشتاء وأخرى فى الأعياد والصيف ومبلغ من النقود فى المواسم ويمنح كل تلميذ مكافأة بعد حفظه للقرآن.

تأثير الفن الأوربي

وعن أهم الأسبلة الاسلامية الباقية يتحدث الأثرى عبدالله العطار مدير عام الآثار الإسلامية فيقول إن ماتبقى منها اليوم تجرى داخله وحوله أعمال الترميم والتنظيف وأقدمها سبيل السلطان « محمد بن قلاوون » وكان هذا السلطان قد بنى مجموعته المعمارية المتميزة بمنطقة النحاسين فى قلب القاهرة المعزية وألحق بها الى يسار الداخل حوضا لسقي الدواب مما جعل الأهالى يضجون بالشكوى الى أن جاء الأمير « كمال الدين أقوش » المعروف بنائب الكمك فهدم هذا الحوض وبنى سبيلا بدلا منه .. وسبيل السلطان قايتباى الذى أخذ الشكل المستقل وظهرت على جدرانه روعة الفن الزخرفي المملوكي وذلك لأن عصر السلطان قايتباى فى أواخر القرن التاسع الهجرى تميز بالزخارف المتقنة خاصة على مستوى النحت بالحجر وواجهات هذا السبيل ممكن اعتبارها معرضا لفن النحت فى ذلك العصر لكثرة واختلاف النقوش الحجرية عليها كما أنها زينت أيضا بالرخام الملون المعشق ذى لونين أو ثلاثة وعلى جدرانه أيضا كتابات قرآنيه واسم السلطان قايتباى.

ومن أسبلة القاهرة الهامة سبيل الأمير عبد الرحمن كتخدا هذا الرجل الذى تكاد أن تصل رسالته فى رعاية الفن المعمارى إلى أهمية رسالة آل الديتشي فى فلورنسا فهو صاحب الروائع المعماريه فى مسجد السيده زينب وقبة الامام الحسين ويقع سبيل الأمير كتخدا فى شارع المعز بقلب القاهرة .. وسبيل ابراهيم باشا وأنشأته زوجة أحمد باشا شقيقة الخديوي إسماعيل وواجهته مقوسه أو شبه مستديرة بنيت بالرخام الأبيض وعليها زخارف كثيفة مذهبة ومحفورة فى الرخام وطراز البناء والنقوش ليس من الطراز الاسلامى التقليدى الذى يميز العمارة المملوكية فى العصور الوسطى ولكنه شديد التأثر بالفن الأوروبى وفوق هذا السبيل كان يوجد كتاب كما جرت بذلك العادة ولكنه لم يكن كتابا بالشكل القديم التقليدى لحفظ القرآن الكريم فقط بل كانت تدرس فيه أيضا مختلف العلوم الأخرى مثل الرياضة واللغات والعلوم الحديثة .. وكانت الأسبلة تبنى بحيث يكون لها واجهتان لكى يسهل مرور الهواء وليظل الماء رطبا وفى نفس الوقت يسمح لعدد كبير من الناس الوصول إلى الماء. وفى أواخر العصر العثمانى كانت الأسبلة تقام على شكل واجهة نصف مستديرة على طراز أسبلة استنبول.

دُرّة الفن .. « سبيل أم عباس »

وقد جاء فى كتاب الدكتور ثروت عكاشه « القيمة الجمالية فى العمارة الاسلامية » انه رغم الاختلاف بين العمارات الاسلامية فى



● [illegible]
لسبيل النيل
وهو يعيش غربته
على ضفاف السين

● تأثير أسلوب
« الباروك والروكوكو »
على جماليات عمارة
الأسبلة وزخرفتها

سبيل عبد الرحمن كتخدا (بالنحاسين)
(١١٥٧ هـ - ١٧٤٤ م)

بعض التفاصيل أو فى العناصر المعمارية الانشائية إلا أنها جميعا تشترك فى وحدة الروح الإسلامية الكامنة وراء التشكيلات والتكوينات الزخرفية التى أصبحت تقليدا معماريا يحفظه البناءون عن ظهر قلب..

والأسبلة كانت الدليل القاطع على رعاية الإسلام للإنسان مهما كان جنسه أو دينه من خلال توفير المياه العذبة لشربه وهو مالم تحققه أوروبا فى عصر إنشاء السبيل العربى الإسلامى..

وقد استمر الطراز المملوكى فى الأسبلة حتى العصر العثمانى وبداية حكم محمد على باشا الذى بهر هو ومن خلفه السلاطين بالأسبلة المملوكية.. والنموذج الأول للسبيل العثمانى هو فى نفس الوقت درة الأسبلة كلها وأجملها وأروعها من ناحية البناء والتصميم والنقوش هو سبيل أم عباس فقد شيدت بالقاهرة ثلاثة أسبلة قبل القرن السابع عشر وثلاثة وثلاثون سبيلا فى القرن السابع عشر ومثلهم فى القرن الثامن عشر ويعتبر سبيل والدة الخديوى عباس الأول من الآثار الإسلامية الفريدة ويقع بشارع الصليبة بالقرب من حى القلعة، أنشىء سنة ١٢٨٤ هـ - ١٨٦٧ م. ويتميز بجودة أعمال الرخام والأخشاب الملونة المذهبة ولما كانت حالة السبيل المعمارية والانشائية جيدة كما يقول الدكتور أحمد قدرى رئيس هيئة الآثار المصرية فلم يكن فى حاجة إلى ترميم معمارى أو هندسى يذكر إلا فى بعض الأماكن البسيطة مثل الأرضيات وترميم بعض الجدران من الداخل وبقدر بسيط للغاية. وقد تم تنظيف الواجهات الرخامية باستخدام الأساليب العلمية المتطورة وأيضا تنظيف الشريط الكتابى الذى يعلو السبيل مما علق به من أتربه تثبتت بطول الزمن. وكذلك علاج النوافذ المعدنية البرونزية وإزالة طبقات الأكسدة التى تغطى الزخارف. وتقوية أرضيات السبيل وتثبيت المنفصل عنها وإظهار الألوان القديمة على جدرانه وبذلك تألق هذا الأثر الإسلامى النادر بعد أن نفض عن واجهته تراب الزمن ليظل ضمن تراث الفن الخالد الذى تعتز به كل البلاد الإسلامية.

فاروق أباظة

الليل ليل والنهار ليل

الفوائد الخفية للمؤتمرات الأدبية

قلت ليوسف السباعي : «عندما كنت حيا ، كنت خير من نظم المؤتمرات الأدبية» .

قال يوسف السباعي : «هذه حقيقة لاينكرها حتى الخصوم» .

قلت : «وماهي فائدة تلك المؤتمرات ؟» .

قال يوسف السباعي : «لها هدفان : هدف علني ، وهدف سري» .

قلت : «هل تحدثني عن الهدف العلني ؟» .

قال يوسف السباعي : «الهدف العلني هو البحث في أحوال الأدب وإقرار توصيات بغية تطويره ، وهي توصيات للنشر في الصحف ، وملعون من ينفذها» .

قلت : «وما الهدف الآخر السري ؟» .

قال يوسف السباعي : «إتاحة الفرصة للأدباء كي يأكلوا مجانا وينامو مجانا في أفخم الفنادق» .

قلت : «إذن هذه المؤتمرات أشبه بالتكايا ، ولافائدة أدبية فيها ؟» .

قال يوسف السباعي بتأنيب : «كن ذا نظر ثاقب . أليس العقل السليم في الجسم السليم ؟ والنتاج الابداعي لاينبع الا من عقل سليم ، والطعام والنوم اذا كانا بلا ثمن هما خير وسيلة لبناء الجسم السليم» .

وقال يوسف السباعي : «يحق لي لومك . أنسيت أني روائي ؟ لماذا لم تسألني عن رأيي في الوضع الراهن للرواية العربية ؟» .

قلت : «هل تستطيع تقديم تأويل مقنع لازدياد عدد الروائيين ؟» .

قلت يوسف السباعي : «إنهم مازالوا قلة . انتظر ، في المستقبل سيصبح كل عربي صاحب مطبعة يكرسها لطبع رواياته فقط . نحن لانحكي ونثرثر فقط بل نكتب ثرثرتنا أيضا» .

آثر الاقامة بالبيت

قلت لابن بطوطة : «ألا تزال تطوف في أرجاء تلك الدنيا التي يسكنها عباد الله مسجلا ماتراه ؟» .

قال ابن بطوطة : «لا .. فالسفر من بلد الى بلد كان عادة من عاداتي التي تنبهت الى أنها ضارة سيئة ، فاستأصلتها بغير رحمة» .



قلت : «وهل هناك أجمل من السفر ؟ يسافر الانسان بعيدا عن وطنه ، فيستريح هو وتستريح دولته . هل لك أن تخبرني بالأسباب التي حضتك على اتخاذ مثل هذا الموقف الغريب المناوئ للعلم والسياحة ؟» .

قال ابن بطوطة : «لأني أدركت ان المواطن الصالح ليس هو ذاك الذي يتحول الى سائح يبدد أموال وطنه في بلاد أجنبية بل هو الذي يحول الأجانب الى سياح يستولي على مافي جيوبهم لاقتصاد بلاده» .

قلت : «لابد من أنك اذن تسافر من بلد عربي الى بلد عربي» .

قال ابن بطوطة : «أنا لاأغادر بيتي الا للذهاب الى طبيب الاسنان ، ولا أسافر الى أيّ بلد عربي» .

قلت : «وما هي الأسباب ؟» .

قال ابن بطوطة : «الأسباب جلية ، ولاتحتاج الى سؤال» .

قلت : «مادمت قد سألت عنها فهذا يدل على انها بالنسبة اليّ غامضة مجهولة» .

قال ابن بطوطة : «أنا لاأسافر لأن الحدود بين البلدان العربية لم تعد حدودا بل صارت خنادق» .

قلت : «اذا كان هذا هو رأيك : فما موقفك من قضية الوحدة العربية ؟» .

قال ابن بطوطة : «أنا من أنصارها المتحمسين ، وأطالب بتحقيق الوحدة العربية الفورية الشاملة بين بيت وبيت ، وبين شارع وشارع» .

فقلت لابن بطوطة : «أنت خيالي تعيش في الفضاء بينما الواقعي الذي يعيش على الأرض يطالب بالوحدة بين غرفة وغرفة» .

أبو الفوارس سابقا

قلت لعنترة العبسي : «أرى وجهك ناصع البياض ، فكيف حدث هذا ؟ هل الأمر له علاقة بتطور العلوم أم أن كتب التاريخ لم تكن تقول الصدق كعادتها ؟» .

قال عنترة : «ماتراه عيناك ليس لونا . إنه بياض الرعب» .

قلت : «أتعرف الرعب وأنت فارس الفرسان وسيد الشجعان ؟» .

قال عنترة : «أنا لست بالجبان . ولكن ما أقرأه من نتاج أدبي معاصر يجعل

الزئير مواء والفيل بعوضة. وحتى الأنهار لو كانت غير أمية، وقرأت مختارات من ذلك الأدب لتحولت الى مجرد رمال لاتنبت سوى الشوك».

قلت: «وأين سيفك؟».

قال عنترة: «لا تذكرني به فقد صادره رجال الشرطة، واعتقلت. وحقق معي تحقيقا غير مهذب بتهمة اني ارهابي من أنصار العنف والاغتيال».

قلت: «وكيف أطلق سراحك؟».

قال عنترة: «لأن السجن كان مزدحما بروادە».

قلت: «وأين جوادك؟».

قال عنترة: «ماذا أفعل به في عصر السيارات والطائرات؟ لقد بعته. وقدمت ثمنه رشاوى لبقة للنقاد كي يقرظوا قصائدي تقريظا يغري المغنيات والمغنين بشرائها مني».

قلت: «أما زلت تنظم أشعار حب لعبلة؟».

قال عنترة: «لا لا. ابتعدت عن مثل هذا الشعر التافه الأناني الذي يعبر عن هموم فردية. ولم أعد أكتب الا الشعر الذي يعبر بصدق عن هموم الأمة».

قلت: «لا أصدق».

قال عنترة: «أتجرؤ على الشك في التزامي الأدبي والوطني والقومي؟».

فقلت لعنترة العبسي: «هل أصدق ما أحياه يوميا وأصدق مجرد حكي؟ لو كان ما قلته صحيحا لما كنت تمشي في الشارع، ولكنت في السجن تئن كنعجة تجر للذبح».

حالم على الطريقة العربية

قلت لجبران خليل جبران: «أمامك أكداس من الورق، ويدك تمسك القلم متأهبة للكتابة. فما هو جديدك؟».

قال جبران: «لديّ مشروعان أنوي تنفيذهما. المشروع الأول ينبع من أني لست راضيا عن كتبي، وأجدها متخلفة مقصرة. وسأحاول كتابتها كتابة جديدة حتى تصبح كالتالي:

كتاب «العواصف» سيحكي عن أشجار حرضت العواصف على الخلاف والتشاجر. وعندما اختلفت العواصف وتشاجرت كانت الأشجار هي الضحية.

كتاب «الأجنحة المتكسرة» سيحكي عن أناس كانوا ذوى أجنحة، ويطيرون كما تطير الطيور، ولكنهم فقدوا الأجنحة لأنهم اختاروا أن يحكمهم الصيادون، وبقيت الغربان وحدها تطير.

كتاب «الأرواح المتمردة» سيتناول بالبحث والتحليل والتقويم أوضاع لبنان. ويقترح تحويله الى وطن للأرواح مادام سكانه يهلكون تدريجيا.

كتاب «دمعة وابتسامة» سينبه الناس الى أنهم لايحق لهم الشكوى لأن دموعهم أكثر من ابتساماتهم. فالدمعة تنظف العين وتقويها وتزيد من بهائها، أما الابتسامة فلا غاية لها الا اظهار الأسنان والأضراس. وهي غاية تافهة لاتستحق أدنى اهتمام.

كتاب «البدائع والطرائف» سيعنى بايصال حقيقة خطيرة منسية ملخصها أن البدائع هي أن يحيا الانسان بلا ذل، وأن الطرائف هي أن يستمر في الحياة مرحبا بالذل».

قلت: «وماهو مشروعك الثاني؟».

قال جبران: «سأصدر مجلة أدبية فكرية فنية، وأتلقى الدعم المادي والمعنوي من جهات شتى، ومن يماطل في الدفع عدو للأدب الأصيل والفكر العميق، وستلعنه الجماهير ويدينه التاريخ».

الأمـــس واليـــوم

قلت للشنفرى: «لماذا تتسكع في الشوارع رث الثياب، منكس الرأس، مهموما، ولاسيما أنك الشنفرى، الشاعر الشهير، المقاتل، المتمرد، وصاحب سيف أقسم أن يقتل مائة من خصومه، وبرّ بقسمه؟».

الشنفرى: «أنا بلا عمل. ومن كان بلا عمل افترسه الهمّ والغمّ والجوع».

قلت: «على العكس، فمن كان بلا عمل حقّ له أن يفرح، فالعمل هو سنوات كلها تعب وعناء من دون يوم واحد للحصاد».

قال الشنفرى: «ولكني سأموت جوعا اذا لم أعثر على عمل ما في وقت قريب».

قلت: «الجوع صديق قديم لمعظم العرب، والعربي الذي لايجوع بين الحين والآخر هو مواطن مشكوك في عروبته ووطنيته».

قال الشنفرى: «لابد من ايجاد عمل لي يتناسب مع مؤهلاتي».

قلت: «وماهي مؤهلاتك؟».

قال الشنفرى: «أنا كما تعلم أملك سيفا بتارا».

قلت: «اذا بعت سيفك فلن يكفي ثمنه لاطعامك خمسة أيام، أما اذا شهرته مهددا، فلن تخيف أحدا. فقلوب الناس قست وتحجرت الى حد أن سيفا مثل سيفك لا عمل له الا في مطابخ المطاعم».

قال الشنفرى: «وأنا أملك أيضا من الكلمات ماهو أروع من كنز».

قلت: «الكلمات هي كلمات، ولم تخترع بعد وسيلة تحولها الى نقود».

قال الشنفرى: «أستطيع نظم شعر، بعضه يرضي الحاكم، وبعضه يرضي المحكوم».

قلت: «ارحم قومك، تكفيهم اسرائيل واحدة».

قال الشنفرى: «سأكتب قصصا قصيرة متلائما مع متطلبات العصر».

قلت: «تأخرت. فالموضة الرائجة الآن هي تربية الكلاب وكتابة روايات طويلة للغاية».

قال الشنفرى: «سأشتغل في التجارة، وأبيع وأشتري، وأجني الأرباح الطائلة».

قلت: «بيع المواطن والوطن هو التجارة الوحيدة المضمونة النتائج، غير الخاسرة».

قال الشنفرى: «سأصبح متسولا».

قلت: «ستصبح متسولا يطلب العون من متسولين».

قال الشنفرى: «سأسرق».

قلت: «اذا سرقت فلا تسرق ساقية والا عوقبت شر عقاب».

قال الشنفرى: «لن أسرق الا البحار وما يشابهها».

قلت: «اذا نجحت فأنت من الخالدين، ولكنك لن تنجح. فمن يسمح له بأن يسرق بحرا ينبغي له أن يكون من قبل قد سرق حرية شعب».

قال الشنفرى: «سأتملق وأنافق».

قلت: «المنافقون كثيرو العدد الى حد أنك قد تموت قبل أن يأتي دورك لتنافق».

قال الشنفرى: «لم يبق لي سوى أن أضحك».

قلت: «لايوجد في الحياة العربية سبب واحد للضحك، والضحك من غير سبب هو قلة أدب، فهل توافق على أن تكون قليل الأدب؟!».

هل توجد حضارات عاقلة في الفضاء؟!

بقلم: المهندس سعد شعبان

- ما لدينا من علم لا يمثل إلا حصاة على شاطئ المعرفة

- لماذا نقيد أنفسنا بالبحث عن الحياة على كواكب المجموعة الشمسية وحدها والكون يغص ببلايين الكواكب؟



على الصفحة المقابلة لقطتان ، الأولى للكوكب الأحمر في المريخ ... والثانية للايين السدم والمجرات في الكون .. وعلى هذه الصفحة لقطة لمنظر من فيلم سينمائي عن غزو المريخ

من العسير أن نتحدث عن احتمالات وجود الحياة على كواكب أخرى غير الأرض أو في الفضاء ونحن مجردون من العاطفة ، أو دون أن ندع الخيال يشطح بعيدا ، ذلك أن وسائل الاستطلاع الميسرة لدينا على الأرض ، لم تبلغ الحد الذى يستطيع أن يحسم قضية مثل هذه ، أو أن تعطي من القياسات والاستقراءات مايغني عن التأويلات والاحتمالات .

غير أن الحقيقة ليست ضائعة تماما في تيه من المجهول ، الى الحد الذى يجعل الظنون والخيالات بعيدة عن المناقشة العلمية المجردة ، ذلك أن عصر الفضاء قد طرق باب المجهول ، وأصبح هذا الباب مفتوحا على مصراعيه ليتيح قدرا كبيرا من المعرفة يستطيع أن يبدد ظنون الماضى ، فسفن الفضاء أصبحت تعد بالعشرات ، وبعضها يتجول بين الكواكب ، وبعضها مضى عليه عشرات السنوات وهو يكشف عن مزيد من الأسرار التى لم يعرفها الفلكيون من قبل .

وقضية الأحياء في الفضاء خارج الأرض ، تتجاذبها أطراف متعددة ، فتجعلها تتأرجح بين آراء رجال الدين ، مستندين الى ما ورد في الكتب المقدسة ، وبين نظريات العلم المجردة التى يستند العلماء فيها الى قياسات سفن الفضاء عن أجواء الكواكب والصور التى وصلتنا منها ، وقبل ذلك كله ما توارد لنا عبر عديد من السنوات ، من خيالات بعض علماء الفلك والبيولوجيا الذين حاولوا الاجتهاد في هذا الامر ، وأدلوا بدلوهم فيه ، استنادا الى ظنون أو اعتمادا على منطق أو تحليل أو جريا وراء بعض الاحتمالات .

ولا شك أن كل مثقف في عصرنا ، تثور في نفسه عديد من الأسئلة المحيرة التى راودت كثيرين في عصور سابقة ، والتى لم تجد الى الآن اجابات شافية من أحد ، رغم أننا نعيش عصر الفضاء ومنذ عام ١٩٥٧ .

هل يمكن أن نكون بمفردنا في هذا الكون الذى لاحدود له ؟ .

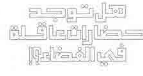
وهل من أحياء في مكان آخر من الكون ؟ . واذا كانت هناك حضارات أخرى غيرنا ، فهل هى عاقلة ، أم تفوقنا ذكاء ؟ .

ولماذا لم يحدث اتصال بيننا وبين هؤلاء الأحياء حتى الآن ، وهل تقف اللغة عائقا بيننا وبينهم ؟ .

لاشك أن العلم مازال يتلمس طريقة للاجابة على هذه الأسئلة ، وما يستتبعها من قضايا ومسائل أخرى وربما لاتمضى غير أعوام قليلة حتى نتثبت أننا على أول الطريق الصحيح لمعرفة الحقيقة .

ولذلك فان مجال البحث يجب أن يكون شاملا الفضاء في أرجاء الكون كله ، وليس قاصرا على البحث عن الحياة على كواكب المجموعة الشمسية وحدها ، فهذه جزء من كل ، ولاشك أننا نعنى بالحياة المعنى العام للكائنات الحية ، سواء في ذلك المملكة النباتية أو الحيوانية أو الانسانية وغير ذلك .

ولابد أن نستبعد من تفكيرنا صورة الحياة



تصور الفلكي الايطالي شياباريلي وجود قنوات للري على المريخ

البشرية التي تعودناها على الأرض ، ممثلة في انسان يدب على رجلين ، وله ذراعان وعينان ورأس وجسد ، فمثل هذه الصورة قد تكون مفقودة في الفضاء ، وربما يوجد لها بديل له تكوين آخر ، بل تركيب كيماوي آخر ، بل ربما تسلسلت الحضارة الحياة على بعض الكواكب ، أو في بعض أرجاء الكون في حلقات زمنية .

المريخ ... لماذا ؟

لقد نشط بعض القائلين في تصور وجود أحياء على الكواكب اخوات الارض في المنظومة الشمسية . وهذا لايعدو أن يكون ضربا من ضروب شطحات الخيال .

فتخيلوهم ذوى أطراف وأشكال وأحجام غاية في الغرابة والطرافة ، لان الترجيح الذى كان مسيطرا عليهم هو أن يكون هؤلاء الأحياء أقل ذكاء من سكان الأرض .

وقد حظى كوكب المريخ بأغلب هذه الخيالات باعتبار ترجيح وجود الماء عليه .

ولأن الماء هو العنصر الأساس الذى ترتبط به الحياة مصداقا لقوله تعالى « وجعلنا من الماء كل شيء حي » . فقد غلب الفلكيون منذ مئات السنوات احتمال وجود الماء على كوكب المريخ ، من خلال تفسيرهم للصور التي رأوها لسطحه بواسطة عدسات المراصد الفلكية .

ولأن محور المريخ مائل على مداره كميل محور الأرض ، ولذلك فان عليه فصولا كفصولنا ، ولكن مدتها تقرب من ضعف مدتنا .

وهو يلي الأرض مباشرة بعدا عن الشمس « المريخ » ويبلغ قطره نصف قطر الأرض وثقل الجاذبية عليه عن الجاذبية على الأرض ، ويتم دورته حول الشمس خلال ٦٨٧ يوما من أيام الارض ، أى فيما يقرب من عامين من أعوامنا .

ولأنه سيّار علوى مداره خارج مدار الأرض فإننا نراه غالبا في شبه استدارة كاملة . وهو يتم دورته حول محوره في مدة تقرب من يوم الأرض ولا تزيد عنها الا بضع دقائق .

ومرجع ذلك الى ما أعلنه كثير من الفلكيين القدامى منهم « شياباريلي » ودبكرنج « وليلاند » عن رؤيتهم لقنوات تبلغ آلاف الكيلومترات طولا على سطحه ، كما ظهرت مساحات متغيرة الألوان من زمن لآخر . وفسروا تغير لونها بأنها مناطق زراعية يحصد زرعها ، ورجحوا أن صورة الحياة النباتية ربما وجدت على هذا الكوكب لأن جوه يندر به الأكسجين ، ونسبة بخار الماء به قليلة ، ولكن يكثر به ثاني أكسيد الكربون . وزاد من هذه الترجيحات أن المريخ يتعمم بطاقيتين تظهران في بروز عن سطحه ، وبلون أبيض يخالف اللون الأحمر الذى يغلب عليه ، وتتركز الطاقيتان فوق قطبيه ، ولكنهما ليستا ثابتتي الحجم ، فهما ينحسران أى يقل حجمهما أحيانا ، ثم تعودان الى الازدياد ، ولذلك يرجح أنهما من الجليد المتكون على طرفي محوره .

ولقد ولع كثير من الفلكيين بتسجيل أشكال سطح المريخ بين ساعة وأخرى ، مع رسم « خرائط » لها تبين المناطق الداكنة واللامعة منها .

ولقد صور الفلكي « لوويل » شبكة من الخطوط الملتقية في نقط خاصة على سطح المريخ ، ونظرا لاستبعاد حدوث « الصدفة » في التقائها في عقد خاصة ، فقد فسر وجودها بأنها من صنع قوم أذكياء ، وأنها ليست الا قنوات للرى حفرت بدقة لنقل الماء من مكان لآخر .

ومما شجع على تفسير وجود القنوات أنه في الوقت الذى تنحسر فيه الطواقي الثلجية قرب القطبين ، فإن الظلال تمتد الى قرب خط استواء المريخ ، وتنبسط المساحات الداكنة ، وتميل الى الاخضرار بدرجات متفاوتة ، وعندما تعود الطاقية العلوية الى الازدياد في الحجم تختفي ، أو يتبدل لونها .

ويفسر ذلك بحلول الشتاء ، فإن المساحات الداكنة تتضاءل مساحتها ويتبدل لونها من اللون المائل الى الاخضرار الى اللون البني . لذلك عندما تثبّت هؤلاء من وجود الماء على هذا الكوكب ، فقد أسرف الكثيرون في تصور أهل المريخ كمخلوقات غريبة تختلف عن سكان الأرض ، كما برع السينمائيون في انتاج أفلام تصور غزو هذه المخلوقات للأرض .

ولقد قطع الشك باليقين عندما حطت بعض سفن الفضاء برفق على كوكب المريخ ونقلت صورا لسطحه بعد أن حفرت فيه ثقبا وحللت بعضا من صخوره لتقف على تكوينها الكيماوي ، وأصلها الجيولوجي في معمل كانت تحمله بداخلها .

لقد تحقق ذلك بواسطة السفينتين الامريكيتين « فايكنج ــ ١ » ، ثم « فايكنج ــ ٢ » اللتين حطتا عليه برفق في صيف ١٩٧٦ . ولقد انتهت نتائج تحليل العينات التي اقتبست بواسطتهما من المريخ الى وجود بعض دلائل الحياة على هذا الكوكب وذلك داخل معمل كيماوى صغير كان فوق متن السفينة نفسها .

ولقد عكف العلماء على تحليل الصور التي استقبلت من هاتين السفينتين ، فتبين أن ماظنه القدامى قنوات للرى ليست سوى شقوق غائرة في تربة الكوكب ، وفوالق جيولوجية تمتد مئات الكيلومترات ، وأن ماظنوه مساحات منزرعة لم يكن غير كثبان للرمال تتحرك فوق مناطق غائرة ، وتذروها الرياح من مكان لآخر ، فتأكد لهم أن المريخ له جو محيط

● وفقاً لنظرية الاحتمالات ، لا يُعقل أن تقتصر ظروف وجود الحياة على واحد فقط من بلايين البلايين من الكواكب

● أسرار جديدة عن "المشتري" و"زحل" و"أورانوس" ستكشفها لعلماء الفلك السفينة الفضائية "فويجر"



تغير الظلال على المريخ

به . وبه بعض من بخار الماء . وفى جود بعض السحب . فرجح مالديهم من ظنون من وجود بخار الماء الذى هو المكوّن الأساسى لكل ألوان الحياة .

العلم والبحث عن الحقيقة

فى القرآن الكريم آيات تعبر عن البحث عن الحقيقة . واتساع آفاق العلم بلا حدود . مما يجعل الانسان يقف عاجزاً أمام هذه الحقائق « قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي ، لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا » (سورة الكهف ١٠٩) .

ولقد عبر نيوتن . أبو الجاذبية : وواضع علم التفاضل والتكامل . عن ذلك بقوله « ان ما لدينا من علم لايمثل إلاّ حصاة على شاطىء المعرفة » .

وقضية عقلاء الفضاء . أو وجود أى لون من الحياة فى الفضاء . أو على أى من كواكب مجموعتنا الشمسية غير الأرض . قد حدث نحوها تحرك علمى فى اتجاهات متعدده هى :

● تجمع لدى العلماء كثير من القياسات التى سجلتها الأقمار الصناعية وسفن الفضاء عن طبيعة وتكوين طبقات الفضاء بما يمكن معه القول إن القياسات . لم تقطع بعد بوجود حضارات عاقلة فى الفضاء . ولكن لاتنفى وجودها .

● أصبح لدى علماء الارض . صور سجلتها سفن الفضاء لسطوح بعض الكواكب هى بالتحديد عطارد والزهرة والمريخ والمشترى ، توضح طوبوغرافيتها وترسم صورة واضحة عن معالمها .

● كما تجمعت لديهم العناصر اللازمة لمعرفة طبيعة الأجواء المحيطة بهذه الكواكب . من حرارة وضغط ومكونات . فقد عرف أن جو كل من كوكب عطارد والزهرة مرتفع أما المريخ فتوجد عليه آثار من الماء .

● حطت بعض سفن الفضاء برفق على سطوح بعض الكواكب ، منها المريخ والزهرة والمشترى ونقلت صورا لطبيعة هذه السطوح . بل حفرت فيها بعضا من صخورها لتقف على تكوينها الكيماوى ، وأصلها الجيولوجي .

● عكف كثير من علماء الجيولوجيا والفلك على دراسة مكونات الشهب والنيازك . التى تساقطت على الارض منذ مئات السنوات .

والغرض من ذلك هو البحث عن وجود عناصر أو مكونات غير مألوفة لنا على الأرض ، والثابت أنه الى الآن لم يعثر العلماء على عناصر أو جزئيات أو معادن فى الأجسام الكونية التى وصلت الى الأرض . سواء تلك التى سقطت من السماء أو فى العينات التى أحضرها رواد الفضاء من القمر . أو التى جلبتها سفن الفضاء منه .

● منذ أوائل الثلاثينات ظهر الى الوجود علم جديد . أضاف حلقات هذا البحث حلقة قوية . وربما تمثل رأس الجسر الى المجهول . ذلك هو علم « الفلك الراديوى » (Radio Astronomy) : الذى يعنى بالتقاط الاشارات الكهرومغناطيسية التى يمكن استقبالها من اتجاهات معينة فى الفضاء وقد ظهرت بوجود هذا العلم شبكات من هوائيات استقبال الاشارات الكونية . اتخذت اشكالا ضخمة . وتصميمات خاصة تتناسب مع خفوف هذه الاشارات الفضائية . وانتشر تصميم هذه الهوائيات فوق رقع متسعة من المناطق الخلوية . بقصد استقبال أكبر قدر من هذه الاشارات .

وعكف العلماء على محاولة تحليلها . وتفسير انتظامها . أملاً فى الوصول الى ما اذا كانت صادرة عن حضارة عاقلة فى الفضاء ، أو انها لاتعنى شيئا . ولا شك أن العقول الالكترونية سوف تستطيع قريبا . أن تعطى تفسيرات مرضية لهذه الاشارات شبه المنتظمة . وتستنبط منها لغة سكان الفضاء . وسنتعرض بشىء من التفصيل لأمر هذه الاشارات فيما بعد . باعتبارها ركيزة العلم الحديث فى السعى الى عقلاء الفضاء .

● منذ نهاية الحرب العالمية الثانية . وحتى اليوم يتوارد من آن لآخر . ذكر « الأطباق الطائرة » وما تتركه من آثار على الأرض .

ولقد تواترت أخبار متضاربة وغريبة على مر هذه السنوات . عن تحليق بعض هذه الأطباق . وسرعاتها البارقة . وأشكالها المختلفة ومظهرها المريب . وآثارها التى تركتها على الارض . وزعم البعض أن هذه الأطباق مركبات يمتطيها سكان كواكب أخرى . أتوا لاستكشاف بقع غير مأهولة من الأرض وتخبط العلماء إزاء أنبائها بين مكذب يقول إنها من الخرافات . ونسج الخيال . وبين مصدق يقول بأنه لايستبعد أن يكون ذلك ضمن الاحتمالات .

● قفز من دنيا البحث الى عالم التطبيق منذ سنوات معدودة . موضوع جديد ملأ ذكره الآفاق . ذلك هو موضوع « اشعاعات الليزر » شديدة التركيز . وأصبحت هذه الاشعاعات هى الأمل فى تطوير الاتصالات اللاسلكية بين أرجاء الكون الفسيح . بعد أن تحقق امكان

هل توجد حضارات عاقلة في الفضاء؟





خيالات الفنانين عن الأحياء فوق المريخ

ارسالها من الأرض الى القمر . دون تشتت ودون فقد .

لذلك ليس بمستبعد أن تأخذ أشعة الليزر طريقها الى الكواكب حاملة رسالات سكان الأرض لأحياء الكواكب . في القريب .

في ضوء رسالات السماء

يعتمد رأى الأديان في هذا الأمر على ركائز منطقية في التفكير . وعلى نصوص ورد ذكرها في الكتب السماوية . ويستند في ذلك على أن عقل الانسان لم يبلغ ذروة الكمال . وان تطور الفكر الانسانى على مر العصور خير برهان على صحة هذا الرأى . لذلك فلا بأس بأن توجد حضارة أكثر وعيا . أو أكثر ادراكا من حضارة الانسان في مكان ما من الكون . ولقد عبر القرآن الكريم عن هذا المعنى في الآية الكريمة « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » (سورة الاسراء ٧٠) .

وجلى أن الانسان لم يكرم في القرآن . على أنه أفضل المخلوقات كافة . ولكن أفضل من كثر منها . أى أفضل من « أغلبها » وليس أفضل منها « كلها » .

والمخلوقات هنا ليس لزاما أن تكون على الأرض وحدها .. بل أى مخلوقات خلقها الله . في أى مكان من الكون . سواء كان هذا المكان على الكواكب . أو على أى جرم من الاجرام السماوية .

ففي الكون . أحياء ليسوا في الصورة البشرية الانسانية المتمثلة في روح تتقمص جسدا . فالأديان فيها ذكر للملائكة وذكر للجن وهى مخلوقات لها قدرات وممالك لاندرى عنها الا القليل .

وإذا ماتركنا عالم اللا منظور . الذى تشير اليه الأديان . وتمعنا في النصوص القرآنية نجد بعضها يذكر أنواعا من الحياة النباتية والحيوانية في السماوات وحسبنا هذه الآيات على سبيل المثال :

« ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء في السموات والأرض » . (سورة النمل ٢٥) .

« ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم اذا يشاء قدير » (سورة الشورى ٢٩) .

« تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شىء الا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم » (سورة الاسراء ٤٤) .

« ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السموات ومن في الأرض الا من شاء الله وكل أتوه داخرين » . (سورة النمل ٨٧) .

● هل اختفت قارة أطلانطس تحت قاع المحيط الواقع بين أفريقيا وأمريكا بسبب حرب شنها أهل حضارة فضائية؟!

● أشعة الليزر تحمل رسائل من سكان الأرض لأحياء الكواكب في القريب

كما يرتكز رأى الأديان على أساس منطقى آخر . هو حقيقة أن القدرة الآلهية ليس لها حدود « وهو على كل شىء قدير » .

وازاء اتساع الكون اتساعا عجز العقل البشرى عن تصور حدوده . أو احصاء اجرامه . أو قياس مسافاته . فلا يمكن أن نقصر صورة الحياة على الأرض وحدها مع ضآلتها في الحجم . ووضعها في ركن قصى من أركان جزيرة كونية واحدة . حولها ملايين من جزر كونية أخرى أكبر منها .

عبر منطق الاحتمالات

يفترض علماء الفلك أن عدد نجوم جزيرتنا الكونية . أى تلك التى داخل المجرة يبلغ (١٠.٠٠٠.٠٠٠.٠٠٠) نجم تقريبا . أى عشرة آلاف مليون نجم . وهذا العدد ليس أكثر من افتراض . لأنه يجل عن الحصر . ويجل عن القياس . وناهيك عما تحويه المجرات الأخرى . التى خارج مجرتنا . من بلايين البلايين من النجوم .

فمن الخطأ أن نقيد أنفسنا بالبحث عن الحياة على كواكب المجموعة الشمسية وحدها . لأنها أجسام باردة . فالكون يغص بملايين من الكواكب التى نراها .

وكل نجم . يلمع في السماء شمس . ويفوق كثير منها شمسنا في الحجم آلاف بل ملايين المرات . فلماذا لا توجد حول هذه الشموس كواكب باردة . تدور حولها كما تدور الأرض حول الشمس ؟

والمسافات الشاسعة بيننا وبين هذه النجوم تقف حائلا دون رؤية هذه الكواكب . كما ورد في القرآن لقوله تعالى « فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم » .





السفينة الأمريكية فايكنج حطت على سطح المريخ عام ١٩٧٦م

وإذا قصرنا القول على نجوم مجرتنا ، وافترضنا أن كلا منها تجذب اليها بعضا من الكواكب الباردة ، وتقسرها على الدوران حولها ، فسنجد أن المجرة تحوى بلايين البلايين من هذه الكواكب . وبالتالى فان الكون بما فيه من ملايين المجرات والسدم يمكن أن يحوى من الكواكب ، أكثر من عدد حبات الرمال والتراب التى على الأرض قاطبة .

ووفقا لنظرية الاحتمالات ، التى لها مكانتها لدى علماء الرياضيات كلغة لتفسير المستغلق من الأمور ، لايعقل أن تقتصر ظروف وجود حياة على واحد فقط من بين بلايين البلايين من الكواكب . فالخالق واحد ، والظروف واحدة عند بدء التكوين . ومثل هذا الافتراض يمكن أن نصفه بأنه افتراض جاهل ويتسم بالجمود فى التحليل . فكيف يمكن أن تضل الاحتمالات وسط هذه البلايين لتصبح فرصة وحيدة فقط بين بلايين البلايين من الفرص . ان هذا القول يشبه الاصرار على وجود زهرة وحيدة فقط ذات لون أحمر مثلا فى كل حدائق الكرة الارضية .

وكيف يمكن أن نجمع بين ايماننا بالقدرة الالهية المبدعة التى أحسنت خلق هذه الاجرام ــ التى كحصى الرمل عدا ــ ولم تدع فرصة واحدة لاصطدام بعضها ببعض . وبين تصور أن هذه القدرة ، تقصر وجود الحياة على كوكب واحد فقط ، هو كوكبنا (الأغر) .

وحاشا لله . انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون . والمعقول أن العناصر الاساسية التى تتوقف عليها الحياة النباتية أو الحيوانية ، طالما وجدت على الأرض ، يمكن أن توجد فوق كثير من الأجسام الباردة ، أو الكواكب التى حول النجوم .

وبسبب قصور وسائلنا القياسية ، وبعد بدء عصر الفضاء ، يحاول العلماء ارسال سفن الفضاء لتغوص فيه ، ولتتحسس الطريق ، وتزداد ابتعادا عن الأرض عاما بعد عام .

ومن أروع الأمثلة على ذلك ، ما قامت به السفينة الأمريكية الرحالة «فويجر» التى مضى عليها أكثر من عشر سنوات فى الفضاء وهى تلتقط الصور لكواكب المشترى وزحل وأورانوس . وتستهدف أن تقترب من كوكب نبتون فى عام ١٩٨٧ المقبل . لقد كشفت هذه السفينة عن أسرار لم يعرفها علماء الفلك من قبل . فقد كانوا يعتقدون أن الأحزمة حول زحل ثلاثة فقط ، فتبين من الصور أنها اثنا عشر ، كما كانوا يرون من المراصد الأرضية أن الأقمار حول كوكب المشترى أحد عشر . فاذا بها خمسة عشر . وقد كشفت فى أوائل عام ١٩٨٦ عن قمرين جديدين حول كوكب أورانوس .

وهذا مايلقى الضوء ، على أننا مازلنا فى أول الطريق وقد تقف القدرات البشرية نفسها عائقا أمام هذه الجهود ، لأن الانسان لايستطيع احتمال البقاء فى الفضاء مددا طويلة دون هلاك .

وعند التسليم باحتمالات وجود حياة على أجرام كونية أخرى ، أو فى الفضاء ، فالسؤال المنطقى هو لماذا لم يحدث اتصال بين هذه الحياة وبين حضارتنا على الأرض ؟ . وهناك افتراضان أولهما هو أن تكون هذه الحياة أقل ادراكا وذكاء منا . لذلك فان احتمال نجاح هؤلاء الأحياء فى الاتصال بالارض ، أمر مستبعد ، لانعدام وجود الوسيلة ، ولكبر المسافة بدرجة تستلزم درجة عالية من التقدم .

والافتراض الثانى هو أن تكون هذه الحياة ذات ذكاء يفوق ذكاء أهل الأرض ولهم ماض عريق فى الوجود أعرق من الانسان .

عندئذ فمن البديهى أن يعاملنا هؤلاء الأذكياء بقدر من الاهمال ، تماما كما هو شأننا فى معاملة فصائل الهوام التى على الأرض ، ننظر اليها شذرا ، نبيد بعضها أحيانا ونترك البعض الآخر ، دون أن نركز على محاربته لان شأنه وتأثيره هين وبسيط ، أو قد نستأنسه ولكننا نعجز عن الالمام بلغاتها ، أو بكل تصرفاتها .

بمثل هذه التشبيهات يمكن أن نتصور أن هؤلاء «الآخرين» ربما يكونون قد حاولوا الاتصال بأهل الأرض ، وأعيتهم الوسيلة ، أو خذلتهم المسافة ، فليس معنى التفوق فى الذكاء ، أن يتيسر كل أمر ويتذلل كل صعب . أو قد تكلل جهودهم بالنجاح مستقبلا فيجدون طريقهم الينا عن قريب وربما يكونون متمتعين بمراقبتنا ــ من بعيد ــ انتظارا لتطوير وسائلهم فى الوصول الينا ، ليأتوا بعاليها سافلها فى حرب كونية شعواء تمحو كل الوجود الأرضى .

ولقد تواترت تفسيرات كثيرة لوجود زيارات لأجسام غريبة فى أماكن متفرقة من الأرض ، وترددت كثير من الاشاعات عن الأطباق الطائرة ، غير أن البعض مازالوا يرددون نظرية مفادها أن تعاقب الحضارات على الأرض سببه حروب يشنها أهل الحضارات الأخرى من الفضاء بين حين وآخر .

وهذا الظن عن فناء حقبة حضارية وبعث أخرى بعد حين ، يقويه اختفاء مدن بكاملها كمدينتى «سدوم وعمورة» فى فلسطين ، واختفاء قارة بكاملها هى قارة «اطلانطس» تحت قاع المحيط الواقع بين افريقيا وأمريكا ، وانحسار مدن بكاملها تحت مياه البحار كمياه البحر المتوسط .

وهناك ظن آخر .. أقرب الى الخيال .. هو أن يكون «الآخرون» من سكان الفضاء قد وطدوا أماكنهم على الأرض ، وأنهم هم الذين بنوا الاهرام ، وأقاموا التماثيل والمعابد الضخمة على الأرض ، ثم انصرفوا عنها الى الكواكب مرة أخرى .. لسبب أو لآخر .

هذه كلها ظنون .. ليس لها استناد .. الا الانبهار بالماضى .. ولعل الاحتمال الوحيد الذى يبدو من خلاله بعض المنطق ، هو عدم استبعاد قيام عقلاء من الفضاء ، بزيارات استطلاعية لبعض الأماكن على الأرض مستقلين هذه المركبات الغريبة ، وهى الاطباق الطائرة .

سعد شعبان



بقلم: جمـــال قطـب

الحسناء

.. قد يسأل سائل عن اهتماماتنا في تقديم هذه النماذج الجمالية على هذه الصفحات. إنها نماذج فنية على أكبر قدر من المعالجة الابداعية رفيعة المستوى. ولكنها في الوقت ذاته لاتشتط إلى متاهات المدارس العقلانية الغامضة والتجريد الحديث. أي أنها تجمع بين عالمية الفن وعبقرية الفنان والجماليات البصرية المبهرة. والسبب في ذلك هو حرص مجلة «الدوحة» على تقديم روائع الفن العالمي في صورة ميسرة جميلة. بعيدة عن الطلاسم التقنية والمذاهب الغارقة في الذاتية واللاشعور وما وراء الطبيعة وغياهب الأحلام والتيارات الغريبة التي أتت بها تعقيدات المجتمع الغربي في القرن العشرين! إن لوحاتنا هذه هي أشبه ماتكون بسلة الزهور على مائدة متخمة بصنوف الطعام والشراب. وليس معنى هذا أن عوالم التجريد والسيريالية وغيرها من الفنون الحديثة ليست فنونا راقية. ولكنها تفتقر إلى الجمال الطبيعي والمثاليات البصرية التي نحرص على تقديمها إلى قرائنا على اختلاف نزعاتهم وتفاوت ثقافاتهم ومداركهم وتذوقهم في شتى أنحاء عالمنا العربي الفسيح. أي أننا بقدر مانقدم المعلومة الثقافية الميسرة: نقدم الرائعة الفنية على نفس المستوى من اليسر والوضوح ولهذا ركزنا في استعراضاتنا لروائع الفن العالمي على مدى السنوات الماضية. على هؤلاء الفنانين الذين يحظون بتلك المواهب الفذة من العبقرية الفنية والأساليب الجمالية المبهرة. وكما قال (رينوار): «إن الفن عندي بصرية جميلة ممتعة قبل كل شيء»!

وموضوعنا اليوم عن إحدى روائع الفن الانجليزي لفناننا توماس بورانس (١٧٦٩ ـ ١٨٣٠) الذي عاش فترة الفن البريطاني في تاريخ الابداع.. حيث أطلق عليها عصر النهضة الفنية آنذاك. والسمة المميزة للفنانين الانجليز في تلك الفترة هي ولعهم برسم الشخصيات Portraits ولاسيما صور حسناوات المجتمع والمشاهير من الرجال والنساء. وهكذا شاهدنا أعمال أقطاب المبدعين الانجليز من أمثال هوجارث ورينولدز ورومني وغيرهم. والفن الانجليزي عريق يضرب جذوره في أعماق القرون الماضية، فقد اشتهرت قبائل الكلت القديمة بالمخطوطات الدينية منذ القرن السادس الميلادي. وكانت هذه المخطوطات تزخرف بالزخارف الدقيقة والمنمنمات الرمزية الجميلة. ومضى التصوير الانجليزي يركز خلال القرون الوسطى على خدمة متطلبات الكنيسة. فيقدم لنوافذها القوطية أجمل الصور الدينية مرسومة على الزجاج الملون، كما اشتهر البيت الانجليزي بصوره وستائره وزخارفه ذات الرموز الدينية والتشكيلات الرائعة. وهكذا شهد الفن عصرا من الازدهار. وكانت الكنيسة الكاثوليكية آنذاك تشجع الفن وتستقطب جهود الفنانين. ولكن.. ما إن حل المذهب البروتستانتي محل الكاثوليكي حتى أيقن الفنانون أن المذهب الجديد ينظر إلى الفن نظرة فتور تحولت عاما بعد عام إلى كراهية.. ولم يكن أمام الفنانين ـ والحال هذه ـ إلا أن يبحثوا عن مجالات أخرى يمارسون فيها نشاطهم. فاتجهوا إلى الملوك والنبلاء والأثرياء. يخلدون صورهم في لوحاتهم بأساليب أشبه إلى الصور التي تمرسوا عليها من قبل.. مما دفع بهذه الشخصيات إلى استقدام فنانين أجانب من الدول الأوروبية لرسم مايحتاجون من الصور والمناظر الطبيعية لقصورهم. وظل تصوير المناظر والأشخاص وقفا على المصورين الوافدين لمدة قرنين كاملين. أما عامة الشعب الانجليزي فقد كانوا لايتذوقون هذا النوع من الفنون الوجدانية الراقية لأنهم لم يألفوا إلا الفنون التطبيقية التي تؤتي نفعها بصورة مباشرة في حياتهم اليومية..

.. ولكن صحوة فنية كبرى قد انعشت الفن الانجليزي مرة أخرى في القرن الثامن عشر.. (ويتذكر قراؤنا أن هذا القرن كان بمثابة تحول وبعث فني عام في معظم شعوب العالم المتحضر بأسره).

وتوالى ظهور أساطين الفن الكبار.. وقد اعتبر (هوجارث) رائدا لهذه الحركة الفنية الناهضة. ثم ظهر مفخرة انجلترا عن جدارة.. وهو أستاذ الاساتذة الفنان (جوشوا رينولدز ١٧٢٧ ـ ١٧٩٢) الذي يرجع إليه الفضل في تأسيس (المجمع الملكي للفنون الجميلة بلندن). وقد استطاع أن يهز التقاليد الانجليزية المتزمتة التي طالما وقفت حائلاً بين الانجليز وبين تفتحهم إلى التذوق واقتناء آثار الفن الجميل.

وظهر على مسرح الابداع المتفوق فناننا توماس لورانس.. وقد قلده رينولدز وسام العبقرية عندما أعلن على الملأ أن أعمال لورانس تعتبر روائع فنية (Masterpieces) فذة.. وشد الأستاذ على يد لورانس قائلا له: «لاشك أن العالم سينظر إلى أعمالك بكل التبجيل والاحترام، ليبرهن لك على صحة رأيي فيك»!

وطارت شهرة الفنان في الأوساط الراقية وصار رسام المشاهير وحلم الفاتنات وسيدات المجتمع البريطاني، وتسابق الجميع حول مرسمه في سبيل الحصول على صورة شخصية لهم من إبداعه كأمل يداعب خيالهم الطموح! بل إن صورة من رسم توماس لورانس كانت جواز المرور إلى الشهرة والتألق وحديث المجتمعات الفنية في بريطانيا وأوروبا بأسرها.

وبعد أن أضحى الفنان ملء الأسماع والأبصار، ادخر جهده العبقري في أواخر سنوات عمره لرسم كبار الشخصيات والسيدات من ذوات الحسن والجمال..

فلنتأمل سوياً صورة هذه الحسناء (الأميرة ليفان Lieven) التي تعتبر حالياً من أثمن مقتنيات المتحف الوطني البريطاني بلندن..

وما أكثر ماتضمه أروقة المتاحف البريطانية والعالمية الأخرى من روائع خالدة لفناننا الفذ سير توماس لورانس.



لايكاد الضيف أن يستقر إذا دخل بيتا قطريا في البادية أو المدينة ، إلا ويكون في مقدمة مايستقبله به المضيف مبخرة يتصاعد من فوقها دخان العود بعبقه وشذاه العطر العميق .

عن العود والبخور

بقلم : درويش مصطفى الفار



قطعة من العود بجوار المدخن (المبخرة) مما يعرفه كل من عرف قطر بادية وحاضرة

لا غرابة في ذلك ، إذ لاشك أن علاقة قطر ببخور العود المجلوب عبر القفار والبحار من أدغال آسيا الجنوبية الشرقية ، علاقة قديمة كما ألمحنا إليه في مقال سابق ، حتى انك لتجد مرجعا كالمخصص لابن سيدة الأندلسي ، يؤيد ماذهبنا إليه من احتمال اشتقاق اسم قطر من القطر ، بضم القاف ، وهو أحد أسماء عود البخور ، ومنه قالوا في اللغة قطر الرجل ثوبه أي تبخر بالعود ونحوه من البخور . والعود في اللغة أصلا ، كل قطعة جافة من الشجر ، ولكنه خصص لهذا الصنف من البخور لأنه كما قال ابن سيدة : (أشرف أنواع العود وأطيبها رائحة) .

ولعود البخور الذي نعنيه في هذا المقال عدة أسماء في الفصحى ، فيها الألُوَّة والألَنْجوج والقُطْر والقُنْطار والوَجّ والوقصى والشَّذا والصَّنفى والقماري والهندي ، ليس على سبيل الحصر .

وله في تاريخنا وتراثنا ذكر عجيب في الشعر والنثر على السواء . فقد جاء في كتاب الذخائر والتحف للقاضي الرشيدبن الزبير ، من القرن الخامس الهجري ، طرائف جمة عن العود نذكر منها على سبيل المثال : أهدى ملك الصين لكسرى أنو شروان ألف مَن ، والمنْ رطلان ، من العود الهندي ، يذوب في النار كالشمع ، ويختم عليه فتبين الكتابة . وأهدى بعض ملوك الهند الى الحسن بن سهل في زفاف ابنته بوران على الخليفة العباسي المأمون في سنة ٢١٠ هدايا من بينها (سفط) عود لم ير مثله وقال علي بن المنجم ، كنا ليلة بين يدي الخليفة العباسي المتوكل على الله ومعنا عبيد الله بن الحسن بن سهل ، وكان الخليفة قد احتجم في ذلك اليوم فناله ضعف ، فأشار عليه الأطباء أن يتبخر بعود جيد ، ففعل ذلك ، فحلف كل من كان حاضرا أنه ماشم مثل ذلك العود قط !! فقال عبيد الله هذا والله من العود الذي أهداه ملك الهند الى أبي ليلة زفاف أختي بوران على المأمون !! فكذبه المتوكل ، ودعا بالسفط الذي أخرجت منه القطعة ، فوجدوا فيها رقعة مكتوب فيها : هذا العود هدية ملك الهند الى الحسن بن سهل لزفاف بوران على المأمون ، فاستحي المتوكل من تكذيبه ، وأمر له بصلة !!

وأهدى اسحق بن زياد صاحب اليمن الى عز الدولة أبي منصور سنة ٣٥٩ هدية من جملتها دقل من عود قماري طوله عشرة أذرع ووزنه ثلاثون منًّا !!

وأرسل طغرل بك سنة ٤٤٨ صحبة الأمير قطب الدولة الى ملك الروم هدية فيها عشر طبلات كافور (وعود) . وأهدى الأمير ناصر الدولة أبو علي الحسن بن حمدان سنة ٤٦٣ الى أرمانوس متملك الروم والمعروف بالديو جانس (١٠٦٨ ــ ١٠٧١ م) هدية من جملتها دقلان من عود هندي أحدهما ثمانون والآخر أربعون منًّا .

والبخور في تاريخ تطور الحضارة شأن ، فلا شك أن الانسان منذ عرف النار ، ميز بين الروائح المختلفة التي تنبعث من احتراق الأنواع المختلفة من الأخشاب .

ولكننا لانستطيع أن نحدد على وجه اليقين متى وأين تم للانسان اكتشاف أن خشب العود الذي نعنيه هو أجود ماينبعث منه الدخان حين تمسه النار .

ومن المعروف أن إحراق البخور في المعابد الوثنية كان معروفا خلال التاريخ في كل أرجاء الشرق بين مصر وبابل ، وكان للمر واللبان والكندر وغيرها من افرازات الاشجار شأن عظيم ، ولسنا نغالي حين نقول إن تجارة البخور بأنواعه من جنوب شرق آسيا بحرا الى جنوب شبه الجزيرة العربية ، ثم برا عبر القفار والصحارى الى غزة بفلسطين ، فمصر ، والى الخليج قرب حدود قطر الجنوبية الغربية ، كان الى ماقبل ظهور الاسلام مصدر خير وفير ورزق عميم ، تماما مثل النفط في أيامنا هذه .

وفي الديانة البوذية الوثنية التي دخلت

اليابان من الصين سنة ٥٣٨ م . طقوس تقتضي حرق البخور في المعابد . فاخترع اليابانيون في البوذية مذهبا يقضي (بعبادة) البخور ذاته ، وبلغ بهم الحذق والمهارة ، الى حد ابتداع (مسابقات) يخلط فيها الكاهن أنواعاً من المواد ذات الرائحة العطرة ، ثم يضعها على المبخرة أو المجمرة ، فيشم المصلون دخانها ، ويجتهد كل منهم في ذكر مكونات ذلك الخليط صنفا صنفا ومنهم من يفوز في دقة التمييز فوزا كاملا ! !

ولما جاء الاسلام الحنيف ، لم ينكر الطيب بل حض عليه ، بما في ذلك البخور ، ولكنه لم يجعله جزءا من العبادة لا في الفروض ولا في السنن .

ولكن أفكار الذين يكيدون للاسلام ، ويسعون لإدخال البدع فيه ، تعمل عبر الزمان والمكان منذ رسالة المصطفى صلى الله عليه وسلم الى قيام الساعة . ومن ذلك ، ونحن في سياق الكلام عن عود البخور نذكر القصة الطريفة التالية .

قال أبو محمد الفرغاني في تاريخه : ان المأمون قد أصاب بخراسان كانونا من الذهب مرصعا بالجواهر . قيل انه ليزدجرد بن شهريار الفارسي فقال ذو الرئاستين الفضل بن سهل بن الصولت : ياأمير المؤمنين ، الرأى أن تجعله في الكعبة يوقد فيه (العود) بالليل والنهار .

فقال المأمون أفعل . وأمر بحمل الكانون الى مكة المكرمة . واتصل الخبر بيزيد ابن هارون المحدّث ، فأمر مستمليه أن يقف يوم الخميس عند اجتماع الناس وأصحاب الحديث فيشكر المأمون ويدعو له ويخبر بخبر الكانون . ففعل المستملى ذلك . فلما سمع يزيد كلامه صاح وانتهره وقال له : ويلك اسكت ان أمير المؤمنين أجل قدرا وأعلم بالله عز وجل من أن يجعل بيته تعالى بيت نار (كالمجوس) . فكتب أصحاب البريد بذلك الى المأمون فأمر بكسر الكانون ، وبطل ماكان دبره ذو الرئاستين ! !

وأعجب ما في أمر عود البخور ، أنه ناتج عن مرض يصيب شجرته بسبب جرثومة فطر مؤذية تدفع النبات الى إفراز تلك المادة الراتنجية الزكية الرائحة .

ومن المعروف أن الله تعالى قد أودع في النبات خواص عجيبة تساعده إذا أصيب بجرح أو جرثومة مرض أن يفرز دواءه من بين خلاياه وافرازات النبات العلاجية تلك ، يقسمها العلماء الى :

أ ـ صموغ تذوب في الماء مثل الصمغ العربي .

ب ـ راتنجات تذوب في الكحول ولا تذوب في الماء مثل اللبان والمصطكي وكذلك الذى في العود موضوع المقال .

جـ ـ علوك لاتذوب في الماء ولا في الكحول ولكنها في البنزين والطولوين وما إليها مثل المطاط .

وتلك الأنواع الثلاثة يفرزها النبات من الشقوق التي يحدثها المرض أو الآلة على هيئة سائل لايلبث أن يتجمد بملامسته للهواء الجوى . وهناك نوع رابع :

د ـ يسيل ولكنه لايتجمد بل يثخن قوامه مثل البلسم وأنواع التربنتين .

وشجرة العود موطنها الأصلي حوض البنغال وبورما وآسام وجاوة وكمبوديا في جنوب شرقي آسيا . ويسميها علماء النبات باسم لاتيني هو (أكويلاريا أجاللوخا) وينسبونها الى الصعتريات . ويصل ارتفاع الشجرة البالغة إلى مائة قدم ويتراوح محيط جذعها بين ثمانية واثنى عشر قدماً . ولا رائحة لخشبها السليم المعافى . ولكنها حين تهرم ذكورها ويزيد عمرها على الخمسين عاما تبدأ الفطريات في العدوان عليها فلا تملك للدفاع إلا افراز ذلك الصمغ الراتنجي الزكي الذى يكسب الخشب لونه البني الداكن الذى يعرفه من عرف العود .

وقد عرف الناس العود في مصر القديمة وفلسطين وشبه الجزيرة العربية منذ قرون خلت . ويسميه جامعوه في جنوب شرق آسيا خشب (الآجور) أو (الآجار) . ويتفننون في الغش والتدليس ماوسعتهم الحيلة والفكر الشيطاني . وفي كمبوديا نوع يسميه علماء النبات (أكويللاريا كراسنا) وله أيضا رائحة طيبة حين يعتوره المرض ولكنه أقل جودة .

ويميزه جامعو العود في مظانه بإلقائه في الماء ، فما يطفو يفصلونه عما يغرق لثقله ، وذاك الذى يغرق في الماء هو أجوده لكثرة مافيه من الصمغ الراتنجي . ولهذا فهم يعمدون الى إغراق ذاك الذى يطفو بأثقال ويتركونه تحت الماء زمنا غير قصير ، فتحلل البكتريا في الماء الراكد جزءاً كبيرا مما تبقى فيه من السليولوز ولا يتأثر الراتنج ، فتزداد قيمته ويعلو قدره .

وأخشى أن يكون الكيماويون قد توصلوا الى تخليق ذلك الراتنج الذى تفرزه في الطبيعة شجرة العود الذكر المريضة ثم يقدمونه للناس ، وخاصة في أسواقنا ، على أنه طبيعي لاسيما إذا عرفنا أن ثمن الكيلوجرام الواحد من* العود الجيد الذى يشبه عود عرس بوران والمأمون قد يصل ثمنه اليوم الى عشرة آلاف دولار أو تزيد .



مجمرة أو مبخرة من طراز صيني ترجع الى القرن الخامس عشر الميلادى

منذ أقدم العصور والإنسان يسعى وراء الطّيب والعطور بحثاً عن الفرح والسّعادة والنشاط



بقلم : نجلاء العزي

منذ قديم الزمان أدرك الانسان سَر العطر وتأثيره على النفس من بهجة وحيوية وسعادة . ويتعدى هذا الشعور الانسان إلى الحيوان . فنجد الطيور على سبيل المثال تغرد وتنشط في وقت الربيع ، زمان تفتح الأزهار وتوّرد الأشجار بفعل أريجها في الجو .

وقد توصل العلماء إلى خاصية بعض الزهور والنباتات وحتى الحيوان في طرح شذى يعبق الجو برائحة لطيفة تختلف من زهر إلى آخر ومن نبات إلى آخر .



قوارير من الزجاج الملون المشغول بالفضة



معمل للعطور الحديثة

أصبحت العطور من الفنون الراقية وهي ترف دخل حديثاً على المجتمعات الغربية . أما في الشرق . فقد قطعت شوطاً كبيراً وصارت جزءاً من العادات والتقاليد الشرقية منذ أحقاب تاريخية طويلة تعود إلى ثلاثة آلاف عام حينما استخدم قدماء المصريين العطور في المعابد وفي التجميل .

نظرة تاريخية

وكان الشرق منذ قديم الزمان مصدراً هاماً للطيب والعطور وكان الشرقيون يميلون الى العطور أكثر من الغربيين . ويعزو العلماء ذلك إلى أن الشعوب من ذوي البشرة الداكنة والعيون السود يتميزون بحاسة شمّ قوية . وهناك سبب آخر هو أن العطور تتميز بطابعها الرطب وذلك إذا رشّ العطر في جو دافيء فإنه يخفض درجة الحرارة من خلال صده للأشعة الساخنة ..

لقد استعمل اليونانيون والرومان الزيوت العطرية والبخور وجلبوها من الشرق وذلك لاجراء مراسيمهم الدينية .

وأول من أرسى صناعة العطور في العالم القديم هم الهنود والصينيون وصارت صناعتهم تقليداً اتبعه كل صناع العطور في العالم القديم . وذلك بسبب كثرة النباتات العطرية وانتشار مصادر العطور في بلادهم .

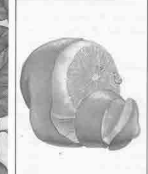
أما العرب فأن المؤرخ اليوناني ديونيزيوس وصف بلادهم السعيدة بقوله « إن المرء يشم شذى الطيب فيها في كل مكان سواء كان البخور أو المرّ » .

الطيب والعطور

إن كلمة بيرفيوم Perfume مشتقة من كلمة بيرفومان اللاتينية والتي تعني « من بين الدخان » حرفياً . أما في العربية فان العطر لغة اسم جامع للطيب والجمع عطور والعطار بائعه وحرفته العطارة ويقال رجل عاطر وعطر ومعطير ومعطار وامرأة عطرة ومعطيرة ومعطرّة . قال الشاعر :

عُلقَ خـــوداً طفلة معطـــــــارة
ايـــاك أعنـــي فـــاسمعي يـاجـارة

وترد كلمة الطيب مع العطر . والطيب ما يتطيب به وقد تطيب بالشيء وطيب ثوبه . وتمّ حلف المطيّبين في الجاهلية حيث اجتمع بنو هاشم وبنو زهرة في دار ابن جُدْعان وجعلوا طيباً في جفنة وغمسوا أيديهم وتحالفوا على التناصر والأخذ للمظلوم من الظالم فسموا بالمطيبين .



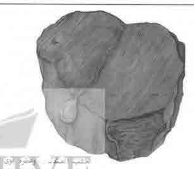


يستخلص من الليمون عطر نفاذ



زهرة الغاردينيا ذات العطر الفواح

قارورة عطر حديثة مستوحاة من سحر الشرق



خشب الصندل .. وعصره ذو الأثر

كان جلد المتعطر بها يميل الى جعلها أكثر عذوبة وتأثيراً .

• العطور الشرقية : هذه العطور بالغة القوة في الأثر وهي مستمدة من الأخشاب والأعشاب الشرقية الفواحة مثل خشب الصندل وهي مثقلة بشذا المسك والعنبر وغيرهما من الطيوب ذات الأصل الحيواني وتعتبر العطور الشرقية أكثر العطور إثارة ومسألة اختيارها وتفضيلها تتبع الذوق الشخصي .

تجارة العطور الشرقية

ينتشر بيع العطور في الخليج مع المجوهرات أو يقوم به باعة مختصون يجلبونها الى الدور والقصور وتعتمد أسعارها على نقاوة وتركيز مادة العطر .. وقد تفتن صانعو العطور الخليجية اليوم في تجارة العطور . أما صناعته فليست كل العطور تجلب (تستورد) جاهزة من الخارج كالهند وفرنسا . بل هناك بعض النساء في انحاء من الخليج كدبي والبحرين برعن في إنتاج أنواع من العطور تسمى المجموعة ويطلق عليها اسم صانعتها وتباع في البيوت وليست في المحلات وتصنع بحسب طلب خاص مثل المخمرية بالمجموعة . ولنساء الخليج ذوق خاص متميز بالعطور .

• المخمّرية : واسمها يدل عليها مشتقة من التخمير أى وضع المادة في إناء وتغطيته غطاءاً محكماً ويمنع عنه الهواء كي لا يفسد لمدة معينة الى أن تتفاعل المواد الأولية المجموعة في الإناء لفترة تتراوح بين الشهر والأربعين يوماً .

• مجموعة العنبر : وتكون بخلط مجموعة معينة من العطور يكون العنبر قاعدته الأساسية .. وتختلف ريحة عطر المجموعة من عطر الى آخر بسبب خلط المواد ونسبتها الى بعضها وتعتمد المجموعة على ذوق السيدة وحاستها في الشمّ باختيار نوع عن آخر وهكذا نرى مجموعات منتشرة في الخليج .

القوارير الذهبية

القوارير الزجاجية المذهبة : وتصنع قوارير العطر اليوم في الهند من زجاج رقيق جدا منقوش بماء الذهب وبألوان معدنية لماعة . وهي مخصصة للخليج . وهذه ثلاثة أنواع من العطور :

• الوعاء الأبيض به عطر يسمى المخمّرية

• القارورة الزجاجية الحمراء بها عطر العنبر

• أما القارورة الخضراء فيوضع فيها العود والمسك وغيره .

وفي القارورة الخضراء يقول الشاعر الشعبي في الخليج :

حلوة وجميلة وانيقه
في كل عرس تشوفها رفيقه
بلونها الأخضر خلابه
والفضة كاسياها سحابه
ست تقول يوم فرحتي جاتني
وست تقول رقتها فتنتني

الروائح الزكية

• المسك : ويوجد على شكلين فهو إما جاف (بلورات) أو بشكل سائل دهني ومن لونين أبيض أو أسود ويعتبر المسك الأسود أكثر جودة . والمسك كما ذكرنا عبارة عن افراز من غدة في أيل المسك وينتشر في المناطق الجبلية من شمال الهند ووسط آسيا ويكثر بالصين (التبت) .

جاء ذكر المسك في القرآن الكريم سورة المطففين الآية ٢٥ بوصف شراب أهل الجنة :

« يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون » .

الإنســـــان والعطـــــور

• العنبر : وهو مادة شمعية تنتج داخل القناة الهضمية لحوت العنبر وتطفو بالبحار الاستوائية على شكل كتلة صفراء أو سوداء أو رمادية ومنها يستخلص دهن العنبر ويعتبر دهن العنبر من العطور المحببة في نجد والسعودية والخليج عامة .

• دهن العود : ويستخلص من « عود البخور » من أخشاب أشجار تنمو بالهند ومنه أنواع كثيرة متشابهة فى طيب رائحتها ، وعندما تكون سليمة تكون أخشابها بيضاء اللون لا رائحة لها . فإذا مرضت أفرزت مادة حمضية دهنية زكية الرائحة ويتغير لونها وصفاته . ويستخدم دهن العود في حالتيه ، الصلبة حيث يحرق للبخور ، والسائلة وهو استخلاص سائل زيتي ذى لون داكن تعتمد جودته على نوعية العود المستخلص منه وهو من أحب العطور وأغلاها .

• الصندل : ويستخلص من أخشاب الصندل الاستوائية ذات الرائحة العطرة التى تكثر فى الهند أيضا . وهو سائل زيتي كثيف يتميز برائحة خاصة محببة . أما لونه فبني يميل إلى الأحمرار .

• ماء الورد : ويستخلص من نبات الورد خصوصاً ورد الجوري ويستخدم بشكلين دهني ومائي . أما دهنه فهو سائل زيتي ذو رائحة مميزة . أما المائي فهو المعروف بماء الورد وهو أبيض اللون يستخدم فى تخفيف الدهون العطرية لترطيب الجو برشه بواسطة المرش .

أدوات الطيب والعطور

• القشوة : قفة من خوص تجعل المرأة فيها القطن والقزّ وقوارير العطر.. قال الشاعر :

لــهــا قشــوة فــيــهــا ملاب وزنـبـق
إذا عزّب اســرى إلــيــهــا تــطــيــبــا

• القوارير : لوضع العطور السائلة .

• الكبيس الحلي للعطور : تتخذ النساء من الحلي أوعية للطيب والعطور كالقلادة التي فيها مواضع مجوفة ومحززة تحشى بالطيب وتحشى « الكبيس » .

• الخواتم : وتكون بأن يوضع مكان الفص على شكل كرة بها غلاف وهذا تقليد قديم جدا معروف فى الحضارات القديمة وقد امتلأت المتاحف بأنواع الخواتم ذات الكرات المجوفة لوضع العطور وأحيانا السمّ أيضاً كالسمّ الذي شربته من خاتمها زنوبيا ملكة تدمر أو عطور كليوباترا التى كانت تنسح بها وتملأ قلائدها وخواتمها .. وغيره من الاشارات التاريخية .

• الأكياس : وتصنع من الجلد والحرير لخزن المواد الخام من العطور المسحوقة كالبخور والأعشاب والورود الجافة اليابسة وغيرها .

• الأوعية : من الرخام والالباستر وكذلك من مواد نفيسة كأوعية الذهب والفضة مختلفة الأحجام والأشكال وتحفظ فى المعابد والقصور .

• الاستجمار : فهو التبخر من المجمر أو المبخرة بحرق البخور فى آنية خاصة .

العطور والعرب

كان العطر عند العرب من صناعة الأشراف فقد كان أبو طالب يبيع العطر وكانت الملوك تتاجر بالعطر واشتهرت لطائم النعمان وهي قوافل الابل التي تحمل الطيب والمسك .

كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يتمنى لو أنه اشتغل ببيع العطور ويقول : لو كنت تاجرا ما اخترت غير المسك إن فاتني ربحه لم يفتني ريحه .

وقد اشتهر العرب بصناعة العطور وتذكر كتب التاريخ أنه لا يبزّ العرب فى صناعة العطور أحد وكانت سوق عدن أشهر ما يباع فيها الطيب .

• كان العرب منذ القدم على صلة تجارية بالهند والروم والفرس ، وقد سيطروا على تجارة العطور وصناعاتها وبرعوا فى صناعتها لما عرف عنهم من سيطرتهم على تجارة العالم القديم حتى لم يعد أحد يحسن صنع الطيب غيرهم وكانت تجارة البحر ترجع بالطيب المعمول فى بلاد العرب وتفخر به فى السند والهند وكذلك كان تجار البر إلى فارس وبلاد الروم .

• كانت نساء قريش كأسماء بنت مخربة أم أبى جهل تبيع العطر فى مكة يبعثه إليها ابنها عبد الله من اليمن .

• ورد ذكر الطيب في القرآن الكريم فى سورة الواقعة (الآية ٨٨) .

« فروح وريحان وجنة نعيم » .

• كان رسول الله ﷺ يحب الطيب ويستعمله ويوصى باستعماله حيث كان يتطيب في الحل والاحرام ــ ويقال عنه إنه كان لا يرد الطيب ويقول عليه الصلاة والسلام :

إذا اعطي أحدكم الريحان فلا يرده فإنه خرج من الجنة . والريحان كل نبت طيب الريح من أنواع المشموم .

وقد بين النبي ﷺ أنواعاً من الطيب تحسن بالرجال وأخرى تحسن بالنساء :

• طيب الرجال : ما ظهر ريحه وخفي لونه ويسمى ذكارة الطيب وهو المسك والعنبر والعود والكافور والغالية والذريرة وقد نهى رسول الله ﷺ الرجال عن لبس المزعفر والمعصفر (الملون) وكان الصحابة على سنة رسول الله ﷺ في طلي أجسادهم وشعورهم ولحاهم بالطيب وكان أحدهم إذا خرج إلى المسجد عرف من طيب ريحه .

• طيب النساء : ما ظهر لونه وخفي ريحه مثل الخلوف والزعفران وتغلب عليه الحمرة والصفرة . وكان يكره للمرأة المسلمة أن تضع العطر ذا الرائحة خارج البيت .

وكانوا يعطرون ثيابهم حتى يفوح المسك من الأردان قال الشاعر بن الخطيم :

وعـمــــرةُ مـــن ســـروات النســـاء
تنفـح بـــالمسك أردانـــــهـــــا

وكانت النساء ترش العطر على الفرسان إذا ذهبوا للحرب ومن أشهر أيامهم يوم حليمة ..

وحليمة التي قالت العرب في المثل « ما يوم حليمة بسرّ » هى حليمة ابنة ملك الحيرة المنذر بن ماء السماء من أجمل النساء وأذكاهن وقد أشارت على والدها ملك العرب المنذر حينما جاءه الحارث الغساني لطلب الثأر بخطة ناجحة . وقد طلب والدها منها أن تجلس معه في مقره وأعطاها طيبا وأمرها أن تطيب من مرّ بها من جنده وجعلوا يمرون وتطيبهم .

• أما عطر منشم فيقال في المثل « أشأم من عطر منشم » أو « دقوا بينهم عطر منشم » : ومنشم امرأة عطّارة من همدان كانوا يعتقدون إذا تطيبوا من طيبها اشتدت الحرب .

• كما يقال لا عطر بعد عروس ، وعروس اسم رجل كانت أسماء بنت عبد الله العذرية زوجة له وتوفي عنها فتزوجها رجل بخيل دميم أبخر مغيّرته برثاء جميل ذكرته برائحته الطيبة بقولها : « كانا عيوفا للخنا والمنكر طيب النكهة غير أبخر أيسر غير أعسر .. والقصة طويلة أوردتها كتب الأدب العربي .. فذهبت مثلاً « لا عطر بعد عروس » .

ومن كل ذلك نرى ما للعطور من حكايات وأسرار غريبة فى العالم العربي قديما وفى عالمنا المعاصر .

نجلاء العزى



طبق من الفخار عليه كتابة وزخرفة يعود الى القرن الرابع الهجرى



دائرة زخرفية من الجص ، حفرت عليها عبارة « الملك لله » تعود الى عهد السلاطين المسلمين فى الهند فى القرن الخامس عشر





ميدالية استحقاق من الذهب/طهران

خمسة وعشرون تومان من الذهب/تبريز



مهر مغولي من الذهب/آكره – الهند

تحت عنوان « كنوز الاسلام » أقيم فى العاصمة الدولية جنيف معرض عظيم يروى بلغة الفن الأثر الثقافي الذى أحدثه الاسلام فى الانسان وفى المكان في مختلف البقاع التى عرفت نور الهداية ووصلتها رسالة الاسلام . أقيم المعرض مؤخرا على مدى ثلاثة شهور فى متحف رات (Musée Rath) بمدينة جنيف . وقد ضم فى جنباته ٣٧٦ تحفة فنية تنتمى لمعظم الألوان والاتجاهات الفنية بجانب ٢٠٠ قطعة نقدية من أشهر العملات الاسلامية يعود تاريخها الى الفترة من القرن السابع الميلادى – عندما أشرق فجر الاسلام – وحتى القرن التاسع عشر .



إناء من كاشان، من أواخر القرن السادس الهجرى مصنوع من عجينة رملية كلسية ومزخرف

قارورة بارود منحوتة من العاج المزين بالذهب تعود الى عصر الدولة الاسلامية فى الهند



قناع للحرب يعود الى القرن ١٥ الميلادى



● الفنان المسلم حوّل اللون إلى رمز، وهو أكثر من مجرّد نقل الانطباعات المرئيّة

● القرآن الكريم وراء فضيلة الاهتمام العظيم بالكتاب والحكمة المكتوبة

أقيم المعرض فى قلب أوربا فى دولة الحياد التى تستضيف المقر الأوربى للأمم المتحدة وأشهر منظماتها العالمية، وقد أثر المعرض فى القلب أيضا من الوجدان الثقافى الأوربى على حد تعبير بليغ استمعت إليه من الكاتب الصحفى السويسرى باتريك فوند وهو يتعرض للاهتمام الواسع الذى لقيه المعرض من المثقفين الأوربيين من أهالى سويسرا وزوارها ممن انعكس اهتمامهم بالقطع النادرة المعروضة والتى يرجع أغلبها الى مقتنيات خاصة نادرة لم يسبق لها فرصة العرض الجماهيرى.

وكنوز الفن الاسلامي التى عرضت فى قلب أوربا مؤخرا نظمها فى معرض يحمل اسم (Tresors de L' Islam) بعض الشخصيات المهتمة بالتراث الاسلامي وتاريخ الفن ومنهم هاشم خسروائى من الشخصيات الاسلامية فى سويسرا وكلود لابير مدير متحف الفن والتاريخ بجنيف وجان بول كروازير. وأشرف على لجنة العرض كلود ريتشارد وبورى كاندولفى للتصميم وأورسولا لافيرار للتنسيق.

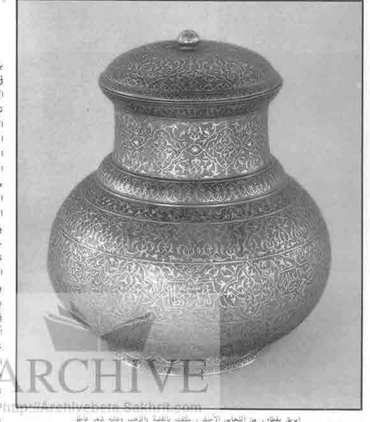
وقد صاحب معرض كنوز الاسلام ظهور ثلاث طبعات من كتاب «كنوز الفن الاسلامي» باللغات العربية والفرنسية والانجليزية وعدد صفحات الكتاب ٤٠٠ صفحة من القطع الكبير ويضم دليل المعرض صور القطع الفنية المعروضة مصحوبة بتحليل وتسجيل تاريخى من خلال بعض الدراسات التي أعدها نخبة من المتخصصين في تاريخ الفنون والنقد التشكيلى والمهتمين بالتراث الحضارى من مختلف بلاد العالم. كما أصدر المسئولون عن المعرض عددا من طبعات (الفيديو كاسيت) ضمت أشرطة تليفزيونية عن المعروضات وعن الأماكن التى جلبت منها هذه المقتنيات النادرة عند اكتشافها لأول مرة.

ويضم معرض كنوز الاسلام تشكيلة واسعة من التحف الفنية تشمل أهم الفترات فى تاريخ الفن الاسلامي بداية من القرن الأول الهجرى أى السابع الميلادي وحتى القرن الثاني عشر الهجرى (الثامن عشر الميلادي). وهذه التحف تغطى معظم ميادين الفن الإسلامي الرئيسية كفنون الكتابة والرسوم الزيتية والخزف والمشغولات المعدنية والسلاح والعتاد والسجاد (الطنافس) والمنسوجات والعناصر المعمارية والفنون الزخرفية والعملات الاسلامية وفنون الخط والمنمنمات مثل كتاب «جامع التواريخ» لمؤلفه العلامة رشيد الدين وكتاب الملوك (الشاهنامة) وغيرها من التحف والمقتنيات النادرة التى تعرض لأول مرة فى مثل هذا الحشد العام والتى تقدم خريطة رائعة لكنوز الفن الإسلامي نتمنى لو استطاعت عواصمنا العربية والإسلامية أن تستضيف مثلها مثلما شهد قلب أوربا هذا الجمع النفيس من كنوز الإسلام فى الفترة الأخيرة

الوحدة الفنية في الفن الاسلامي

يرى البروفيسور أوليج جرابار الأستاذ بجامعة هارفارد أن أهم أسباب الوحدة الفنية في الفن الإسلامي تبدو في صميم الرسالة الاسلامية والمتمثل في وحي النبوة واستمرار تأثيرها عبر العصور . فقد ظلت نظرة الرسالة الإسلامية المثالية الى وحدة المؤمنين والجماهير الواحدة (الأمة) المنبثقة مما تنص عليه هذه الرسالة من الايمان بوحدانية الله والتوق الى الحياة الخالدة بعد الموت ، ظلت دائما وأبدا محورا رئيسيا في مختلف فروع المذاهب الإسلامية ومن هنا نتصور أن مثل هذه المثالية المشتركة بين المسلمين لابد وأن تكون وجدت لها ما يعبر عنها في العالم المرئي ، كما حدث حين اختارت الخط العربي (الذي تكتب به لغات أخرى للمسلمين غير اللغة العربية) ليكون وسيلتها في تبادل الآراء والأفكار المكتوبة وتشكيل رؤية الآخرين وإدراكهم للفن الإسلامي من الخارج سببا آخر في إثارة موضوع الوحدة في هذا الفن ، وهذا ما أشار إليه العالم الفرنسي جورج مارشيه قبيل نصف قرن ، فمقارنة الأشكال الفنية للحضارة الاسلامية مع مثيلاتها من الأعمال الفنية في الغرب أو في الشرق مثل الصين حسب تسلسلها الزمني تظهر بوضوح أن الفن الإسلامي يحتوي فيما بينه على ملامح مشتركة تفوق تلك الملامح المشتركة التي تربط بينه وبين فنون الحضارات الأخرى ، ولاشك أن عوامل كثيرة أسهمت في جعل كل هذه الصلات أمرا ممكنا مثل المنحنى التاريخي ، التجارة الدولية وطرق المواصلات الرئيسية والأهواء الذوقية .

ان الظروف التي مرت بها نشأة الفن الاسلامي قد أدت بشكل أو آخر الى استخدام لغة فنية مشتركة مع العديد من الحضارات الأخرى لذلك كان ومايزال التاريخ الاسلامي محافظا على صلته بمختلف التطورات التي حصلت في أوربا أو الشرق الأقصى عبر متابعة فنونها وتذوق جمالها بالإضافة الى الاستمرار في التأمل الدائم في مخلفات المدنيات التي سادت بلاداً تحولت فيما بعد الى الاسلام . ولم يحدث أن بدأ المسلمون يعبرون عن انطباعاتهم بشيء من الثبات والاستمرارية إلا في القرنين السادس عشر والسابع عشر للميلاد حين قام بهذه الخطوة أنصار الفن والفنانون أنفسهم في كل من الدولة التركية العثمانية والهندية المغولية ، ولكن من المرجح أن يكون



إبريق بغطاء ، من النحاس الأصفر ، مكفت بالفضة والذهب وعليه شعر عاطفي

كشكول من نحاس مصبوب مزين بجامات وكتابات ، ويعود الى القرن السادس عشر





الفن الاسلامى قد تأثر قبل هذه الفترة بالآثار المصرية القديمة وبكل من الآثار الفارسية والرومانية الكلاسيكية .

نظرية الجمال فى الفن الاسلامى

الهدف من الفن لم يؤخذ فى الاعتبار إلا بدرجة ضئيلة للغاية واستمرت التصورات الخاطئة شائعة ، وقد كان أكثرها شيوعا نظرية الفنون التشكيلية فى الاسلام ، وهذه الفكرة الخاطئة تعود بدرجة كبيرة الى الظروف التى اكتشف فيها الغرب المناطق الاسلامية المختلفة وكما يرى الدكتور سورين بليكان الباحث بالمركز الوطنى الفرنسى للدراسات العلمية فقد بقيت المنمنمات الفارسية لفترة طويلة بمثابة الأساس الذى يعرف به فن التصوير الاسلامي غير أن العالم العربى أنشأ ونمى الفن التشكيلى بعد ذلك على مجال واسع حيث أزدهر لعدة قرون فى الشام وفلسطين ومصر من خلال رسوم الفسيفساء . غير أن هناك رأيا يسوء الغرب هو أن فن الخط والتصاميم التجريدية المحتوية على أشكال محافظة تطورت فى الشرق كتعويض عن صورة محاكاة الطبيعة المرفوضة وحيث وضح أن الخط هو منبع ومصدر كل أنواع الفنون وإن كان هذا لم يحط من قدر التصوير .

وقد تحول اللون الى أكثر من نقل الانطباعات المرئية حيث يقوم بعمل الرمز فى التصوير كما هو فى الأدب وهذا لا ينطبق فقط على الأنماط البشرية ولكن أيضا على تصوير المناظر الطبيعية حيث يعبر اللون عن التعبيرات الأدبية المجازية .

وبمرور الوقت فإن عرض الرموز المرئية كان من الطبيعى أن تستبدل الى درجة ما بتلميحات تصويرية ومثل هذا العمل الفنى لابد أن يكون ذهنيا ومرئيا ومن الممكن الوصول إليه بعدة مستويات ويحتاج الى اعتبارات متزامنة لفهم التكوين والزخارف المصورة التى تحمل المعنى المطلوب الى جانب فن الخط والأدب ، ولا يوجد فى أى حضارة أخرى هذه الوجوه المتعددة للفنون المندمجة أو التى تعتمد على ازدواجية عرض الأفكار مثلما هو عند المسلمين العرب وغير العرب .


رسم فى مخطوطة لابن ظفر الصقلى

المجموعات الفنية الاسلامية

بدأت الأخطار التى أحدقت بالتراث القومى للعالم الاسلامى فى أواخر القرن التاسع عشر والتى كان مبعثها الأوربيون المهتمون بجمع القطع الفنية خاصة مع ظهور طبقة تجار العاديات من البريطانيين والفرنسيين ثم تخصص التجار الأرمنيون فى شراء كل العاديات والتحف من البروكار وصحون الزنك والبلاطات الخزفية حتى خطوط اليد والمنمنمات . وعلى حد قول ستيوارت كارى المسئول بمتحف متروبوليتان بنيويورك ، فإن الفترات التى سبقت وتلت الحرب العالمية الأولى تعتبر بمثابة العصر الذهبى للمهتمين بجمع هذه التحف الإسلامية حيث لم تكن هناك ضوابط لحركة الأثريات . وبالرغم من انشغال الباحثين والجامعيين البريطانيين والألمان بهذا الأمر فقد كانت باريس مركزا لجمع التحف وفى الوقت الذى اشترى فيه الفرنسيون المخطوطات والمنمنمات من ايران وتركيا فإن الانجليز قاموا بتكوين مجموعاتهم فى الهند . وعادة ما يتبع جمع التحف الفنية الوضع الاقتصادى . فقد شهدت سنوات الكساد التى بدأت مع الأزمة الاقتصادية العالمية عام ١٩٢٩ هدوءا فى ميدان الفن الاسلامي استمر حتى أواخر الخمسينات حتى عاد الاهتمام بالفن الاسلامي يظهر من جديد من خلال كتالوجات البيع الصادرة عن


أنو شروان يسجل مشورته الحكيمة الى هرمزد

بيوت المزادات فى باريس ولندن وازداد النشاط فى متحف فوج الفني . وبدأ التغيير فى تفكير الشباب المسلم المثقف عندما بدأ الاتجاه الى استعادة الأعمال الفنية التى كانت قد انتقلت الى أوروبا وأمريكا قبل عدة سنوات من خلال الرغبة فى استعادة تراث الماضى العريق وحيث وضح للمراقب والناقد الفنى أن المهتمين والأكاديميين والمثقفين المنشغلين بالتراث ليسوا من الأجانب الذين تجذبهم فنون ثقافة أخرى ولكنهم من المسلمين الذين يجاهدون لاستعادة حيازة التحف النابعة من التقاليد الخاصة بهم .

شغف العرب باللغة وبالتعبير الفنى

وقد أضفى الاسلام من خلال اللغة والخط العربى والقرآن الكريم والعقيدة الاسلامية الجديدة نوعا فريدا من الوحدة الدينية والثقافية على المساحة الجغرافية الشاسعة التى شغلتها الدولة الاسلامية . وقد تركز شغف العرب باللغة فى عهد الاسلام على القرآن الكريم وكان تمسك المسلمين الشديد بالقرآن الكريم مرتبطا بصورة مباشرة بولعهم التقليدى بالكتب والكلمة المكتوبة ومن هنا يرصد البروفيسور انطونى ولش من جامعة فيكتوريا البريطانية بداية ذلك التقليد العظيم الذى كان فنا جماعيا يحتاج الى مواهب الوراقين والمجلدين وفنانى الزخارف والخطاطين والمصورين . لقد كان الخط ومايزال من أكثر الفنون الاسلامية تميزا



لوحة تمثل مراسم الاستقبال فى كابول .. وقد استخدمت كخلفية لبطاقات الدعوة لمعرض كنوز الاسلام ، وغلافاً لكتاب المعرض والذى طبع فى بلجيكا

وذلك نظرا لثراء الخط العربى ومرونته ، مما جعله ملائما على نحو مثالى للعديد من أنماط الخطوط مثل الخط الكوفى والخط المقور والخط المغربى .

إن أهم ما يحتويه معرض كنوز الإسلام فى سويسرا من كنوز الخط العربى صفحات من مصحف شريف كتب فى القيروان فى القرن التاسع الميلادى ، مكتوب على الرق بخط كوفى مذهب وصفحات أخرى وجدت فى الأندلس فى القرن الثالث عشر الميلادى وفى مصر فى القرن الرابع عشر الميلادى ، ومصحف شريف يتكون من ٦٥ صفحة مزوقة ومكتوبة بخط عربى مغربى يعود تاريخه الى القرن الثانى عشر الميلادى وقد أوضح ابن خلدون فى مقدمته الشهيرة الفارق بين الخطوط العربية ، فقال (ان جمالية الخط المغربى تختلف عن جمالية الخطوط الأخرى التى فى مصر والمشرق العربى ، فالخط المغربى اعتمد على وحدة الحروف داخل الكلمات أما الخطوط الأخرى فقد اعتمدت على إظهار شكل كل حرف فى الكلمة ، ورغم قوة أشكال الخط المغربى إلا أنه لم يستعمل على الاطلاق خارج الأندلس وبلاد المغرب العربى .

ومن بين تراث الكتب العربية التى احتفى بها معرض كنوز الإسلام صفحات مخطوط عربى يشمل وصف نبات طبى فى خواص الأشجار ، لديسقوريدس ، وهو يعود الى بلاد الرافدين فى القرن الثالث عشر ، وهناك أيضا صفحات من مخطوط (سلوان المطاع فى عدوان الأتباع) لابن مظفر الصقلى ويعود الى مصر فى القرن الرابع عشر ، ومخطوط (الحيل الهندسية) لابن الرزاز الجزرى وقد وجد فى مصر فى القرن الرابع عشر .

أما أهم مقتنيات المعرض من كنوز الكتب الإسلامية فى غير الأقطار العربية فنجد من بينها صفحات أكثر من مصحف مكتوب على ورق بالخط الكوفى ، وقد اكتشفت فى ايران فى القرن الحادى عشر الميلادى . أيضا نجد من مخطوطات الكتب صفحات من « طير الماء » أو « الغواص » وهو مخطوط « منافع الحيوان » « لابن بختشيوع » وقد اكتشف فى إيران فى القرن الثالث عشر ، و « الشاهنامة » التى تعد بمثابة وثائق أساسية للتعرف على تطور مدرسة التصوير الفارسية ، وقد وجد من مخطوطها صفحة تصور قصة زيارة سرية للشاه بهرام جور الى بيت تاجر مجوهرات تشدو له ابنته ، وينتهى اللقاء بإعجابه بها وزواجهما .

أما أفخم النسخ المليئة بالصور والتى يضمها معرض « كنوز الاسلام » الذى يعد أول معرض من نوعه فى العالم فهى « شاهنامة شاه طهاسب » أو « كتاب الملوك » ويبدو وكما يوضح الباحث المؤرخ ستيوارت كارى أنها نسخت على عدة مرات على يد مجموعة من الخطاطين وتحتوى هذه الشاهنامة على ٦٥٩ صفحة وهى تنتسب الى القرن الخامس عشر ، وقد بدأت كتابتها فى أيام الشاه اسماعيل مؤسس الدولة الصفوية ، وقد ظلت « الشاهنامة » على مدى عدة عقود وتحت حكم اثنين من الأسرة الحاكمة محط أنظار الفن الصفوى ، فهى بمثابة معرض لكبار الفنانين ومركز لتدريب الجيل القادم وكانت القمة التى يتوق صغار الفنانين للوصول إليها .

الأناضول ودلائل الخيرات

وأهم الأعمال الفنية التى تعود الى الحقبة العثمانية توضح أن الشعوب الإسلامية المتحدثة بالتركية أخذت فى الاستيطان فى الأناضول بعد معركة « ماتريكرت » التى وقعت عام ١٠٧١ إلا أن هذه الدولة لم تدعم أركانها إلا بعد فتح القسطنطينية فى عام ١٤٥٣ ، ومن أبرز تراث تلك العصور الاهتمام بالعمارة والفنون المنقولة وفنون الخط وأيضا ابداع الرسامين وتزويدهم المؤلفات الإسلامية بالصور والرسوم التى امتدت الى الملاحم العثمانية وكتب التاريخ والجغرافيا بجانب الاهتمام برسم الصور الشخصية وتصوير الحملات العسكرية وغيرها من النشاطات الخارجية والداخلية المختلفة .

وأهم مقتنيات معرض كنوز الاسلام التى تعود الى الحقبة العثمانية مصحف كريم مزين بالألوان الذهبية مكون من ٢٧٨ صفحة من خلال نسخ بديع للشيخ حمد الله بن مصطفى يعود الى استانبول فى القرن العاشر الهجرى . والمعروف أن الشيخ حمد نسخ ٤٦ مصحفا كريما كما علم فنون الخط لولى عهد الدولة



العثمانية بايزيد الذى أصبح سلطانا عام ١٤٨١ ، ومن أهم الأعمال الفنية التى يضمها معرض جنيف صورة شخصية للسلطان سليم الثانى منسوبة إلى رئيس حيدر فى عام ٩٧٨ هجرية أى ١٥٧٠ ميلادية ثم لوحة فرمان صادر باسم السلطان مراد الثالث كتب بالخط الايرانى فى مساحة ١٤٢ فى ٤٥ سم فى سنوات حربه مع النمسا والمجر من جانب وإيران من جانب آخر ، وذلك فى خلال مدة حكمه من عام ١٥٧٤ وحتى ١٥٩٥ ميلادية . وهناك أيضا صورة شخصية لأحد الأرستقراطيين من الشخصيات المرموقة من المحاربين الشعراء وصورة فتاة جالسة وصورة شخصية لأحد رجال الدولة تعود الى عام ١٦٥٠ ميلادية ثم مناظر من مكة والمدينة من مخطوط « دلائل الخيرات » لمحمد بن سليمان الجزولى .

الهند المسلمة وكتاب الساعات

أما أهم ما يعود الى الهند من كنوز الفن الاسلامى المعروضة فى جنيف فيبدو فى مصحف كريم مخطوط على يد كاتبه محمود شعبان البهارى . وقد وجد فى قلعة جواليور فى عام ١٣٩٩ ميلادية بجانب أوراق أخرى متفرقة من مخطوطات مصاحف كريمة وجدت فى الهند بالخط البهارى خلال القرن الرابع عشر . وهناك أيضا لوحة تحمل اسم (ليلة القدر) وهى من مخطوط « خمسة » للشاعر أمير خسرو دهلوى وجد فى دلهى القرن الرابع عشر الميلادى ، وهى مزيج من التأثر بالقيم الإسلامية من خلال فنون التصوير الهندوسية والفارسية . وهناك أيضا صورة الشاه أبى المعالى . وتعود إلى الهند المنغولية وعليها توقيع الفنان دست محمد ، ووجدت فى القرن الخامس عشر ثم لوحة « حمزة يهرب من السجن » برسم الامبراطور أكبر وتعود الى الهند المنغولية فى القرن الخامس عشر واللوحة مستوحاة من سيرة حمزة عم النبى عليه الصلاة والسلام وهى جزء من مقتنيات مخطوط « حمزة نامه » التى تعود الى وضع ملحمة بالكلمة والرسم عن مآثر عم النبى وهى تعد من أضخم مشروعات الفن الاسلامي التى رعاها وأشرف عليها الامبراطور أكبر .

أما مخطوط « كتاب الساعات » فهو مكون من ٥١ ورقة كتبها الناسخ محمد يوسف لميرزا عزيز واشتملت على ١٢ بمنمنمة وأربعة رسوم بيانية وتعود الى الهند المنغولية فى القرن السادس عشر ويضم هذا المخطوط البروج الفلكية الاثنى عشر . وهناك أيضا لوحة موكب من الأفيال وصورة الأمير سليم والدراويش وهى تعود الى الهند المنغولية فى القرن الخامس عشر وهى من أعمال الفنان عبد الرحمن شرين خان .

وأهم كنوز الفن الاسلامى فى مجال الخزف والتي يضمها معرض جنيف نجد ما يعود إلى العراق فى القرن التاسع الميلادى من آنية فخار مزجج بطلاء قصديرى عليه كتابة كوفية باللون الأزرق ، وطبق فخار مزجج بطلاء قصديرى مزخرف ببقع من الطلاء الأخضر ، وإناء عليه زخارف مرسومة بالبريق المعدنى . وطبق عليه صورة طائر ، وطبق عليه زخرفة متعاددة وآخر عليه رسوم شخص وطيور ، وإناء عليه رسم أرنب والأخير يعود الى مصر فى العهد الفاطمى فى القرن الحادى عشر الميلادى وإناء بقيت منه شقافة مرسوم عليها وجه رجل ، وقد اكتشف هذا الإناء فى الفسطاط فى القرن الحادى عشر الميلادى . ثم طبق عليه كتابة سوداء على أرضية بيضاء . وقد اكتشف فى إيران فى القرن العاشر الميلادى . وتتعدد هذه الأشكال للأطباق المرسوم عليها كتابة والمكتشفة فى شرق إيران فى القرن العاشر الميلادى وهى غير صحن كبير مزخرف بمراوح نخيلية وإناء يزينه شخص جالس وآنية عليها طيور أو فرسان أو مزخرفة ببقع لونية أو عليها رسوم حيوانية وهناك ابريق مزجج بطلاء فيروزى معتم يعود إلى القرن الثانى عشر الميلادى واكتشف فى إيران وابريق على شكل جرة وجد فى قاشان فى القرن الثالث عشر الميلادى وتمثال ثور وهو تقليد فنى لنحت التماثيل لم يكن معروفا فى الفن الاسلامى وقد وجد فى قاشان ، وهو يرمز لابراج التنجيم وهناك أيضا البلاط المزين بالكتابات وهو ينتمى للبلاط الخزفى الذى تطور فى الفترة المنغولية لتزيين جدران مشاهد القبور وقد اكتشف فى الهند . وهناك بلاط تزيين الحوائط ومرسوم عليه صورة المسجد الحرام وقد وجد فى أزنيك بتركيا فى القرن السابع عشر الميلادى .

التحف والمشغولات المعدنية

ولأن الأوانى المعدنية كانت من أهم الأدوات التى استخدمها متوسطو الدخل فى المجتمع الاسلامى خلال القرون الوسطى فقد كان لانتشار المعادن ــ كما يرصد المؤرخ الدكتور جيمس آلان من جامعة اكسفورد ــ بهذا الشكل الواسع ــ أثر بالغ على الحرف الأخرى .

ومن أهم التحف المعدنية التى تعبر عن التأثير الإسلامى فى معروضات كنوز الاسلام فى سويسرا ما يبدو فى قارورة من البرونز ذات ثمانية جوانب وجدت فى مصر فى القرن الثامن الميلادى (الثانى الهجرى) . قارورة أخرى من البرونز المصبوب الخالى من الزخرفة وجدت فى مصر . التى وجد فيها أيضا ابريق من البرونز له ثلاثة أرجل ويعود للفترة الطولونية ، كما يوجد أيضا فنجان من البرونز المصبوب وجد فى خراسان فى القرن الحادى عشر الميلادى وهى غير تحف أخرى عليها أشكال طائر وفيل وشمعدان وقارورة مصنوعة من البرونز المصبوب وهى غير مرآة وحامل شمعة ومحبرة وقاعدة محبرة وكلها من البرونز ووجدت في ايران فى القرن الثانى عشر الميلادى ، وهى غير مقلمة من النحاس الأصفر مكفتة بالنحاس الأحمر والفضة وتعود إلى القرن الثالث عشر ووجدت فى خراسان التى وجد فيها أيضا صندوق من البرونز المصبوب المكتوب على جوانبه بخط النسخ : « العز والإقبال والنعمة والدولة والراحة والقناعة والشكر » . ثم يوجد صحن من البرونز المحتوى على نسبة عالية من القصدير وفنجان مكفت بالفضة وإناء ذو غطاء وقاعدة مرتفعة . وبجانب هذه الأشكال المعدنية نجد قصعة من النحاس الأصفر المصبوب ومقرعة باب وطبلة وابريق له غطاء ، وهاون وقاعدة متجددة وصحن من النحاس المطروق وابريق بدون مصب ومشعل وحامل مشعل ، ووعاء من البرونز المكفت بالفضة وطاسة ذات قاعدة مرتفعة وكل هذه المقتنيات التى اكتشفت فى تاريخ مبكر من الشرق الأوسط فى ايران وسوريا وتركيا ومصر والعراق . ومن طريف القول ما كتب على الطاسة ذات القاعدة المرتفعة كتابة تقول : « هذه الطاسة المباركة جمعت منافع وهى للسموم والنسوع والطلقة والقرص ولعلة الكلب الكالب وللمغص والقولنج والكبد والطحال ولإبطال السحر .. أشرب ما بها بإذن الكريم .. رصدت ونقشت برسم نائب العبد



لوحة تمثل شابا جالسا على حافة جدول . وهى منمنمة مرسومة بالألوان . وتعود الى الفترة المغولية بالهند المسلمة

الفقير الى الله تعالى كافور الأخشيدى فى عام ٤٢٨ هجرية » .

التعبير الفنى في الأسلحة والعتاد

تزخر المنمنمات الإسلامية بوصف تصويرى للمحاربين والأمراء المسلمين بالأقنعة الحربية المحفورة وبالأسلحة المذهبة ويظهرون في الرسوم جلوسا على صهوة خيول تكسوها أغطية مزركشة ثمينة عليها سروج منقوشة ، حاملين فى أيديهم تروسا ملونة أو مغطاة بالحرير ومعهم جعاب لحفظ السهام والنبال بالإضافة الى الدبابيس المذهبة والسيوف والخناجر ذات المقابض المموهة بالذهب والفضة . والمرصعة عادة بالجواهر . كما صور رسامو المنمنمات أيضا معدات مثل الأحزمة المنمقة والخاصة بالمحاربين من ذوى الرتب العسكرية العالية والطبول المحزوزة والأبواق المنتهية بأشكال قنينات والرايات المعدنية ولم يكن غريبا أن يحرص المصورون فى رسومهم على ابراز النواحى الجمالية للقطع الفنية ولمعدات القتال لأنهم كلفوا بهذه الأعمال من قبل السادة المحاربين عشاق الفن .

وأعظم رعاة الفنون الاسلامية ، شهرة الخليفة المنصور ويليه فى الأندلس عبد الرحمن الأول فى القرن الثامن الميلادى ثم تيمور الذى أوجد مجمع الفنانين فى عاصمته سمرقند فى القرن الرابع عشر الميلادى الى أن جاء محمد الثانى فى القرن الخامس عشر الميلادى وفتح القسطنطينية فكان للأسلحة الجميلة جاذبية خاصة لدى هؤلاء الرعاة من المحاربين كما يظهر فى التحف المحفوظة فى المتاحف العالمية مثل متحف توب قبو سراى

أما أهم مقتنيات معرض كنوز الاسلام فى جنيف من أسلحة وعتاد حربى فتبدو فى قناع للحرب يعود للقرن الخامس عشر الميلادى وجد فى ايران ورأس دبوس من البرونز يعود للقرن الثانى عشر الميلادى وقالب واقى من الفضة المموهة بالذهب ويعود للقرن الثالث عشر الميلادى وقالب لمقبض سيف سلجوقى يعود لنفس القرن أيضا وسيف صليبى الشكل من البرونز والحديد حفر على جانبيه كتابات عربية تقول : « حفر بثغر الاسكندرية المحروس ومن أخذه ولم يرده كان عليه ذنبه » وهذا السيف كان من الغنائم التى أُخذت من الاسكندرية فى القرن الثالث عشر الميلادى على يد القيارصة وهناك أيضا مقبض سيف وخوذة ونصل سيف وغطاء لرأس حصان وسيف من الفولاذ وآخر من الفضة المفضضة وخنجر من الفولاذ والذهب وخنجر بمقبض من العاج وزردية ودرع من القصب وخنجر له مقبض عاج وزمزمية ميدان وجعبة سهام وحافظة قوس وخنجر من اليشم ومقبض خنجر من الفولاذ الخالص وآخر على شكل رأس حصان وقارورة بارود من العاج وخنجر من اليشم المرصع بالجواهر وبندقيتان مموهتان بالذهب والمينا تعودان الى القرن السابع عشر الميلادى وخوذة على هيئة إناء غائر وأغلب هذه المقتنيات تعود للعصر الاسلامى السلجوقى أو المغولى أو العثمانى .

فنون الطنافس والنسيج

وجولة فى مقتنيات معرض كنوز الاسلام تجعلنا نقف على أهم ما فيه من كنوز الفن الإسلامى فى مجالات الطنافس (السجاد) والمنسوجات فنرى سجادة قاهرية مملوكية من الصوف ومقاسها ٢٠٤ × ١٧٠ سم . وتعود الى القرن السادس عشر الميلادى وأخرى أسيوطية تعود الى العصر العثمانى ، وثالثة أناضولية صناعة منطقة عشاق فى القرن السادس عشر الميلادى ، ورابعة سجادة صلاة كبيرة من الأناضول وخامسة سجادة (طنفسة مطرزة) بخيوط معدنية من الذهب والفضة تنتمى الى قاشان فى القرن السادس عشر الميلادى وسادسة سجادة مطرزة من الحرير ترجع الى القرن السابع عشر الميلادى فى ايران وسابعة طنفسة





زوجان فى ليالى الشتاء ويصحبتهما خادم ـ اللوحة مقاس ١٤ × ٢٠ سم اكتشفت بتاريخ ١٠٨١ هجرية ـ بأصفهان

قوقازية من الصوف الملون تعود الى القرن السابع عشر الميلادى وأخرى مخمل موشى بخيوط الذهب ترجع الى القرن السادس عشر الميلادى وفيها وضوح التأثير الايطالى على السجاد التركى.

وفى مجال النسيج نجد حريراً من الذهب المخمل يعود الى العصر الصفوى فى القرن السادس عشر الميلادى فى ايران . ونسيجاً من الفضة موشى بالحرير ونسيجاً أطلس من الذهب الموشى بالحرير . ونسيجا أطلس من الحرير ، وغطاء من النسيج المطرز وكلها من العصر الصفوى فى ايران وستارة مطرزة بغرزة السلسلة وهى من العصر المنغولى فى الهند فى القرن الثامن عشر الميلادى . وهناك غطاء مطرز وستارة من الكتان من العصر العثمانى فى تركيا فى نهاية القرن السابع عشر الميلادى ، وغطاء مطرز بالابرة يرجع الى القوقاز فى القرن السابع عشر الميلادى وغطاء من القطن المصبوغ وأسلوب تطريز بخاري ويعود الى منطقة طشقند فى القرن الثامن عشر الميلادي .

فنون العمـــلة الاســـلامية

وتوفر النقود دليلا موثوقا ينم عن المستوى الثقافى للمنطقة التى تم فيها السك ، وقد شهدت منطقة الشرق الأوسط وحوض البحر المتوسط بواكير النظم النقدية فتداول السكان النقود المستوردة من البيزنطيين والفرس وبعد العام الحادى عشر الهجرى ظهرت بشائر النقود الاسلامية الأولى .

ويتميز فن العملات الإسلامية بالمزج بين الخط والتجريد وقد حافظ التيار الرئيسى للعملة الإسلامية على نهج القرن السابع الهجرى الذى يعرض عن الصور باستثناء قطع قليلة تأثرت بمصدر غير اسلامى .

إن إلقاء نظرة عابرة على الدنانير الأموية والعباسية يترك انطباعا بأنه لم يطرأ أى تغيير على شكل الدينار الإسلامى لمدة تناهز قرنا من الزمان لكن فى أوائل القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) ظهر طراز جديد من العملة العباسية فيه ميل متزايد الى النقش الزخرفى واستمر هذا الاتجاه حتى أصدر الفاطميون طرازا جديدا من النقود يختلف عن الطراز الذى استعملوه عن الأغالبة ويتميز الطراز الفاطمى برقة خطه وأناقته وبروز النقوش الدائرية وقد أدى الاستقرار الذى تمتعت به العملة الفاطمية الى تقليدها ليس فقط من قبل الأيوبيين بل ومن قبل بعض الدويلات المعاصرة مثل الصليبيين وسلاجقة الروم .

وعلاوة على النقود الفاطمية ظهر نمط مبتكر آخر تميز تصميمه بإطار مربع محاط بدائرة وقد صدر عن حركة الموحدين فى الشمال العربى الافريقى وأسبانيا الاسلامية .

إن من بين مقتنيات المعرض الخاص بكنوز الفن الإسلامى فى جنيف عملات ذات أهمية تاريخية خاصة مثل الدينار الأموى الذى يعود لعهد الخليفة عبد الملك بن مروان .

أيضا النقود العربية اللاتينية فى الأندلس مثل الدينار الأموى الذى يعود لعهد الخليفة سليمان . وهناك النقود العربية الساسانية فى العراق وايران ومنها دراهم باسم الخليفة معاوية بن أبى سفيان ودرهم باسم الحجاج ابن يوسف الثقفى وهناك العملة الأموية المصرية والعملة العباسية فى العصر العباسى الأول والعملات المتفرعة عنها فى المغرب والأندلس . وهناك النقود العباسية فى العصر العباسى الثانى . ونقود السلالات التى خلفتهم فى العراق وايران والنقود الفاطمية والنقود الأيوبية والمملوكية المحاكية لها . وهناك المربع المحاط بدائرة وهو يعود لنقود الموحدين والنقود التى حاكتها . وهى غير النقود الإسلامية المضروبة فى دوقية البندقية والنقود الذهبية التنكة فى الهند والنقود ذات الصور والنقود التذكارية ، وغيرها من نقود النظم الاسلامية التى صاحبت عصور الانحدار والاضمحلال فى الدولة الاسلامية .

جنيف : محمد سعيد

فقالت : وما ذاك ؟ قال : تخلين عنى وتعيريننى البلقاء فرس سعد ، ولله علىّ إن سلمتُ أن أرجع حتى تضعى رجلىّ فى القيد . فترددت سلمى حتى تبينت الصدق فى قوله فأطلقته . وركب أبو محجن البلقاء ثم دب عليها ، حتى إذا تنفس الصبح وأشرق يوم أرماث ، واصطف الناس ، حمل على ميسرة العدو حملة صادقة فانخلعت لها القلوب ، وانخرعت منها القيلة ، وتضعضعت أمامها الفرس . وعجب العرب ان يكون فيهم هذا الفارس ولا يعرفونه ، حتى قال أحدهم : ان كان الخضر يشهد الحرب فهو صاحب البلقاء . وقال آخر : لولا أن الملائكة لا يقاتلون ظاهرين لقلنا هذا ملك . وجعل سعد يقول وهو يشرف على المعركة : الطعن طعن أبو محجن ، والضبْر[3] ضبر البلقاء ، ولولا محبسه لقلت إنه هو !

وانتصف الليل فتحاجز العسكران ، وأقبل أبو محجن حتى دخل القصر ووضع رجليه فى القيد !

وكانت سلمى قد رأت فعله وسمعت قوله فأعجبت بإبائه ووفائه وبطولته . ثم دخلت على سعد وكانت مغاضبة له : فصالحته وأخبرته بخبر أبى محجن ، وسألته أن يطلقه . فاستخف سعداً ما رأى من فتوة أبى محجن ورضا زوجه . فدعاه وقال له وهو لا يزال فى حماسة الاعجاب ونشوة الغبطة : والله لا أحبس بعد اليوم رجلاً نصر الله المسلمين على يديه هذا النصر ، ولا أعاقبه إذا شرب فقال له أبو محجن وقد بدت على محياه سمات النبل ودلائل المروءة :

ــ وأنا والله لن أذوقها بعد الساعة . لقد كنت أشربها أنفة من أن يقولوا خاف الحد . فأنا اليوم أتركها رغبة فى أن يقولوا خاف الله !

احمد حسن الزيات

١٩٣٩

هوامش

(١) خاس بالعهد : نكث
(٢) حوانيت الخمر
(٣) ضبر الفرس : جمع قوائمه ووثب



يا حلوة الوعد ما نساك ميعادى
عن الهوى أم كلام الشامت العادى
كيف انخدعت بحسادى وما نقلوا
أنت التى خلقت عيناك حسادى
طرفى وطرفك كانا فى الهوى سببا
عند اللقاء ولكن طرفك البادى

ثلاثة أبيات من قصيدة للمرحوم شوقى بك تبلغ سبعة عشر بيتاً نشرت الرسالة منها فى سنتها الأولى اثنى عشر بيتاً تحت عنوان (شوقية لم تنشر تغنيها إحدى القيان) . ولم تشر المجلة وقتئذ الى اسم المغنية لأنها كانت قد تزوجت وانقطعت صلتها بالجو الفني .. وهذه المغنية هي السيدة (ملك) وقد صنع لها شوقى بك هذه القصيدة قبل وفاته بعامين لتغنيها وكان ذلك فى مصيفها بالاسكندرية ، حيث كان يختلف إليها أمير الشعراء والأساتذة فكرى أباظه ومحجوب ثابت ومحمد عبدالوهاب .. وقد أعجب الأستاذ محمد عبد الوهاب يومئذ بمعنى القصيدة وتلحينها . فلما توفي المرحوم شوقي بك تحدث الأستاذ عبد الوهاب بأن آخر ما نظمه شوقى له كانت هذه القصيدة . فردت عليه السيدة ملك فى جريدة البلاغ تنكر عليه ذلك وتستشهد بمن ذكرت وبنسخه القصيدة مكتوبة بخط شوقى إليها . ووقف الأمر يومئذ عند هذا .

ولكن الاستاذ عبد الوهاب عاد فلحن هذه القصيدة فى هذه الأيام لروايته الجديدة التى يزمع إخراجها فى الشتاء القادم . فلما علمت السيدة ملك بهذه تجدد بينهما نزاع لطيف توسط فيه أصدقاؤهما حتى وعد عبد الوهاب بأنه (سيحاول) أن يستغنى عن هذه القصيدة . ويظهر أن هذا الوعد لم يطمئن السيدة (ملك) فنشطت حركة استشارة المحامين ونشطت معها تلك الضجة الطريفة التى لا نعلم كيف تنتهى وعلى أى وجه من الوجوه ستحل . والظريف فى الأمر أن أشد الجميع غضباً هو الدكتور محجوب ثابت ! فهو يعجب من جرأة الأستاذ عبد الوهاب وعدم استئذانه إياه باعتباره (الشامت العادى) الذى عناه شوقى رحمه الله .

محمد المويلحى

١٩٣٩

كذبة إبريل



بقلم : إبراهيم عبد القادر المازني

فى أول ابريل يحلو لبعض الناس أن يكذبوا . ويطيب لهم أن يزعجوا بهذا الكذب إخواناً لهم . أعزاء عليهم ، أثراء عندهم ولو اختصوا بالكذب المثير أو المزعج ، أو الذى يورث المتاعب ، غير الأوداء والاصدقاء : أى الخصوم والأعداء ، لكان هذا أقرب الى العقل وأشبه بما ينبغى أن يكون . فما يبالى المرء على أى حال من السوء يكون عدوه . وكلما زاد الشر الذى يقع فيه أو يُمْنَى به العدو كان ذلك أشرح لصدر عدوه وأثلج لقلبه . ولكن الصديق شيء آخر . والانسان جدير أن يخجله أن يركب صاحباً له بدعابة مؤذية . وأن يضحك ويفرح بما ينزله بهذا الصاحب من السوء .

وقد لقيت فى أول ابريل هذا من المتاعب مابغضه الى ، حتى لتمنيت على الله أن يلهم الناس حذف هذا الشهر كله . وإسقاطه أجمعه من تقويم العام .

صبّحنى واحد . وأنا أجلس الى مكتبى . بأن برقية وردت بأن المانيا قذفت بجيشها على أرض بولندا . وأن القتال يدور بين الطلائع النازية وقوات الدفاع . فسألته : « أتتكلم جاداً ؟ » .

قال وهو يشير الى ورقة فى يده « هذه هى البرقية : اسمع ترجمتها » .

فتفرست فى وجهه وحدجته بنظرة فاحصة . فلم أر ابتساما ، ولا ما يشى بأنه يهم بالابتسام . فقلت : « انى كنت ، وأنا آتى الى هنا ، أحدث نفسى بأن أكتب فى التصريح الذى ألقاه المستر تشمبرلن امس فى مجلس العموم البريطانى . وكنت أريد أن أقول إنه من العوامل المرجحة لكفة السلم . ولكنك تروى لى نبأ غريبا . لا يكاد يقبله عقلى . فهات لى هذه البرقية لأقرأها فإنى لا أكاد أفهم . وأحسبنى سأجن . فما أعرف لماذا تجازف ألمانيا هذه المجازفة التى ليس لها أى موجب . ولا من ورائها أى خير لها أو لسواها » .

وانتزعت منه الرقعة فإذا هى قديمة وتاريخها أول مارس . وليس فيها أى ذكر لألمانيا أو بولندا ! وماذا يبالى صاحبنا هذا أن يهدم لى الدنيا ، وأن يحيلها حولى أنقاضا . وأن يدير لى راسى حتى ما أعود أعي شيئاً ؟!

وبعد نحو ساعة . طلبت الى التليفون . فقمت إليه . فإنى أكره أن تكون آلته على مكتبى . أو فى الغرفة التى أنا فيها ، ولا أعرف ما هو أشد إزعاجاً لى من صوت جرسه حين يدق فجأة وقلت وأنا أضع السماعة على أذنى « نعم » .

فسمعت صوت زوجتى يقول لى : « أبو خليل ... مبروك ! » .

فسألتها مستغربا : « ماذا ؟ مبروك إيه ؟ » .

قالت : « بالهناء والرفاء والبنين ! لماذا لم تخبرنا لنفرح لك معك ؟ » .

قلت : « عن أى شيء تتحدثين ؟ رفاء ، وبنين ... ؟ ! ما هى الحكاية ؟ » .

قالت : « برقية وردت بتهنئتك بعروس جديدة ... هل أقرأها لك فى التليفون ؟ أو يكفى أن أذكر لك اسم مرسلها ؟ ! وقبل البرقية دق الباب رجل وسأل عنك . فعرف أنك خرجت فكلفنا أن نبلغك تهنئاته القلبية . فلم نفهم »

● عندما أكلت زوجتي شوكولاتة بالثوم والفلفل !

● برقية في أول أبريل تهنئني بعروس جديدة .. وزوجتي هى التي تتلقى البرقية !!

ولكنه انصرف قبل أن نتمكن من سؤاله . على أن البرقية ما لبثت أن جاءت ففهمنا كل شيء ! مبروك ، على كل حال » .

فأيقنت أن أكاذيب ابريل كلها ستقذف عليّ في هذا اليوم السعيد . وقلت لها : « آه ، كذبة أبريل .. اشكرى عنى المهنئين والمهنئات . فإنى الآن مشغول بالعروس ، أبثها حبى ، وأناجيها بما يجن قلبى لها ! ألا تسمعين ؟ » .

فألقت السماعة ، ولم تجب ! والمصيبة أن النساء أميل الى تصديق كل مايثير غيرتهن ، ولو كان كل شيء يدعو الى نقيض ذلك ويغرى بالاطمئنان .

وخرجت ، فمررت بصاحب لى ، فقدم لى شوكولاته ، فاعتذرت فإنى لا آكل شيئاً بين طعامين ، فألح ، فأصررت على التأبى ، فاقترح أن أنتقي بضع قطع أدسها في جيبى وآكلها حين أشاء فلم أر في هذا بأساً فأجبته إليه . وعدت الى البيت ، وخلعت ثيابى لأستريح ، فسألتنى امرأتى : « معك سجاير ؟ » !

قلت : « في جيبى .. خذى ما تريدين » .

فدفعت يدها في جيبى وقالت ، وهى تخرجها وتتأمل ما عثرت عليه : « آه .. شوكولاتة العروس » ! !

قلت : « لا تكونى سخيفة .. هذه أعطانيها فلان » .

فألقت في فمها واحدة ، وهى تضحك ، وإذا بها تلفظها فجأة وتصيح وقد عبست جداً : « ما هذا القرف ؟ » .

فسألتها : « قرف ؟ أى قرف ياشيخة ؟ مالك في هذا النهار ؟ » .

قالت : « تضحك عليّ وتغريني بأكل شوكولاته حشوها ثوم وفلفل ، وتزعم أن فلانا أعطاكها ؟ ! أى مزاح هذا ؟ هل ارتددت طفلاً ؟ ألا تجد أحداً غيرى تمازحه هذا المزاح البارد ؟ » .

فقلت — وأنا أحدث نفسى — : « شوكولاته بثوم وفلفل ! ياامرأة ، هل سمعت بالمثل العامى : تكون في فمك فتقسم لغيرك ؟ أنا كنت المقصود بهذا المزاح البايخ ، ولكنى نجوت ووقعت أنت . وما يخالجنى شك في أن هذا أبعث على سرور صاحبى الذى أهدى إلىّ هذه الشوكولاته ! ولكنا لن نخبره بشيء ، وسندعه بضعة أيام يتقلى وبوده لو عرف ماذا كان من أمرنا .. لا بأس ! سأجزيه سوءاً بسوء ! فانتظرى ! » .

فظلت تصيح وتسأل عما عسى أن تصنع الآن . فقد فسد طعم فمها ، وأكبر ظنها أن رائحة الثوم ستظل بأنفاسها . فاقترحت عليها أن تشرب قليلاً من الكولونيا !

فهزت رأسها وقال : تريد أن تقتلنى لتخلص لك عروسك الجديدة . ويصفو لك الجو معها ! » .

فسكت ووضعت إصبعى في الشق ، بل وضعت أصابعى العشر كلها في الشقوق . فما من سبيل الى إقناع المرأة بسخافة الغيرة .

وأحسب أن الكذب يطيب في أحيان كثيرة . بل أحسبه لازما للانسان وعسى أن يكون الصدق متعبة شديدة . ولعل التزامه في كل حال مما لا يطاق .

ولكن من الكذب ما هو برىء ، وما هو سوء يحسن اتقاؤه وأنا مستعد أن أضحك ، وأن استظرف نكات الأخوان واستملح دعاباتهم ، ولكن لا أظن ما ذكرت يدخل في باب الفكاهة المستملحة وقد يكون هذا وما اليه محتملاً . ولكن الفظيع أن ينعى لك صديق وهو حي يرزق . فتخف إلى داره لتعزى أهله . ويلقاك ابنه أو أخوه . ولا ترى في وجهه حزناً أو سهوماً ، فلا تستطيع أن تقص عليه الخبر الذى حملك إليه ، ولا تجد ما تسوغ به هذه الزيارة في ساعة غير مألوفة ! وبعض الناس يضحكهم ويسليهم هذا الضرب من المزاح ! ولم لا ؟ كل ما سر جائز ...

ابريل عام ١٩٣٩

أروع ما قرأت عن كذبة إبريل

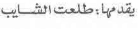
لا يصل هذا العدد إلى أيدى القراء إلا ويكون « أول إبريل » قد أوشك أن يحل ضيفاً على هواة الكذب الطريف .. الكذب الذى يلجأ إليه الناس رغبة في اللهو البرىء .. وشغفاً بالدعاية التى تجنى في الغالب على الذين لا يعدون العدة لهذا اليوم الخالد في حساب الظرفاء والكذابين !

ومن طريف ما يذكر في هذا المجال أن إحدى الصحف الفرنسية قد كتبت في اليوم الحادى والثلاثين من شهر مارس سنة ١٩٤٨ ما يلى : « تقيم الحكومة الفرنسية في صباح الغد معرضاً ممتازاً للحمير بميدان الكونكورد . ومن المنتظر أن يهرع الكثيرون من سكان العاصمة لمشاهدة هذا المعرض الذى تقيمه الحكومة لأول مرة . وتحشد فيه نماذج مختلفة من الحمير التى لم يرها الفرنسيون من قبل » .

ولم يقبل صباح أول إبريل إلا وكان ميدان الكونكورد يموج بالألوف ممن صدقوا خبر الصحيفة ولم يقبل المساء حتى صدرت الصحيفة حاملة إلى قرائها هذا التعليق الرائع : (كان للخبر الذى نشرناه أمس عن معرض الحمير أثره البعيد في نفوس القراء ، حتى لقد أقبل الألوف منهم على مشاهدة المعرض .. ويقول مندوبنا إنه شاهد في ميدان الكونكورد ما لا يقل عن عشرين ألف حمار) ! !

أنور المعداوى
١٩٤٩







يفتشنكو .. بين الشعر والسينما

● يفتشنكو (٥٢ سنة) الشاعر السوفيتى العنيد الذى كان « يكهرب » الجماهير فى الشرق والغرب فى الستينات بشعره المتمرد وطريقة إلقائه الساحرة . عاد إلى الأضواء مرة أخرى . وكان نجم مؤتمر اتحاد الكتاب السوفييت (ديسمبر ٨٥) عندما وجه نقدا عنيفا لأشياء كثيرة فى الاتحاد السوفيتى ليثبت بذلك أنه لايزال يواصل السير فى نفس الطريق الذى اختاره طوال حياته وأنه لم يتحول من التمرد والتحدى والرفض إلى التكيف والمصالحة والامتثال كما يقول عنه اليوم بعض نقاد الغرب .

صدرت للشاعر مؤخرا رواية بعنوان « التوت البرى » هى مزيج من النثر والشعر كما نشرت له مجلة « نوفى مير » ـ العالم الجديد ـ السوفيتية قصيدة طويلة بعنوان « فوكو » يقول عنها إنها مباشرة وذات نزعة مثالية إلى حدٍّ ما ويطالب فيها بالكف عن تمجيد الشخصيات التاريخية التي لا تجلب سوى الحزن والبؤس لنفسها ولشعوبها .

فى القصيدة جزء عن معسكرات « ستالين » فى « كوليما » وآخر عن سائق يبلغ من العمر ١٩ عاما يقود سيارته فى طريق « بنى على عظام الفلاحين » ويعلق فى قمرة سيارته صورة لستالين .

القصيدة لا تخلو أيضا من عبارات خطابية أقرب إلى الحكم اشتهر بها الشاعر منذ البداية مثل « أن من ينش فرائس الأمس قد يصبح فريسة الغد » .

وفى الستينات عندما عرف الناس ـ خارج الاتحاد السوفيتى ـ يفتشنكو ، كانت قصائده مثل « بيبى يار » عن معاداة السامية وقصيدته عن « ورثة ستالين » تحقق له شهرة كبيرة كصوت متميز أو لعله « نشاز » فى النغمة السوفيتية المألوفة لدى الغرب على الأقل ، ولكنه اليوم ـ أيضا ـ يرفض أن يكون غير ذلك كما يرفض الاتهامات التى توجهها إليه بعض صحف الغرب فيقول :

« إن صورتى قد تغيرت فى بعض الصحف الغربية فقط ولكنها لم تتغير لدى القراء . فأنا أعتقد أن بؤرة الشر الكونى لا يمكن أن تكون مركزة فى بلد واحد .. ! الجوانب المظلمة من الحياة الإنسانية والجوانب السيئة من النفس البشرية منتشرة وموزعة فى أماكن كثيرة ، وفى نفس الوقت . وكما قلت فى مؤتمر الكتاب الأخير ـ فإن الكاتب يكون لديه الحق فى الكتابة عن البلاد الأخرى وبالذات عن الحقيقة المرة والمؤلمة فيها . إذا ما كان يستطيع أن يكتب عنها فى بلده » . « ولأنى كتبت « بيبى يار » و « ورثة ستالين » وغيرهما عن الاتحاد السوفيتى أعتقد أنه من حقى أن أكتب قصائد تدين حرب فيتنام . ولكن المشكلة هى أن بعض الصحفيين فى الغرب وخاصة المهتمين منهم بالدراسات السوفيتية لا يستطيعون أن يدركوا أن الشخص ذاته يمكنه أن يكون ضد معاداة السامية وضد البيروقراطية فى بلاده وضد الستالينية وفى نفس الوقت يعارض حرب فيتنام » .

ومن أكثر تعليقات يفتشنكو طرافة أنه يصف العمل لديه بأنه نوع من حساء الشمندر « أو الشوربة الروسية الشهيرة باسم البورش » التى يمكن أن يدخل فيها أى عنصر طالما سيكون الطعم فى النهاية مستساغا » .

هذا ـ عنده ـ هو المبدأ الذى على أساسه يكتب الشعر والرواية والذى على أساسه أيضا صنع فيلمه الأول « روضة الأطفال » الذى يروى فيه قصة إجلائه وهو فى التاسعة من عمره من موسكو إلى سيبيريا فى زمن الحرب . وتجربة الرحلة الطويلة . والأهوال التى واجهته أثناءها .

أما لماذا أقدم يفتشنكو على تجربة العمل السينمائى بعد أن كان شاعرا محترفا منذ الخامسة عشرة من العمر فيقول :

« لى حتى الآن أكثر من مائة ألف بيت من الشعر . والإنسان فى نظرى لا يمكن أن يقضى عمره كله فى صناعة الدراجات . يستطيع أن يطورها دراجة بعجلتين . بثلاث عجلات . بأربع . بعجلة واحدة . دراجة مائية .

دراجة هوائية ، ولكنه في مرحلة معينة سيفكر في عمل شيء مختلف ، ، طيارة مثلا ! ، .

ولأنه يحب السينما ويعتقد أنها هي التى جعلت منه كاتبا وخاصة أفلام الواقعية الايطالية الجديدة . الواقعية الخالية من الزخرف كما شاهدها في أفلام مثل ، لصوص الدراجات ، ، ، روما في الحادية عشرة ، ، المدينة المفتوحة ، قرر أن يبعث طفولته من جديد في فيلم سينمائى .. أن يحكيها كما وقعت بالفعل ودون أن يخترع شيئا : وعندما كان يقوم بإعداد القصة للشاشة وبالتصوير لم يكن يتصرف كمخرج محترف . بل كان يصنع فيلما عن فيلم يعيش بالفعل في ذاكرته على حد تعبيره .

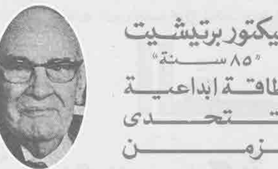
، قمت باختيار كل وجه على حده . بحثت عن الوجوه التى كنت أريدها في الشوارع والمدارس والحقول والمتاجر . وأزعم أننى استطعت إبراز الوجه العادي للمواطن السوفيتى دون أي تنميق أو محاولة للتجميل وذلك لخلق جو من المصداقية وربما الوثائقية ، .

ويفتشنكو الذي يلعب أيضا في الفيلم دور لاعب شطرنج يعتقد أنه قد قدم بالفعل فيلما ناجحا ــ رغم هنات لا يخلو منها دائما العمل الأول ــ وذلك لأنه حاول فيه أن يقول الكثير . الكثير جدا مما لديه . وهو أسلوبه في كل أعماله

، عموما بالنسبة للشعر والأدب أنا مع الذين يعتقدون بأن قول الكثير يكون أحيانا ضروريا حتى في الشعر أنا لا أحب القصائد التى تشبه قوالب القش المضغوطة على شكل مكعبات هندسية محكمة .

أفضل القش مهوشا . ملقى بتلقائية فوق ظهر ناقلة . تحتفظ عيدانه ببعض حبات التوت الجافة . يجلس فوقها بكل عفوية ومرح بعض الشبان . وحبذا لو كانت هناك لا تزال بعض الأغصان متشابكة مع القش الذى يتدلى بعض منه من على ظهر الناقلة ليلمس الطريق أثناء اندفاعها ، .

، روضة الأطفال ، فيلم يفتشنكو عرض للمرة الأولى في موسكو عام ١٩٨٣ وأثار حينذاك زوبعة كبيرة من الآراء المتضاربة كما كان الحال دائما في كل أعماله . ويعرض الفيلم هذا العام في الولايات المتحدة الأمريكية بحضوره بعد أن بدأ الجليد الثقافى بين الشرق والغرب في الذوبان ولاحت في الأفق بداية انقشاع القطيعة الثقافية الرسمية التى استمرت بينهما ست سنوات .



فيكتور برتيشيت «٨٥ سنة» طاقة ابداعية تتحدى الزمن

، عندما كان في السبعين من عمره (عام ١٩٧٠) كتب يقول ، لن أكون عجوزا كما كنت في العشرين أو الثلاثين ، . فيكتور بريتشيت الذى أنعم عليه بلقب ، سير ، عام ١٩٧٥ ، والذى يعتبره البعض أعظم كاتب قصة قصيرة في انجلترا . ويراه البعض الآخر أفضل نقاد الأدب الانجليزى . ويراه كثيرون الاثنين معا .. هذا الرجل يدخل عامه السادس والثمانين بحماس شاب يرى المستقبل أمامه بلا حدود .

في غرفة ملأ جدرانها بمناظر طبيعية من أعمال فنانين معاصرين ووضع في ركن منها صندوقا كبيرا ملأه بعدد من الفيران المحنطة جلس العجوز الشاب الذى لا يزال يتمتع بقدرة كبيرة على الاحتمال وعلى الحضور الأدبي والاستمرارية ككاتب مقروء على نطاق واسع ، وعلى ممارسة حياته اليومية كإنسان : جلس ليرد على أسئلة محاوره ليقول له انه فخور بعمره .. ليس بما أنجزه طوال السنوات الماضية فقط ولكن أيضا لأن تاريخ ميلاده يتماشى مع التقويم . فلأنه ولد عام ١٩٠٠ فهو ليس في حاجة أن يفكر كثيرا هو أو زوجته دوروثى التى يهديها أعماله واحدا تلو الآخر ــ لكى يحسب عمره . في عام ١٩٧٥ كان عمره ٧٥ ؛ وفي عام ١٩٨٥ كان عمره ٨٥ ... وهكذا .

والكاتب العجوز يتبع في حياته اليومية نظاما صارما . في التاسعة صباحا ــ بما في ذلك أيام العطلات ــ يصعد الطوابق الثلاثة إلى مكتبه في الدور العلوى من مسكنه (في ريجنت بارك) . في التاسعة والثلث يكون منهمكا في الكتابة أو في إعادة الكتابة .

(يقول انه يعيد كتابة القصة القصيرة خمس مرات والمقال النقدى ثلاث مرات تقريبا) ، يتوقف في الواحدة إلا الربع لتناول طعام الغذاء ثم ينام قليلا . بعد ذلك عليه القيام بشراء احتياجات المنزل من السوق . حيث يجدها فرصة لتلبية دعوة إلى فنجان شاى قد يوجهها إليه واحد من ، الشخصيات غير العادية من البشر العاديين ، الذين يسكنون قصصه ، بعد ذلك يعود مرة أخرى إلى بيته ليعاود الكتابة حتى السابعة مساء .

، الكلمة والجملة هما معتقدى ، هكذا كتب مرة في عمله الشهير ، زيت منتصف الليل ، الذى يروى فيه قصة حياته . وهو يبذل الآن جهدا أكبر في الكتابة ، سرعتى في العمل تقل بتقدم العمر .. وربما أكون أقل رضا عما أكتب ولكنى على أية حال حريص على الإتقان ، .

منذ فترة قصيرة صدر في بريطانيا كتابه رقم ٣٥ وهو مجموعة من الدراسات النقدية تطالعك فيه مقالات عن ، ستيرن ، و ، سكوت ، الذى يكن له إعجابا قديما خاصا ، وعن ، فرجينيا وولف ، كما يكتب فيه عن الفرنسيين ، ستاندال ــ بروست ــ بلزاك ، ، وعن الروس ، بوشكين ــ تورجنيف ، . وأيضا عن الأسبانى ، دى كويروزو ، والتشيكى ــ النمساوى ، روبرت موسل ، .

أما كتابه القادم فهو دراسة في مرحلتها النهائية عن ، تشيكوف ، ، سيد القصة القصيرة بلا منازع ، ويعتقد الكاتب أن انشغاله بهذه الدراسة قد حرمه شخصيا لمدة عامين من كتابة القصة القصيرة لكنه واثق من أنه سيعود يوما إليها حيث ، رأسه مليئة بأصوات تنتظر توصيلها بشخصيات . وبشخصيات تنتظر دمجها بأحداث ، وبأحداث مختزنة داخله ــ ربما منذ زمن قريب وربما منذ الطفولة ــ عن قصص تنتظر دورها في الكتابة ، .

كان شكسبير في عصره خارجاً على كل القواعد الفنية والأدبية المتعارف عليها ، وبمرور الزمن أصبح خروج شكسبير على القواعد هو القاعدة الذهبية



الفن في مسرح شكسبير

بقلم : عبد الحق فاضل

لامعنى لأن نتناول فن شكسبير بمعيار عصرنا ، أو معاييره المتنوعة المتضاربة ، فلنرجع الى معايير عصره ، بل المعيار الوحيد في عصره ، المجمع عليه عهدئذ عند أهل الصنعة .

كان فن شكسبير في ذلك المعيار رديئاً مثيراً للسخط والنفور . في لغته وفي حبكته وطريقة عرضه ، وفي تجاهله القواعد المصطلح عليها في الأدب التلادي (الكلاسيكي) ، بالاضافة الى افتقاره الى الدقة العلمية في التاريخ والجغرافيا وغيرهما ، وبالاضافة الى اجتذابه الجمهور المملق من الشعب الى المشاهدة وهو عيب في نظرهم آخر ، لايكاد يُغْتَفَرْ .

كانت للأدباء ومنهم المسرحيون لغتهم وألفاظهم كما هي الحال في كل مكان وجيل . لكن القوالب كانت مع إتقانها جامدة ، والألفاظ على كثرتها محدودة لايبيحون تجاوزها .

، لم يكن للغة الانجليزية معاجم عصر ذاك ... وقد اعتذر (جورج بوتنهام) G: Puttinhamعن استعماله ألفاظا جديدة مثل idiom (تعبير اصطلاحي) ، و numerous (متعدد) ، و impression (انطباع) ، و method(طريقة) أما بن جونسن الذي لم يستطع أن ينسى تربيته التلادية فقد أرعبه كاتب مسرحي زميل استعمل ألفاظاً مستهجنة مثل clumsy (أخـــرق) ، و damp (رطب) ، و Puffy (منتفخ) ، .(١)

وهذه الالفاظ وكثير من أمثالها تعد اليوم من صميم اللغة الأدبية الفصيحة ولايخطر لأدباء الجيل أن أسلافهم كانوا يستهجنونها ويستحقرون ممن يرتكب استعمالها في العصر الاليزابثي ، وما قبله ، وحتى مابعده الى حين .

لغتــــه

جاءهم شكسبير ليتدفق عليهم بطوفان من الألفاظ الجديدة الحية التي يرحب بها الجمهور لأنها تفصح مباشرة عن مشاعرهم وتحبيها ، خلافاً للألفاظ التقليدية التي استهلكت نفسها . وتعد مسرحية (هاملت) أغنى مسرحيات شكسبير بالألفاظ الجديدة المتوالية .

إنه هو الذي استعمل في أدبه أكبر عدد من الألفاظ استعمله إنسان في كل التاريخ البشري .

لقد رسم قلمه أكثر من (١٧) ألف كلمة كان الكثير منها جديداً مما كان يفهمه الناس ويتداولونه ، ويعتذر الأدباء التلاديون عن استعماله اذا هو فرط منهم كما فعل (بوتنهام) ، والا هاجمهم زملاؤهم كما فعل جونسن .

الوحـــــدات

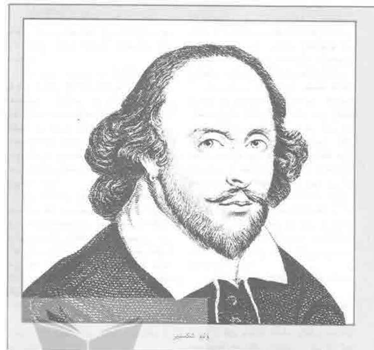
ومن قوانين المسرح التلادي كذلك إنهاء المأساة بخاتمة فاجعة وختم المسلاة بنهاية سارة ، مع الالتزام بثالوث الوحدات : وحدة الزمان والمكان والعمل .

وقد حاول شكسبير الالتزام بها في بداية عمله ، في مسرحية (مسلاة الأخطاء)(٢) فحصر أحداث القصة كلها في يوم واحد وفي بلدة واحدة ، واعتصم بالألفاظ والتعابير التلادية لايخرج عنها . لكنه برم بهذه القيود فكسر قضبان قفصه وحلق في المسرحيات التالية طليقا في الفضاء الرحب فأصبحت كل من حكاياته تستغرق حوادثها أياماً وأحيانا أعواما ، ويتوزع بعضها في مدن وتارة في أقطار .

حتى وحدة الموضوع يخرج عليها تارة أخرى في استطراداته ، أو يجمع موضوعين ، متطابقين ، في مسرحية واحدة : مأساة ومسلاة ، يأخذ هذه من مصدر وهذه من مصدر آخر ، ويزاوج بينهما ، ويزاوج بين الدموع والقهقهات .

الكياســـــة

وكان من قواعد الأدب التلادي الالتزام بفن الكياسة Decorum من نعومة التعبير وحشمته ولياقته وأناقته ، مع تجنب النشوز والعنف قولاً وعملاً على الخشبة حتى أنهم كانوا يتجنبون عرض مشاهد العراك بله القتل على النظارة فكان يدخل المسرح رسول يخبر



وليم شكسبير

الحاضرين بمقتل فلان . وما كان يندر أن يتكاثر الرسل على المسرح .

تقول شوت : « لاشيء أكثر نبواً في وجهة النظر هذه ــ أي الكياسة ــ من أن يتدنى مؤلف مسرحية الى درجة منحطة من السوقية بحيث يظهر حركة بدنية عنيفة على المسرح . لهذا كان الكثير من الرسل يأتون بالأخبار عن أعمال القتل خارج المسرح حتى أن ناقداً حصيفاً فرنسيا كتب متمرداً : إنه لاأليق كثيراً بفندق ذائع الصيت منه بمأساة ممتازة أن يرتادها جمع غفير من الرسل »(١) .

ونزل شكسبير إلى الميدان ليستعمل التعابير الناعمة والخشنة حسب مقتضى الحال . ويعرض المبارزات بالسيوف والقتال والقتل . ودخول من يخبر الحاضرين بمقتل ارشيدوق النمسا ، لا بالألفاظ وحدها . لكن بجلب رأس القتيل يحمله القاتل بيده (الملك جون ٢/٣ : ٧) بل ان شكسبير الحنون في حياته طاوعه قلبه ــ القاسي في مسرحه ــ على أن يعرض للنظارة مصرع الصبي الأمير ، ادورد بن هنري السادس ، بتلك الوحشية التي رأينا (في المقال السابق : المعرفة في مسرح شكسبير) ، أمام عيني أمه . بالاضافة إلى قتل الجمهور الشاعر (سينّا) Cinna ، أو تمزيقهم إياه على تعبيره في (يوليوس قيصر) (٣/٣ : ٣٠ ــ ٣٤) وما الى ذلك .

فمقولة القول إن شكسبير فتح في الخشبة كوة يطل منها المشاهد على دنيا الواقع والحياة هو الماضي والحاضر بخيرها وشرورها

تحــــرره

كان شكسبير الشاب يشعر أن في صدره أشياء أكثر وأكبر من أن تتسع لها تلك القيود التي لم تدربه عليها المدارس منذ نعومة الأظفار . أشياء خطيرة مثيرة ثائرة تريد الخروج الى الفضاء اللانهائي للتحليق والتجواب ولرؤية العالم كما هو لا كما يبدو من خلال الحجاب الذي يتبرقع به الأدب التلادي . وإنها لجرأة .

أعلن السفور الفني ، ليرى الدنيا وتراه الدنيا .. فكان وحده الذي فهمَ الناس وفهمه الناس .

ولعل شيئاً من الفضل في هذا ، أو ربما كان أكبر الفضل في هذا يرجع الى عدم تعلمه في مدارس وجامعات أصولية على أيدي معلمين تلاديين جامدين كغيره من أغلب المؤلفين المسرحيين . وإنما كان تعلمه غير ممنهج ولا إلزامي .. حراً ذاتياً اختيارياً قد نجا من التربية المدرسية فلم يروض التقليد نزواته العقلية أو يطوع مفاهيمه الذوقية كما تراض وتطوع وحوش الغابة في الأقفاص .

رداءة المسرحيات الناجحة

« كان جونسن يأخذ بالعقيدة التي يتمسك بها كل علماء زمانه الذين آمنوا بأن أي شيء يحببه جمهور الدانق(٣) عديم القيمة بالبداهة »(١) .

وعندما « أخفق إخراج مسرحية (جون وبستر) J. Webster اللامعة : (الشيطان الأبيض)(٤) أنحى باللائمة على فقدان « نظارة راشدين فاهمين » . لم يكن (وبستر) يرتاح الى جو المسارح الشعبية . وكان يشكو أنه إذا كتب أروع مأساة تخيلها العقل قط ، مراعياً جميع القوانين النقدية ، فهي مع هذا عرضة للدمار إذا هي مثلت أمام جمهور عام ، « إن النفس المنبعث من الدهماء المتخلفين قادر على أن يسممها »(١) .

وهكذا كان اجتذاب مسرحيات شكسبير جمهوراً غفيراً من المشاهدين أحد الأدلة عند النظريين من المسرحيين على رداءتها .

أما الذين كانوا يقدرون شكسبير من معاصريه إضافة إلى عامة الجمهور فهم المتحررون من الأدباء ، وهم بوجه عام من غير المسرحيين المدربة عقولهم وأذواقهم على الفن التقليدي ، أو التقليد الفني .

إن العلاقة بين جودة المسرحية وبين نجاحها أو إخفاقها عند الجمهور موضوع من التعقيد بحيث لايمكن البت فيه في تقييم عابر ، وإنما يحتاج شرحه الى تبسط واستعراض لمختلف وجوهه . لكن يجدر بنا القول هنا بإيجاز إن شكسبير أيضاً كان يشكو قصور العامة عن إدراك أسرار الفن الرفيع ، وتكمن براعته في تقديم فنه الرفيع ، الأرفع ، بحيث يسيغونه ويشتهونه . وله في هذا الشأن وغيره من شؤون المسرح تمثيلاً وتأليفاً أقوال وشذرات متفرقات في بعض المسرحيات ، منها مثلاً قول هاملت :

« ... المسرحية التي أذكرها لم ترق للملايين . لقد كانت كالكافيار للعوام . غير أنها كانت في رأيي مسرحية رائعة ، حسنة التنسيق في المشاهد . فيها اعتدال بقدر مافيها من براعة . وأذكر أن أحدهم قال : ليس في أبياتها من التوابل مايجعل مضمونها حريف المذاق ، ولا في عباراتها مايدفعنا إلى اتهام المؤلف بالحذلقة . فهي في أسلوبها الأمين نقية عذبة ، جميلة دون تبرج »(٥) .

شكسبير مع الجمهور

كثيراً مايعزو الشراح تفهم شكسبير لروح الجمهور ونزعاته الى كونه ممثلاً .

تقول (شوت) : « إن الفرق الجسيم بين وجهة نظر شكسبير إلى النظارة ووجهة نظر

الفن في مسرح شكسبير

كتاب مثل (جونسن) أو (وبستر) أو (فليجر) Fletcher جاء من أن شكسبير لم يكن كاتباً فقط. لقد كان ممثلا كذلك وفي تماس مستمر مع الجمهور وفي تشابك وثيق مع الحياة الاقتصادية لشركته (١).

لكن هذا كان كذلك شأن بن جونسن الذي بدأ حياته المسرحية ممثلاً قبل أن يهجر التمثيل تفرغاً للتأليف. مع هذا كان هو وأمثاله مقيدين بالقواعد وسيطرة التعليم النظامي.

وأراني أعزو الفضل في تفوق شكسبير الى ثلاث خصال. ثانيها تعليمه اللاأصولي، وثالثها تحرره من القواعد، وأولها وقبل كل شيء عبقريته الفطرية.

لست أريد إلى إنكار أهمية ممارسته التمثيل في تفهم النظارة على اختلاف طبقاتهم. ومن المعقول أن يعزو الباحثون (بعض) جوانب التفوق لدى العظماء إلى (بعض) الظروف أو نوع المدرسة أو التربية البيتية أو مزاولة التمثيل لكن الى حد محدود. فإن الألوف تخرجوا في تلك المدرسة وتربوا مثل تلك التربية ولم يتبغوا ذلك النبوغ.

وكم من بيت واحد أنجب مصلحاً عظيماً ومجرماً خطيراً معاً.

العبقرية موهبة: أما التربية وظروف البيئة فوظيفتهما تعهد تلك الموهبة وصقلها. لا خلقها.

مهما بلغت المسرحية من جودة التأليف وروعته فهي فاشلة أمام الجمهور إذا لم يكن له فيها نصيب. وإنما نجحت مسرحيات شكسبير دائماً لأن فيها دائماً مايستهوي الشعبيين من الناس.

فن شكسبير ظاهرة خاصة. كان يجتذب العامة كالخاصة. وإن المرء ليستغرب إعجاب العامة به. ماالذي يفهمونه من ذلك الفن السامي؟

إنه هو الذي كان يفهمهم أولاً فيودع مسرحياته مايروقهم ولاسيما أولئك الذين لم يسمعوا بالوحدات الثلاث ولايحاسبونه عليها وعلى غيرها من قوانين الفن التلادي، ولم يتعلموا التمييز بين الألفاظ المرفوضة والمقبولة لدى أساطين الفن. كل الألفاظ المعبرة عن أفكارهم وأحاسيسهم مقبولة ومرحب بها.

وكان شكسبير يمطرهم بوابل منها في كل مسرحية تقريبا.

إنه أعجب العامة على الرغم من تحليقه الفكري فوق مدى إدراكهم وأعجب الكثيرين من الخاصة مع خرقه لقواعدهم.

الخاصة أحبوا الأفكار والابداع الفني. والعامة أعجبهم فهم اللغة وفهم مشاعر أنفسهم والاستمتاع بحرية الحركة والتصرف على الخشبة.

كان يكتب لطبقتين من النظارة في وقت واحد. نستثني من الخاصة طبعاً أولئك الأدباء المتعصبين. وبعضهم كان ولابد يصطرع في وجداناتهم حب القواعد التلادية التي نشأوا عليها من جهة والاعجاب بفن شكسبير الجديد الذي يفرض نفسه على نفوسهم من جهة أخرى وفي مقدمة هؤلاء فيما يظهر بن جونسن الذي ناهض شكسبير زمناً ورفع الراية البيضاء أخيراً.

كان شكسبير يكتب مايراه مقبولاً أو مستحسنا عند المستمعين من التحليات الذوقية والملاحظات النفسانية، ومنها النكات اللفظية والتوريات التي يشغف بها الجمهور. مع المماحكات والمبارزات الكلامية تفصح أحيانا عن ذكاء المتحاورين وتطيب للنظارة كأنها الأحاجي تتحداهم أن يحزروها. وكل أولئك كان مألوفاً قبل شكسبير فجاراه هو كرامة لخاطر الشباك.

لكن يخيل لي أنه كان هو أيضاً يستمتع بها ويطيب له التفنن في إظهار براعته في ممارستها.

أما النظريون فلم يكن يطربهم سوى تألق العبارة واقتباس التعابير التشبيهية والقوالب البلاغية — كما لايزال يفعل بعض الكتاب — من تعابير الخيال غابرة يتفاصحون بها من الاغريقية واللاتينية عالية .. ملتزمين بمراعاة القواعد التي يقدرها ويعتز بها المثقفون التقليديون .. مثلما يقدر الجمهور العريض عدم التقيد بها. ولا يهم شكسبير إذا تطلبت المقتضيات الدرامية أو آراؤه الخاصة أن يلتزم أو لا يلتزم بأي شيء.

حتى السحر والخرافات التي لايؤمن بها ويسخر منها أحياناً يعرضها كما يعرض الحقائق والبديهيات. التاريخ والخرافة عنده سيان. كلاهما مادة خامة يتصرف فيها كيف يشاء فنه، فيعرض الخرافة كأنها تاريخ ويحرف التاريخ كأنه خرافة. كل شيء في حسبانه كتلة من الطين الطري يصوغ منها التمثال الذي يروم.

عقدة اللاجامعية

كان أي شخص في مكان شكسبير في ذلك الجو التقليدي خليقاً بأن يتمسك بالقواعد اللغوية والأساليب المسرحية المتبعة: متقيداً بالوقائع وأحداث التاريخ، بدلاً من هذه الفوضى التي حرر بها الفن وأثارت عملية سخط التلاديين — الفوضى الملائمة تماماً لكاتب تلقى تعلماً ذاتياً متسيباً غير أصولي ولا ممنهج. وبسرعة ولهوجة. والتهمت ذاكرة له عملاقة ماصادفها أثناء القراءات من معلومات شتى دون تمحيص صحيحها من معتلها .. بالإضافة إلى ملاحظاته الشخصية وماتعلمه من تجارب الحياة ومعاشرة الناس.

لكن شكسبير واثق بنفسه وبصحة مذهبه في الفن فلم يتراجع أمام كثرة النقد. كان من الثقة بطريقته الشاردة عن خط سير القافلة بحيث تمادى فيها على الرغم من كل الانتقادات الموجهة إليه من كل جانب. وكان تعييهم عليه أنه ليس جامعياً وغير متعلم حرياً بأن يخلق له عقدة (اللاجامعية) ويلجئه إلى مجاراتهم في طرائقهم ليبرهن لهم على أنه لايقل عنهم. لكن هذه العقدة كانت تعوزه.

هو الذي خلق لهم (عقدة الجامعية). أما العقدة التي تكونت فيه هو فهي (عقدة) الايمان بأن طريقته اللاجامعية واللاتلادية واللاأصولية هي المثلى. وكان نجاح مسرحياته يدعم اقتناعه هذا.

وهكذا انتصر فنه اللافني محليا ثم عالميا، وأصبح هو الفن الفني.

وأية كانت الحال فإن عصره لم يكن بوجه عام يملك الفهم الصحيح لخفايا فنه وأسرار نبوغه. لكن عصرنا المسلح بالعلوم نفسانية ومجتمعية هو القادر المتمكن. ومن ثم فهو العجب المتعجب. لكن شكسبير عرف متى يأتي الى هذا العالم. فلو قد ظهر في عصرنا لكانت مكتشفاته في القارة النفسية تبدو كأنها من حصيلة مطالعاته التي يشاركه فيها الناس ولايعود له فضل اكتشافها بموهبته بدلاً من دراسته التي قد يبزه فيها اليوم كثيرون من كتاب المسرح وغيرهم. وثانيا لأنه في عصرنا هذا العالم المتضلع من المعرفة ماكان ليجد من الجمهور من يملأ مسرحه من المشاهدين. ففي عصرنا قل من يكلف نفسه مشاهدة مسرحية شكسبيرية على هذا المستوى العالي والغوص على المعاني والخلجات.

من العجيب أنه استطاع في عصره شبه الجاهل ذاك إمرار مسرحياته العالمة الذكية تلك التي كتبت لعصرنا ومابعده من عصور. وما أحسب إقبالهم عليها ذلك الإقبال إلا لقلة وسائل اللهو والترفية عندهم فلا تسرقهم منه الشاشة البيضاء والشويشة (الشاشة الصغيرة). إذن لانصرف الى المنافسة في كتابة المسلسلات الشويشية وقصص الأفلام التجارية منذ اندحرت الأفلام الثقافية الراقية بعد الحرب العالمية الثانية وانطمرت.

كان عليه في عصرنا أن ينازل المسلسلات التافهة لينافسها في التفاهة والسطحية لكيلا تطرده في الميدان كما طردت الأفلام التجارية الرخيصة مسرحياته. قانون (كريشام) الاقتصادي يصدق على الفن أيضاً. فإن كانت العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة من السوق

● كيف استطاع شكسبير أن يفرض على اللغة الأدبية الانجليزية كثيرًا من الألفاظ المستهجنة؟!

فإن المسرحيات الرديئة تطرد المسرحيات الجيدة من الساحة ولو لاعتبارات معاكسة(٦).

وفن الابتذال والجنس شعراً وقصصاً ومسرحاً يعلو في زماننا ولا يعلى عليه.

شهـــــــرته

إن اشادة بن جونسن بشكسبير وإطراء (ميرس) Meres و (كامدن) Camden .. وهجوم (كرين) Greene(١٠) : وطلاب كمبرج القائلين ولو تهكما إن شكسبير أقدر على إنتاج المسرحية من الجامعيين ... كل أولئك ينبيء أنه كان أشهر بكثير مما وصلنا عنه من المدونات المعاصرة له.

ناهيك من شهرته لدى جمهور النظارة بمختلف طبقاته. وهجوم (كرين) على الأخص ــ في ١٥٩٢ ــ يفصح عن شهرة مبكرة لشكسبير الذي كان عامذاك في الثامنة والعشرين وحسب. ولم يكن قد أنتج من مسرحياته إلا القليل.

مـــع قـلـقـمـيـش

قلنا في كتابنا « هو الذي رأى » إن (ملحمة قلقميش) « دبجها على ألواح الطين قبل أربعة آلاف عام قلم عبقري مجهول ، لم يتغذ بتراث كبير سابق من الملاحم يرسم له ملامح الفن الصحيح »(٧) .. « ويكون له قدوة » « لكنه اكتشف هو في الملحمة أصالة نفسه وكان قدوة نفسه . فأخذ بزمام الكلمة البابلية »(٨) .. « إن الملحمة « فوق المقاييس لأنها ولدت قبل المقاييس . هي التي وضعت لأول مرة مقاييس هندسة القصة الفلسفية واستنت لها نهجا وعينت لها أوجا .. لكنه أوج لم تدركه أية ملحمة أخرى »(٩).

مثل هذا يمكن أن يقال في شكسبير الذي استن قوانين نفسه ولم يدرك شأوه أحد. ولئن كان قد تغذى بتراث سابق في المسرحيات فإنما هو التراث التلادي البالي المقيد الذي لم يستسغه مزاجه الحر الجموح فمجه، واكتشف في مسرحياته أصالة نفسه. وأخذ بزمام المسرحية الانكليزية . بل العالمية . ولم يجد حوله قدوة يحتذيها سوى محاولات قليلة للتجديد الحذر. كان هو قدوة نفسه وقدوة العالم . مثلما أصبحت الملحمة البابلية قدوة الملاحم العالمية وأشهرها الإلياذة الهوميروسية . كما يرى الباحثون.

العلـــم والفـــن

قرأت في عهد الحداثة لقاص لا أذكر اسمه ــ لعله فرنسي ــ أن نزلاً في قرية كان النزلاء يجتمعون فيه كل يوم على رجل يقص عليهم مشاهداته ومغامراته في افريقيا فيخلب ألبابهم بطلاوة حديثه وعجائب مروياته عن زنوج القارة وغاباتها وضواريها وقرودها . وأقبل ذات يوم رجل ما كاد يسمع بعض الحديث حتى اعترض على المتحدث مقرراً أن الأمور لم تكن كذلك . كلها غلط في غلط . وبعد أخذ ورد بين الرجلين تبين أن القاص لا يعرف افريقيا ولا هو رآها أصلاً . وأن القادم الجديد هو الذي عرفها وعاش فيها عشرات السنين وساح في أرجائها وشاهد الكثير من مدنها وغاباتها .. وأخذ هو مكان القاص الدعي فجعل يحدثهم حديث حقيقة لا خيال . لكن أين تلك الطلاوة وذلك النسق العالي من اللفظ المتألق والبيان العذب المتدفق والأحداث المثيرة الشائقة ؟ لقد ذهب كل أولئك مع القاص الذاهب . وجاء حديث الخلف الجديد « العارف » واقعياً صحيحاً لكن جامداً مملاً . فتفرق المستمعون وانفض ذلك المجلس الممتع الذي كان يحتضن شملهم ويبهجهم كل يوم.

لم يكن السحر في افريقيا .. بل في فن الكلام عن افريقيا.

كان السائح الزائف هو الحقيقي والحقيقي هو الزائف.

مسرحيات شكسبير لا تكمن روعتها في أحداث الحكاية التي تدور عليها صادقة كانت أم كاذبة . فالحكايات والتواريخ كثيرة مبذولة على قارعة الطريق . على تعبير أسلافنا . لكن صياغتها بقلمه العبقري هي التي كتبت لها الخلود . وما أكثر ما اندثر منها لمجرد أن قلمه لم يجد عليها بلمسته السحرية.

فذلك شأن (فن) شكسبير و (علم) الدارسين المدققين ، الذين يمثلهم ولنقل : بن جونسن الذي كان فعلاً أعلم الكتاب المسرحيين غير منازع . شكسبير الذي يتحدث عن كل شيء حتى ما لم يعرفه ولم يره ، خيراً مما تحدث به عنه من رأوا وعرفوا .. وبن جونسن الخبير بجغرافية بوهيميا . والذي لا يكتب إلا بعد درس ومراجعة مصادر ونصوص لينشيء شخصيات جامدة . تتكلم وتتحرك لكن كما تفعل الدمى . تحاكي البشر وما هي بالبشر.

كان شكسبير يخضع علمه لفنه ، وبن جونسن يخضع فنه لعلمه.

والنتيجة قالها (ديكز) Digges في قصيدته (المنشورة في مجموعة القصائد لسنة ١٦٤٠) : « إن كل واحد من شخوص شكسبير : فولستاف Falstaf ، أو ياكو Iagq ، أو ملفوليو Malvqliq ، أو بياتريس Biatrice ــ جلب من النقود لشركة (خدام الملك) أكثر من أية واحدة من المسرحيات التي كتبها لهم جونسن »(١).

ولئن كان معيار (ديكز) هذا مادياً صيرفياً فانه لتعبير فصيح عن مدى تجاوب وجدان الجمهور اللندني مع شخصيات شكسبير الحية حين يراها تعيش على الخشبة . خلافاً لمسرح دمى بن جونسن.

فأين يقع فن جونسن العلمي في علم شكسبير الفني ؟

إن التحدث عن فن شكسبير يفتح أمامنا أفقاً شاسعاً لا يمكن استيعابه إلا باستعراض كل مسرحياته أو الكثير منها . لانه لم ينتهج فيها كلها فناً واحداً . بل إن له في بعضها أساليب مبتكرة لا توجد في الأخريات . مما أوحته إليه حكاية الحبكة وأحداثها بالإضافة الى تجاربه السابقة في التأليف . ومناظراته الشفهية مع متاوئيه ومؤيديه . وحسبنا أن نجتزيء بالإشارة إلى : مكبث ، وهاملت ، والملك لير ، والعاصفة . وسنتوفر على دراسة مسرحية واحدة هي (يوليوس قيصر) التي عرض فيها ضرباً من الدهاء الفني خاصاً لا ضريب له في مسرحياته ولا مسرحيات سواه . ولم يفهمه النقاد حتى اليوم ..

عبدالحق فاضل

هوامش :

١ ــ Marchette Chute, Shakespeare of London.

٢ ــ The Comedy of Errors

٣ ــ كان الدانق أصغر عملة في العهد العباسي . نستعمله بمعنى (البنس) Penny وهو أصغر عملة انكليزية . والمقصود بجمهور الدانق : النظارة الذين يشاهدون المسرحيات وقوفاً على الأقدام بأجرة زهيدة لعجزهم عن أداء اجرة المقاعد.

٤ ــ The White Devil

٥ ــ هاملت ــ ص ٧٣.٧٢ . (ترجمة جبرا (ابراهيم جبرا)

٦ ــ قانون كريشام Gresham's Law وإنما يكون طرد العملة الجيدة من السوق لاحتفاظ الناس بها وبذل العملة الرديئة في الشراء وتسديد الدين تخلصاً منها ، فتقل العملة الجيدة في السوق وكأنما طردتها الرديئة.

٧ ــ كتابنا (هو الذي رأى) ، ملحمة قلقميش ، (ص ٣٠).

٨ ــ نفسه (ص ١٧١).

٩ ــ نفسه (ص ١٧٠).

١٠ ــ سبق التحدث عن هجوم (كرين) على شكسبير ، في عدد تشرين الثاني (نوفمبر) الفارط.

رمسيس يونان : هو أحد العلامات الثقافية البارزة فى مصر .. خاصة خلال الفترة التى سبقت انتصاف القرن العشرين . والنظرة الشاملة لمراحل حياته وفنه تكشف عن اعتناقه لثلاثة من أهم مذاهب الفن والفكر التى ظهرت فى الغرب خلال القرن العشرين .. الأولى تبدأ من منطلق فكرى معقول وترتدى ثوب اللا معقول .. والثانية تعبر عن اللا معقول وتتخذ شكلا منطقيا مقبولا . أما الثالثة فهى تجمع بين اللامعقول فى الفكر والشكل معا .

المثقف المُتمرِّد

رمسيس يونان

بقلم

صبحي الشاروني



الفنان رمسيس يونان .. وعلى اليسار إحدى اللوحات الفنية المبكرة

ولقد تبنى المفكر الفنان خلال مراحل تمرده المتتالية هذه المذاهب الثلاثة مطبقا أياها على فنه وحياته .. ففي بداية نشاطه الفني والفكرى من عام ١٩٣٨ حتى ١٩٤٦ ، كان يتبنى الاتجاه « السيريالي » ويدافع عنه ويدعو له . و« السيريالية » ترتب العناصر والصور في الرسم وفي الشعر ترتيبا لا معقولا ، لكى تصدم المشاهد وتفضح أعماق النفس الانسانية .. إنها تلجأ إلى تحطيم القوالب المتعارف عليها في شكل الفن وتهاجم بشراسة الأساليب الأكاديمية والطبيعية من أجل تحقيق هدف اجتماعي فكرى له ركيزته العلمية في نظريات علم النفس التحليلي .

وفي عام ١٩٤٧ بعد أن ترجم بعض أشعار الكاتب الفرنسي « ارتور رامبو » ومسرحية « كاليجولا » التي كتبها « ألبير كامي » ، كان ذلك ايذانا بتأثره بفلسفة « ألبير كامي » .. ان « كاليجولا » ذلك الامبراطور الروماني المجنون قد اشتهر في التاريخ بأنه عين حصانه « قنصلا » أي حاكما في روما .. ويظل طوال المسرحية يبكي وينتحب لأنه حصل على كل شيء ولا يستطيع أن يحصل على القمر ! أما ارتور رامبو فقد اتجه الى الانتحار بمعناه الوجودى عندما تحول من شاعر الى تاجر رقيق .

لهذا يمكننا أن نسمى مرحلة السنوات العشر من حياة رمسيس يونان من ١٩٤٧ إلى ١٩٥٧ بالمرحلة الوجودية ، التي استسلم خلالها إلى نوع من الانتحار الوجودى ، أو على حد تعبير البير كامي « الحرية العقيمة » ، عندما هجر وطنه ونفى نفسه إلى باريس ، وتناقص بالتدريج نشاطه الفني والفكرى حتى توقف تماما لعدة سنوات .

ولكنه بعد أن عاد إلى مصر عام ١٩٥٧ ، وعاد إلى ممارسة نشاطه الفني والفكرى سيطر عليه اتجاه « العبث » أو « الأبسورد » ، وانشغل بالتعبير عن « اللامعنى » و« اللاجدوى » في الحياة بأسلوب « اللامعقول » .. فصار فنانا تجريديا .

المرحلة السيريالية

ولد رمسيس يونان عام ١٩١٣ ، وعقب اتمام دراسته الثانوية التحق بمدرسة الفنون الجميلة العليا عام ١٩٢٩ (كلية الفنون الجميلة بالقاهرة ــ حاليا) وكان غير قانع بما يتلقاه من دروس على أيدى أساتذته .. فكان يعلم نفسه بنفسه معتمدا على القراءة والتحصيل حتى أنه لم يكن يشاهد في ذلك الوقت إلا وهو متأبط كتاباً أو أكثر .. وقد ساعده على ذلك معرفته باللغة الفرنسية التي فتحت له نافذة واسعة أطل منها على الثقافة الفرنسية وتابع من خلالها أحداث العالم وكل جديد في الفكر والفن .

وكان من بين ما تعلمه رمسيس يونان من خلال ثقافته الذاتية .. « حرية التعبير » والتحرر من الأساليب الأكاديمية والنقل الحرفي عن الطبيعة في الرسم والتصوير . ومن هنا بدأت روح « التمرد » على ما هو ثابت وتقليدى ، ليس في هدى نظرية فلسفية « شمولية » ، تهدف إلى اعادة صياغة المجتمع ، وإنما بهدف ايقاظ ملكة الابتكار والتجديد عند الفرد الفنان .

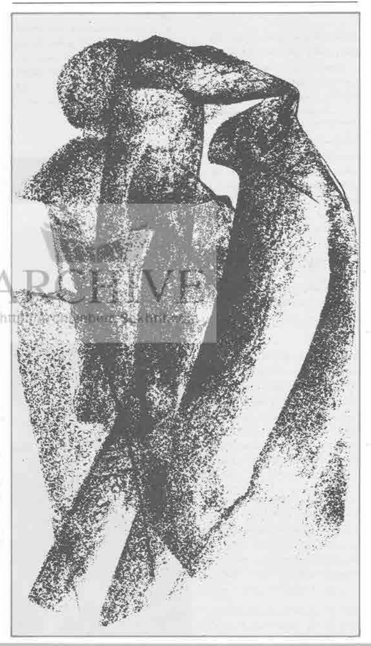
وأحس رمسيس يونان أنه أوسع ثقافة من أساتذته في مدرسة الفنون الجميلة ، وأنه لا يستطيع أن يتعايش مع التعاليم المدرسية في الفن ، فرفض الاتجاهات التي تحرص على محاكاة الواقع .. وبدأ معركته التي كرس لها بقية حياته محاربا الاتجاهات الكلاسيكية والواقعية ، وحتى « التأثرية » في الفن .

وكان أول فعل تمرد « معروف » في حياته هو هجرة الدراسة المنتظمة بمدرسة الفنون



المثقف المتمرد

رمسيس يونان



الجميلة عام ١٩٣٣ دون أن يحصل على شهادة اتمام الدراسة .. تركها مقررا أن يهب نفسه لحياة الفن والفكر بعيدا عن الأكاديمية .. منتهزا الاعلان الذى أذاعه المفكر الرائد «حبيب جورجى» عن عقد امتحان لاعطاء «الشهادة الأهلية» — أى التى تؤهل من يجتازها لتدريس الرسم بالمدارس المصرية فتقدم لهذا الامتحان والتحق بسلك التدريس . وبدأت علاقته تتوطد من ذلك التاريخ بكل من اتجهوا الى التمرد أو الثورة على الأوضاع الفنية والفكرية السائدة.

ويصف الدكتور لويس عوض حالة التمرد التى عاشها رمسيس يونان وزملاؤه فى تلك المرحلة بقوله : «المهم أن رمسيس يونان وجماعته لفقوا لأنفسهم عالما سحريا غريبا صادقا لأنهم كانوا صادقين . كانوا يقضون نهارهم مع مصر المملوكية ، فإذا جن الليل قضوها فى قصر النيل وسليمان باشا ، وهكذا جمعوا بين المشربية والستائر الفينيسية ، وبين قنديل الزيت وأنوار النيون والفلورسنت . وكانوا يمقتون طبقتهم البورجوازية التى تجردت من انطلاق الفقراء ومن الأغلال ذات الرنين الذهبى ، وارتدت أصفادا من تزمت الاخلاقيات الرخيصة التى ترد فى النهاية الى عبادة المال .

ولكن مما لاشك فيه أن الظروف التى مرت بها مصر واجتاحت العالم فى الثلاثينات كانت من العوامل التى جعلت ردود الفعل عند المثقفين تسير فى هذا الاتجاه .. الأزمة الاقتصادية العالمية (١٩٣٣) ، وانتشار الفاشية فى ايطاليا والنازية فى ألمانيا . مع الهزيمة التى منيت بها الحركة الفكرية وحركة البحث العلمى فى مصر.

ورغم هذه الظروف وكرد فعل لها انطلق رمسيس يونان فى أواخر الثلاثينات ينادى بافكار فى الثقافة والفن لم يكن الجو الفكرى العام ممهدا لاستيعابها . وكانت حركة الفنون الجميلة قد استسلمت لحالة من الركود والتجمد . بل والتكرار الممل لأسلوب واحد لم يتعد «الاكاديمية» أو «التأثرية» فى أحسن الأحوال .

كما انتكست الفنون الجميلة وخفت صوتها بوفاة المتحدث باسمها «محمود مختار» عام ١٩٣٤ . بينما حزب الوفد خارج الحكم . وهو الذى ارتبط به مختار بزعيمه سعد زغلول . والذى خلده فى تمثالين

صرحيين بالقاهرة والاسكندرية . وبعد مختار توقف السياسيون عن مساندة الرسامين والنحاتين الموهوبين والمفكرين منهم لأن الفنان الجيد وقف دائما مع الأغلبية الشعبية ومع حرية الفكر ولم يظهر في مصر فنان موهوب يتبنى أفكار الأقلية .

كل هذا جعل احتراف الفن ومهنة الفكر صعبة بل تكاد تكون مستحيلة . فكان رمسيس يونان مضطرا إلى قبول العمل كمدرس للرسم في طنطا ثم بور سعيد ثم الزقازيق .. ولكنه لم يستطع مواصلة حياته بغير تمرد جديد ، فاعتزل التدريس في مدارس الحكومة ليتفرغ في القاهرة للفن والفكر ولتغيير أفكار الناس من عام ١٩٤١ .

حـــزبــــان

مع بداية الثلاثينات ظهرت في حركة الفنون الجميلة فرقتان ، بل حزبان احتدم بينهما صراع عنيف لا تزال رواسبه باقية حتى الأجيال الحالية من الفنانين .. فريق « الجيل الأول » أو « الرعيل الأول » أو « جيل الرواد » الذى درس وتخرج في مدرسة الفنون الجميلة المصرية وكان يتزعمه « محمود مختار » (مؤسس جماعة الخيال) ومن هذا الجيل راغب عياد ويوسف كامل وأحمد صبرى ومحمد حسن .. وكان هذا الفريق يقف في مواجهة فريق : خريجى « المعلمين العليا » الذى كان يتزعمه « حبيب جورجى » ويضم « يوسف العفيفى » و « حامد سعيد » و « شفيق رزق » و « حسين يوسف أمين » وغيرهم ..

وقد تميز الفريق الأول بممارسته الرسم وعدم إجادته الحديث عما يفعل ، فهو لا يصمد في المناقشة النظرية ، ويتحصن فيما يحدثه انتاجه الفنى من أثر يتحقق خلال الاستقبال الحافل له من المشاهدين ، لما فيه من مهارة حرفية ، وبساطة في الموضوعات والأشكال ، والخلاص في النقل عن الواقع .. ولم يكن أفراد هذا الجيل يجيدون الحديث أو الكتابة عن الفن ودوافعه ، سوى محمود مختار ذى الثقافة الفرنسية ورائد هذا الفريق .

هذا في حين تميز الفريق الثانى بالثقافة النظرية عن الفن وتربية التلاميذ والتثقيف بواسطة الفن .. وأقطاب هذا الفريق يرسمون قليلا ويتحدثون كثيرا ، وأعمالهم لا تصمد في المنافسة الفنية عند الاحتكام للجماهير ، رغم تفوقهم الواضح في المجادلات والمناقشات النظرية .

وكان خروج رمسيس يونان من « مدرسة الفنون الجميلة » متمردا عليها ، وهى التى تخرج فيها أقطاب الفريق الأول ، يضعه في موقف المعارضة بالنسبة لهم ، فهو متمرد على الأسلوب الأكاديمى والأساتذة الأوروبيين ذوى الأفكار والأساليب التقليدية في الفن .. ولكنه في نفس الوقت لم يستطع الانضمام « بسهولة » إلى الفريق الثانى الذى كان يقتصر على تلامذة حبيب جورجى « التربويين » من خريجى « المعلمين العليا » .. فكان اختلاف مؤهلاته الدراسية عنهم يقف حاجزا بينه وبينهم .. ومع ذلك فقد استطاع رمسيس يونان أن ينضم إلى جماعة الدعاية الفنية عام ١٩٣٥ ، وهى الجماعة التى كان يرأسها حبيب جورجى ، الذى أعطى لرمسيس يونان « شهادة الأهلية » لتدريس الرسم .



ورغم عدم اتفاقهما التام إلا أنهما أصدرا عام ١٩٣٨ ضمن مطبوعات جماعة الدعاية الفنية كتاب رمسيس يونان الأول « غاية الرسام العصرى » ، الذى كتب مقدمته حبيب جورجى وأعلن فيه عدم اتفاقه مع المؤلف في الرأى ، ووصفه بأنه « عرض موجز ممتع لطائفة من أحدث الآراء وأكثرها جرأة في الفن » .

في نفس الفترة ظهرت جماعات أخرى مثل « المحاولون » وجماعة الفنانين الشرقيين الجدد ، ثم جماعة « الفن والحرية » التى استقطبت الجماعات الأخرى وكان مؤسسها هو الشاعر « جورج حنين » وكان أثر هذه الجماعات ضعيفا بسبب اهتمامها الرئيسى بنقل الفكر الغربى في الأدب والفن والفلسفة نقلا حرفيا ، ولم تنجح في اجتذاب المواهب الشابة والقاعدة المثقفة بسبب أسلوبها في الأخذ عن الغرب بطريقة ميكانيكية ، من ناحية ، واستخدامها اللغة الفرنسية في التخاطب والمحاضرات والندوات من ناحية أخرى ، ولم يتبلور في ظلها أى شكل فنى محدد أو أية فلسفة واضحة متكاملة قبل أن يضع رمسيس يونان كل ثقله من أجل نجاح جماعة « الفن والحرية » باعتبارها الجناح الفكرى العلنى لجماعة « الخبز والحرية » السياسية والتى كان يتزعمها أنور كامل .

تمـــرد الثلاثينات

وقبل أن نتابع هذا المثقف المتمرد الذى كانت له بصمات واضحة على الحركة الثقافية والفنية في مصر ، علينا أن نتوقف قليلا أمام كتابه الصغير الأول « غاية الرسام العصرى » الذى أصدره عام ١٩٣٨ ، وظروف هذه البداية التى حولت مسار الحركة الفنية خلال أقل من عشر سنوات من الاتجاهات التقليدية إلى الاتجاهات الحديثة والمعاصرة .

كان هذا الكتاب يمثل بداية الانعطاف في حركة الفنون الجميلة بمصر ، فرمسيس يونان كان من أوائل الذين أدركوا ضرورة إعادة النظر في منجزات الرسامين السابقة ، فقدم وجهة نظر جديدة تعبر عن مفاهيم تختلف عن مفاهيم الطبقة المسيطرة في ذلك التاريخ .. وقد تغاضى الاستعمار الانجليزى عن هذه الحركات لأنها رفعت شعار الوقوف في وجه الفكر الفاشستى والنازى في ميدان الأدب والفن .. كما ضمت عددا من الأجانب المقيمين في مصر .

هؤلاء ، أدركوا ضرورة خلق فن جديد يجسد ملامح واقع المثقفين الجديد في ظروف ما قبل الحرب العالمية الثانية وخلالها .. ولكنهم كمتمردين انحسروا داخل نطاق « الانتلجنسيا » أو صفوة المثقفين ، ولم يلتزموا بثقافة الجماهير العريضة ، وظلوا كذلك حتى ظهرت بعد الحرب العالمية الثانية « جماعة الفن المصرى الحديث » التى التزمت بقضايا الجماعات الواسعة من الجماهير)

في هذا المناخ ، وفي غيبة ، أو طفولة ، الفكر العلمي المتقدم المتكامل ، أطلق رمسيس يونان كتابه غاية الرسام العصرى ، وراح هو وزملاؤه يدعون إلى التمرد على الجيل السابق الذى عجز عن التعبير عن أبعاد الواقع المتجدد وعن صراعاته العميقة التى تعتمل في باطنه ، فقام مع زملائه بدور الموقظ والمنبه لقطاع من المجتمع آثر الراحة والدعة واجترار الماضى وهو يحلم بعودة الروح ، بينما كل شيء في هذا الواقع يدور في عكس اتجاه هذا الحلم .. ومن

هنا اتخذ التمرد شكل الهجوم على كل اتجاه فى الفن يميل الى الثبات ، أو يقنع بحدود جامدة ، أو يستقر على قواعد مدرسية نهائية ..

ويقول المرحوم «محمد شفيق» فى وصفه لدوافع التمرد عند رمسيس يونان : «ان دور رمسيس يونان الحقيقى لا يقف عند حد الدعوة إلى اتجاه جديد فى الفن ، بقدر ما يكمن أساسا فى دعوته إلى فتح كل أبواب التجديد على مصاريعها ، وذلك دون أن يغفل لحظة أن هذه الأبواب المفتوحة . لا تظل مفتوحة من تلقاء نفسها ، بل هى فى حاجة مستمرة ودائمة إلى اعادة فتحها من جديد .. لذا لم تكن حياة رمسيس يونان كلها سوى سلسلة من التمردات المتعاقبة ضد ما هو تقليدى : ضد كل رؤية تتجمد . وضد كل أسلوب فى الفن يتجمد فيغدو طرازا محفوظا يظل يردد مظاهر تجربة تخطاها الواقع واستنفدت منذ زمن مغزاها الوجدانى الأصيل . وقد تعددت معارك تمرداته . وقد خاضها فى ميادين مختلفة ، مستهدفا جبهات متكاثرة أمام تقدمه باستمرار . حتى أصبح فى مقدوره أن يقول مثل دون كيشوت : «راحتى معركة» . فقد كان يجد نفسه على الدوام ضمن «أولئك الذين حكمت عليهم الأقدار باليقظة الموحشة»[3] .

غاية الرسام العصرى

فى هذا الكتاب حاول رمسيس يونان أن يقدم «إلمامة سريعة بالمشاكل المهمة التى واجهت الرسام العصرى لبيان ما اتخذه من طرائق فى علاجها وإلى أى حد نجح .. » على حد تعبير المفكر الرائد حبيب جورجى فى تقديمه للكتاب .

إن «غاية الرسام العصرى» هو أول كتاب فى اللغة العربية يتعرض للاتجاهات التى ظهرت فى الفن الغربى بعد المذهب التأثرى وهو التكعيبية والوحشية والتعبيرية ثم السيريالية التى تحمس لها الكاتب واعتبرها نوعا من «الريالزم الذاتى» أى مذهب الحقيقة النفسية ، وأعلن تعاطفه معها فى قوله : «على أن هذه الطائفة من السيرياليين تبشر بالايناع والاثمار وانها من بين الطوائف السيريالية أكثرها أملا فى المستقبل» .

وكان الهدف من هذا الكتاب هو الدعوة للارتباط بتيارات الفن الحديث تحت إلحاح فكرة أن هذه التيارات الحديثة هى ضرورة تفرضها روح العصر ، وتستوجبها ظروف تطور المجتمع فى نفس الوقت» .

ويبدأ الكتاب بعرض مبسط لمذهبين من مذاهب الفنون الجميلة الحديثة هما المذهب «الوحشى» والمذهب «التكعيبى» ـ وكان يسميهما «الحوشية» و«المكعبية» ـ وذلك من خلال مناقشة الآراء التى نشرها الناقد والفنان الفرنسى «اوزانفان» فى كتابه «الرسم العصرى» .

ويعلن رمسيس يونان موقفه من هذه الآراء ، مبتدئاً بالاجابة على السؤال الذى طرحه «اوزانفان» حول حاجة حضارتنا الراهنة إلى الرسم ، وهى الحضارة التى تقوم على العقل وتسود فيها الآلات سيادة تامة . ثم توضيح أن المحور الذى تدور حوله هذه الآراء جميعا هو «الزعم الأول بأن الرسم العصرى يجب أن يبتعد عن الحقائق» ..

وكانت اجابة رمسيس يونان تنبع من اعتقاده بأن العصر الحاضر فى حاجة إلى قوى روحية جديدة ، باعتبار هذه القوى ضرورية من أجل تخفيف آلام البشر .. وهو يقول فى اجابته على سؤال اوزانفان :

«لست أشك فى أن الفن قوة كبيرة من بين هذه القوى . فإنه بوسائله السحرية فى اختراع الرموز ، وقدرته العجيبة على ايجاد الحلول الخيالية (خيالية حقا ولكنها مقنعة للنفس) يستطيع أن يساعدنا جديا فى تنظيم عواطفنا المضطربة ، وتحديد نزعاتنا ومواقفنا من مشاكل الحياة» (غاية الرسام العصرى ـ صفحة ٤٩) .

وهو هنا يلقى على كاهل الفنان مهمة شاقة ، باعتباره مسئولا عن مواجهة العالم المعاصر المعقد ذى المشكلات المركبة والمربكة ، وكأننا فى غابة اختلطت مسالكها وتعقدت شعابها .. ويرد هذا الارتباك إلى قصور فى قدرة الانسان على التكيف مع الواقع الجديد ومع ظروف تطور العصر ، فقد تقدمت العلوم فى العصر الحديث تقدما عظيما ، وتزيد المعارف الجديدة كل يوم بمعدلات هائلة ، لا يمكن أن يستوعبها فرد مهما أوتى من العبقرية ، ففقدت الانسانية إحدى مميزاتها وهى القدرة على التكيف المناسب . وهو يعبر عن هذه الحالة فى قوله :

«لقد فقدنا مقاييسنا البسيطة لقيم الأشياء ، فى الوقت الذى لم نصل فيه إلى خلق مقاييس جديدة تحل محل القديمة . وقد جاء ذلك نتيجة لكثرة الاستكشافات العلمية التى انهالت علينا . وقد أدت هذه الاستكشافات العلمية إلى نشوء سلسلة طويلة من الظواهر : شيوع الآلات ، حروب الطبقات ، العمال العاطلون ، ملوك الصناعة ، الديكتاتوريات .. الخ» (غاية الرسام العصرى ـ صفحة ٤٨) .

وهو ينادى فى مواجهة هذه الحالة بضرورة خروج الرسام من ركنه المنعزل والنزول من برجه العاجى «ليواجه هذا العالم ويختبر مشكلاته ويعانى معه أزماته النفسية» (صفحة ٥٠) فهو بدون ذلك لن يستطيع أن ينتج فنا معنويا قويا ، أى أنه لن يكون ايجابيا تجاه المجتمع .

وهذه هى نقطة الخلاف الرئيسية بين آراء رمسيس يونان والرسام الفرنسي «اوزانفان» الذى كان يرى وجوب ابتعاد الرسام العصرى عن حقائق العالم الخارجى ومشكلاته . وهو نفس الخلاف بين دعاة التكعيبية ودعاة السيريالية .. فقد أوضح رمسيس يونان أن هذا أمر مستحيل ، لأنه حتى الاضطرابات النفسية ما هى فى جوهرها إلا حقائق ذاتية منعكسة عن العالم الخارجى ، وهى المادة الأساسية التى يصوغ منها الفنان أعماله .

وفى مقابل رفض تكعيبية «اوزانفان» ، يدعو المفكر المصرى إلى مدرسة «السيريالزم» التى تزداد نموا وقوة ، وتجذب الأنصار



لوحة للفنان تعبر عن خيالات العقل الباطن

العديدين إليها كل يوم.

وفى سبيل شرح المذهب السيريالى الذى يدعو إليه، وضع رمسيس يونان فى بداية كتابه رسما بعنوان «العناصر الثلاثة» هو عبارة عن رسم توضيحى لفكرة عناصر النفس الانسانية عند مؤسس علم النفس الحديث، والرسم يتضمن رموزا لعناصر «الاد» و«الايجو» و«السوبر ايجو» أى الوعى واللا وعى والضمير. ثم يتناول ثلاث لوحات، نشر صورها، إحداها «لروبنز» والثانية «لبوشيه» والثالثة «لموريللو». ويحللها على أساس هذه النظرية لتقريبها إلى الأذهان.

وفى خلال دعوته إلى السيريالية يعرض مفندا أربعة اتجاهات فى الفن:

(١) الفن الذى يجيد محاكاة الطبيعة ـ وقد زعزعته الفوتوغرافية.

(٢) الفن الذى يصور المثل الأعلى للجسم الانسانى الجميل، كما فى الفن الاغريقى، وهو فى الواقع المثل الأعلى للرجل الرياضى وليس للفنان.

(٣) الفن الزخرفى ـ وهذا يبدأ بأشكال هندسية تزين بها السلال والأقمشة، وينتهى إلى أجمل الرسومات اليابانية وأرقاها، ولكن هذا لا يلمس من نفوسنا إلا طبقاتها السطحية. فهى تبقى ما بقى المؤثر وتزول بزواله.

(٤) الفن المعنوى أو الفن التعبيرى أو الفن الذاتى ـ أعنى الفن الذى يصدر عن حاجة نفسية عميقة، ويترك فينا أثرا متغلغلا ينفذ منه إلى القرار من قلوبنا... (غاية الرسام العصرى ـ صفحة ٢٧ ـ ٣٣).

ثم يضيف: «وعلى ذلك يمكننا أن نعرف وظيفة الفنان الرسام بأنها التوفيق بين خطوط وألوان ترمز إلى رغبات ومعان نفسية متضاربة، وابتداع وحدة شكلية عنها متآلفة العناصر مرتبطة الأجزاء».

ويختار رمسيس يونان من بين الاتجاهات السيريالية التى تعمل على التعبير عن «خيالات العقل الباطن ونزواته»، الاتجاه الذى يحترم «البناء الفنى» ولا يهدره فى سبيل الاغراب.. فهو يعلن رفضه للنزعة السطحية الشكلية فى «الرسم الاوتوماتيكى» أى الفن الحركى تماما كما يرفض «المكعبية» بسبب شكليتها المفرطة واستغراقها فى العقلانية.. إنه يرفض الاصطناع والتكلف كما يرفض الايغال فى الاغراب أو الغموض المصطنع..

ذلك أنه من البداية كان يدعو إلى التوازن فى الفن بين العقل والعاطفة ـ بين المعمار والغناء، وينادى بالتكامل بين الاتجاهات التى تعتمد على العنصر العقلى المجرد والاتجاهات التى تقوم على نزوات الخيال الجامح أو العناصر النفسية واللاشعور.. فهو يؤمن أن الحياة تقوم على التفاعل بين الجوانب المتناقضة، والتركيب بين العناصر المتباينة.. وفى سبيل تدعيم وجهة نظره نجده يستشهد بكلمات الفنان «هنرى مور» عندما يقول: «ان عناصر التصميم المجردة ضرورية جدا لقيمة العمل الفنى، ولكنه فى رأيى، أن العناصر الانسانية النفسية لها أكبر الأهمية أيضا. فإذا امتزجت العناصر المجردة والعناصر الانسانية فى عمل فنى، كان له دون شك معنى أعمق وأكمل» (غاية الرسام العصرى ـ صفحة ٥٢).

* * *

ويلاحظ على هذا الكتاب ملاحظتان:

الأولى: إنه يخلط بين التكعيبية ـ التى يسميها المكعبية ـ وبين التجريدية.. ويتضح ذلك فى عبارته: وعلى ذلك فإذا شبهنا الرسم الحوشى بالغناء فإننا نستطيع تشبيه الرسم المكعبى بالموسيقا المجردة.

الثانية: هى وضوح جانب التمرد فى كتاباته المبكرة، وربطه بين المذهب السيريالى والتحول الاجتماعى.

صبحي الشاروني

هوامـــش

(١) من مقال: «كان رائدا شجاعا» بقلم د. لويس عوض ـ الاهرام ١٩٦٦/١٢/٣٠.

(٢) غاية الرسام العصرى: تأليف رمسيس يونان ـ نشر جماعة الدعاية الفنية ـ ١٩٣٨ ـ ص (٥)

(٣) من مقال: «رمسيس يونان وجيل التمرد» بقلم محمد شفيق. مجلة الفنون ـ العدد الأول، المجلد الثانى ربيع ١٩٧١. اصدار الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ـ ص ٧٦

الجزء الثانى من
الدراسة فى العدد القادم

قصــــة قصــــيرة

زيــدان يخلع جلبابه

بقلم : صــــلاح عبد الســيد

لم يكد البولمان (الحافلة) يهدىء من سرعته .. حتى خرجت العيون من مكمنها .. في الأول هادئة .. متثائبة .. تتسكع .. ثم عندما توقف مثيرا للغبار .. ومحدثا بفعل ضغط الهواء .. ذلك الصوت العالى .. الذى ينبىء أن ثمة نازلا لا محالة .. استشاطت العيون حماسا وتكاليا ..

ذلك أن نزول شخص ما الى هذه القرية .. راكبا البولمان السريع أمر ولا شك يستحق الاهتمام ..

لكن من ياترى ذلك النازل ؟

وعندما انفتح الباب .. كانت العيون هناك .. تحاصر صاحب الكاوتش القديم .. النازل .. الذى يحط بقدميه على الأرض .. ثم تتصاعد معه الى الأعلى .. حيث البدلة الكاكى .. الواسعة .. القديمة .. كبدل الجيش غير المكوية .. والبيريه القديم على الرأس ..

من ياترى .. ؟ وتكالبت العيون .. من .. ؟

وفى يده حقيبة ورقية يضمها الى صدره ..

من .. ؟

وتقافزت العيون حوله .. من .. ؟

والسؤال على الشفاه .. من .. ؟

والنازل نزل وسار محتضنا حقيبته الورقية الصغيرة .. متلامسا مع الأرض .. كأنه يتلامس معها ..

من .. ؟

والنازل يسير .. يمشى .. والأفواه تنفتح مع العيون ..

من .. ؟

ولا جواب ..

والنازل يسير .. يمشى .. يدخل الى القرية .. يغيب في شوارعها .. وهم يحسبون في أذهانهم من يكون .. ويعدون المغتربين .. هل هو واحد منهم .. !

لا .. هل هو .. ؟ لا .. ثم يهمسون لأنفسهم لابد أنه غريب .. غريب قادم لأحد في القرية .. لكن لمن هو قادم .. ؟ لمن .. ؟

وقبل أن يهمد السؤال في العيون .. كان عبد الوهاب البنّوتة .. يزعق .. زيدان رجع ياأولاد .. الى نزل م البولمان كان زيدان ياأولاد ..

زيدان .. ! ! ؟

غير معقول .. ! ! ؟

زيدان يعود بعد هذه الغيبة والفقد ؟

ذهب ليحارب فانقطعت أخباره ..

وانتهت الحرب ولم يعد ..

زيدان ياأولاد ..

والصوت يلف القرية صارخا ..

زيدان !

هل هذا النازل كان زيدان !

كلهم همسوا غير معقول .. أين شاربه الذى يقف عليه الصقر .. ؟

أين مشيته التى يدب فيها الأرض .. ؟

أين قامته التى يتحدى بها أعتى الشباب ..

أين عزمه .. ؟

أين صرخته ؟

زيدان .. ! ! هذا الضامر الذى يمشى كدجاجة معطوبة هو زيدان !

زيدان .. غير معقول !

وكلهم قفزت الى ذهنه صورة زيدان .. كلهم .. وهو يصرخ فوق عربته يبيع البطيخ .. ضاربا البطيخة بكلوة يده — خلي الفقير ياكل — ثم وهو يصرخ مناديا على السمك الصغير .. دائرا في البلد فوق عربته — خللي الفقير ياكل — ثم وهو يبيع الطماطم التى يزرعها في شط الترعة .. صارخا بكل قوته — خللى الفقير ياكل ..

هل هذا هو زيدان .. ! ! ؟

زيدان الصامت .. الضامر .. الذى يمشى في ذهول !

وكل من رآه لم يصدق ..

زيدان .. ذلك الذى كلما حدث شىء لايعجبه أسرع بخلع جلبابه والدخول في عراك ..

زيدان .. ذلك الذى خلع جلبابه للعمدة .. ولشيخ الخفراء .. ولكاتب الجمعية .. وللحاج شربيني !

زيدان !

وأسرع الناس الى بيته ..

وفى لحظات كان الخلق كلهم .. الرجال والنساء والعيال يحاصرون بيت زيدان ..

من كل صوب خرجوا .. يجرون كالمذهولين ..

زيدان .. والأبواب تصطك .. والنوافذ ..

ويسرع العيال أحباؤه .. يسرعون هاتفين : زيدان رجع .. زيدان رجع .. وحول البيت يلتفون .. زيدان .. زيدان .. يريدون أن يلمحوه .. زيدان .. زيدان .. ترتفع الأيدى .. تهتز السواعد .. تهتف الحناجر زيدان !

زيدان .. ! !

يريدون أن يلمسوه .. أن يعانقوه .. أن .. لكن الباب موصد .. الباب موصد ولا أثر لأحد .. ولا لشىء .. ولا حتى لزغرودة .. هل يكذب عبدالوهاب البنّوتة .. ؟ هل يكذب عليهم .. ؟ لكن البنّوتة حين يمسكون به .. وقبل أن يضيقوا عليه الخناق .. يقسم أن زيدان قد عاد .. يقسم .. يقسم أنه رآه بعينيه

هاتين اللتين سيأكلهما الدود ..

ويتحلق الجمع حول الدار ينتظرون خروج أحد .. وعندما لايخرج إليهم أحد .. يصرخون : زيدان .. زيدان ..

الأطفال : زيدان .. النساء : زيدان .. زيدان .. ويخرج أخوه يوارب الباب .. ويمسك به فى يده .. ويصرخون :

زيدان .. زيدان هل عاد .. ؟

ويهز رأسه فى أسى .. نعم .. أين .. ؟ نريد أن نراه .. ؟ ويخبرهم انه متعب وعليهم الآن أن يتركوه .. نريد أن نراه .. ؟ ويهمس .. انه متعب .. دعوه الآن ..

و .. ويدخل الى الدار .. ويغلق الباب .. وتتلامس عيونهم والباب .. وجدران البيت .. ونوافذ الغرفات .. ويتسلون .. يتباعدون فى تكاسل .. ما الذي حدث .. ؟ هل لايريد رؤيتهم .. ؟ هل هو مريض .. ؟ ويتحلقون .. كل مجموعة تتحلق فى مكان .. وزيدان هو موضوعهم .. ما الذي حدث له .. ؟

أين كان طوال هذه المدة .. ؟

هل كان فى الأسر .. ؟

هل عذبوه .. ؟

هل .. ؟

هل .. ؟

والألسنة لاتكف عن طرح السؤال .. والعقول تغلى .. تريد أن تعرف .. أن تفهم .. أن تطمئن .. ولا أحد ذهب الى بيته .. لا أحد .. الكل جلس .. والكل مفتوح العين على ماسيحدث ..

وطوال الليل ظلوا متحلقين ينتظرون خبرا ..

لكن لاخبر هناك .. زيدان لم يخرج ..

واليوم التالى .. زيدان لم يخرج .. والثالث .. والرابع .. والعاشر .. والناس كل يوم تسأل .. لكن السؤال ظل معلقا بلا إجابة .. وتوارى السؤال قليلا ..

كلٌ حاول أن يجيب عليه الأجابة التى ترضيه .. ربما كان مريضا .. ؟ ربما عذبوه .. ؟ ربما هو لا يقدر على رؤية أحد .. ؟

و .. حاول كلٌ منهم أن يستريح الى الإجابة التى صنعها لنفسه ..

وزيدان وحده .. صامت لايتحدث .. شاحب .. منكفىء على نفسه .. لايخرج فى النهار أبدا .. لكنه فى الليل الأخير .. كان يتسلل من بيته فى هدوء .. قاصداً النهر .. فيجلس أمامه .. قدماه فى الماء .. وعيناه الى البعيد ..

ويظل هكذا مغروس القدمين فى الماء ..

يتنهد .. ثم عندما يقترب الفجر .. يعود مجرجرا جسده .. زاحفا على التراب .. مكدودا .. مرهقا .. فيرتمى على فراشه ..

واحتار اخوته فيه .. ما الذى أصابه .. ما الذى أصابك .. ؟ لكنه يهز رأسه فى أسى .. ما الذى .. يهز رأسه .. ماالذى .. يهز رأسه .. صامت .. مرهق .. يتنهد كأنه يحمل أثقال العالم فوق صدره .. عيناه المصفرتان المرهقتان تنوءان بالضوء ولا تتحملانه .. وصدره الذى كان صلدا .. أصبح هشا .. ويده ترتعش .. وصوت تنفسه عال .. عال .. كأنه ظل يجرى طول عمره ..

ماالذى حدث ؟

وهو لايجيب ..

هل نذهب بك الى طبيب ؟

وهو لايجيب ..

وعندما يئسوا منه تركوه لحاله ..

وظل زيدان طويلا على هذه الحال .. وفجأة .. أعلن أنه سيتزوج .. وممن .. ؟ من زوجة العمراوى صديقه الذى قتل فى الحرب ! زوجة العمراوى .. وتعجب الكل .. فهى امرأة تكاد أن تكون دميمة .. ثم ان أولادها الذين تركهم العمراوى كثيرون !

زوجة العمراوى .. ! ! لم .. ؟

وظل السؤال مطروحا .. يتقافز فوق الشفاه وفى العيون .. ولما لم يجد الأجابة همد واستراح ..

وتزوج زيدان من زوجة العمراوى .. وظل كما هو .. ظل صامتا .. حتى قطعة الأرض الملاصقة للترعة والتى كان يزرعها .. لم يعد يقربها .. وحتى مهنة بيع البطيخ والسمك والطماطم تركها ..

واشتغل فراشا فى مدرسة البندر ..

وكل يوم يصحو مبكرا .. فيركب الديزل الى البندر .. ويعود آخر النهار صامتا .. ضامرا .. أسيانا .. ولا أحد يعرف ما الذى حدث له ..

وبالتدريج تناست القرية زيدان .. ولم يعد شغلها الشاغل .. وظل هو كالمنوم يمشى .. لايتحدث .. ولايحدث ضجة لسنوات .. وفجأة .. سمعت القرية نفس الضجة القديمة .. وتعجبت .. ماالذى حدث .. ؟

ماهذا .. ؟

وصرخ عبدالوهاب البنوتة : زيدان خلع جلبابه ..

كيف ؟

وأسرعوا ..

....

كان زيدان قد ذهب ليشترى لأولاد العمراوى سمكا .. فوجده فوق مقدوره .. فواصل مناقشة الرجل .. لكن الرجل استهزأ به .. وعيَّره .. لو لم يكن فى مقدوره .. فليذهب وليخلع ملابسه ويصطاد من الترعة كما كان يفعل ..

ولم يدر زيدان بنفسه إلا وهو يخلع جلبابه .. لم يدر إلا وصرخته التى كانت .. تعود الى حنجرته .. وبعصاه ــ شومته ــ هوى على الرجل .. ثم اندار يطيح فى السوق ..

الذين رأوه قالوا زيدان انجن .. زيدان انجن ..

وزيدان أوغل فى الضرب .. أوغل .. وهم ــ باعة السوق ــ رأوه لا يكف .. وإنما يزداد إيغالا .. فتجمعوا محاولين مهاجمته .. تسلحوا هم الآخرون بالعصى .. بالعصى والبلط .. وتحلقوا حوله .. تحلقوا فى شبه كماشة ..

ولما رآهم زيدان يحيطون به محاولين محاصرته .. تراجع الى الحائط .. تراجع محتميا به ..

لا .. لايمكن أن يحاصروه .. كفى ماحدث فى المرة الأولى ..

فى المرة الأولى .. ظل هو والعمراوى يضربان .. يضربان .. حتى فرغ الرصاص منهما .. بعدها أحاطوا بهما فى شبه كماشة .. فـ .. فتراجعا .. تراجعا .. ليجدا نفسيهما بين أيديهم .. لحظتها هجموا على العمراوى وظلوا يضربونه بدبشك البنادق .. بدبشك البنادق .. حتى .. حتى قتلوه .. ثم اندارو إليه .. يجرونه على الرمال .. و .. والأحذية تدق عنقه .. تدق عنقه ..

الآن .. الآن لن يتركهم يحاصرونه .. لن يتركهم يجرونه على الرمال .. لا .. لن يتركهم يقتلون أولاد العمراوى ..

وبرق له وجه العمراوى .. ووجه الأولاد الذين يشبهونه .. فاندفع بكل قوته يضرب .. يضرب ..

هذا هو الأحمر الخنزير .. وهذا هو الأكرش المتثاقل .. وهذا .. وهذا .. وهذا ..

وهم أمامه يتراجعون .. وهو يتقدم .. وشاربه يعلو .. وقامته تمتد .. وضرباته لاتطيش ..

وظل يضرب .. يضرب ويصرخ ــ خلى الفقير ياكل ــ والناس .. الناس من ورائه يصرخون .. وأيديهم ــ رآها ــ تمتد الى عربته .. تتخطف البطيخ والطماطم والسمك الصغير.

الإسراء و المعراج

جاء في مسند ابن حنبل عن ميمونة بنت سعد مولاة النبي ﷺ انها قالت : يانبي الله ، أفتنا في بيت المقدس فقال : أرض المحشر والمنشر ائتوه فصلوا فيه فإن صلاة فيه كألف صلاة فيما سواه ، قالت : أرأيت لمن لم يطق ان يتحمل إليه يأتيه قال : فليهد إليه زيتا يسرج فيه ، فإن من أهدى له كمن صلى فيه .

وقد شهدت الصلاة فيه مئات المرات وسعدت بليالي الاسراء والمعراج في رحابه واستشعرت الدفء والحنان والأمن والأمان إلى جانب صخرته المشرفة وعفرت جبهتي بغبار ساحاته في الصلاة وخشعت في وقفتي بالقبلة الأولى متجها نحو القبلة الثانية (الكعبة المشرفة) يستغرقني التفكير في الربط الالهي بين القبلتين . فكأنما هي رسالة من السماء للناس جميعا أن ما ربطته السماء لا تستطيع قوى الأرض الغاشمة جميعاً أن توهنه أو تحله .

وقد جاء عن عائشة زوج النبي ﷺ عن النبي ﷺ قال : « إن مكة بلد عظمه الله وعظم حرمته وحفها بالملائكة قبل أن يخلق شيئا من الأرض يومئذ كلها بألف عام ، ووصلها بالمدينة ووصل المدينة ببيت المقدس ، ثم خلق الأرض بعد ألف عام خلقا واحدا » .

ومن أصدق من الله قولا : « سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا أنه هو السميع البصير » .

يا رُبى القدس هل لنا   في ثرى القدس من ثواء

وإذا كان الغضب والقهر قد باعد بيننا ولم أطق أن أتحمل إليه أو آتيه فلا أقل من أن أهدي إليه زيتا ، هو بعض ذوب الفؤاد : يضاء فيه السراج في ذكرى الاسراء والمعراج .

شعر: محمود الشاهد

هللوا وارفعوا الدعاءْ   إنها ليلةُ السماءْ
في الليالي فريدةٌ   تسكبُ النورَ والضياءْ
ليلة غاب بدرها   فاستضاءت من العلاءْ
وقعُها زلزلَ المدى   رجعُها جاوزَ الفضاءْ
وعلا قدرُها كما   ليلةُ القدرِ في حِراءْ
مكةٌ عانقت بها   صخرةَ القدس في ازدهاء
حين أسرى محمدٌ   يقطعُ البيدَ في المساءْ
والمُسافاتُ تنطوي   في ثوانٍ بلا عناءْ
والبُراقُ الذي مضى   فوقه أحمدٌ مضاءْ
موكبٌ نوّرَ الدُّجى   نسْمُهُ عطرُ الهواءْ
يغمرُ الكونَ بالسّنا   يملأ الأفقَ بالبهاءْ
حطَّ في المسجد الذي   فيه صلّى بأنبياءْ
باركَ اللهُ حَولَه   يوم أسرى لهُ وجاءْ
ثمّ يمضي برحلةٍ   في عُروجٍ وفي ارتقاءْ
قادَ جبريلُ رَكبَهُ   من سماءٍ إلى سماءْ
في الأعالي ملائكٌ   حفّتْ الرَّكبَ باحتفاءْ
ثمّ يعلو نشيدُهم   بالتسابيحِ والثناءْ

قد رأى آيَ ربِّه ... ليس فيما رأى مِراءُ
قابَ قوسين قد دَنَا ... منتهى الحبِّ والعطاءْ
نزلةٌ ليس مثلها ... عندها جنَّةُ البقاءْ
صاحبُ العرش خصَّه ... يصطفي الله من يشاءْ
فهوَ في الخلقِ مفردٌ ... لم تلدْ مِثلَهُ النساءْ
ما لإسراءِ أحمدٍ ... ما لِمعراجِهِ انتهاءْ
كل يومٍ وليلةٍ ... في الصلاةِ لنا لِقاءْ
هلِّلوا وارفعوا الدُّعاءْ ... واذرفوا الدمعَ في سَخَاءْ
إنَّ مَسرى محمدٍ ... هدَّهُ الأسرُ والعَنَاءْ
كلُّ ساعاتِهِ أسى ... كلُّ أيامِهِ ابتلاءْ
يجثُمُ القهرُ فوقَهُ ... يَخْنُقُ الطُّهْرَ والنقاءْ
خافتٌ في أذانِهِ ... مُرْهَقُ الصوتِ والأداءْ
دنَّسوا كلَّ بقعةٍ ... باركَتْ حولها السماءْ
حرَّقوا المنْبرَ الذي ... شِيدَ من طاهرِ الدِّماءْ
واستباحوا أساسَهُ ... علَّه يسقطُ البناءْ
هم يريدون هدْمَهُ ... ليس قولاً ولا ادعاءْ
كيف يخشون بأسَنا ... نحنُ في غَرْقِهِم غُثَاءْ
ليس يخفى مرامُهُم ... قد بدا البغضُ والعِداءْ
كَمْ يُنادي ولا صدى ... أيْنَ من غافلٍ نداءْ
كلَّ يومٍ يضيعُ في ... فارغِ القولِ والبُكاءْ
خطبةٌ إثرَ خطبةٍ ... كلُّ ما تحتوي جُفاءْ
إنْ رضيتُم لغاصبٍ ... فعلى الأمةِ العَفاءْ
ما بكم رَدُّ فعلِكمْ ... منكُمُ الداءُ والدَّواءْ
كنتمُ خيرَ أمةٍ ... للعُلا ترفعُ اللواءْ
فلنجاهدْ كمِثْلِهِمْ ... وَلْيكن فيهمُ اقتداءْ
أُطلبوا الموتَ تُنْصَروا ... يَكْمُنُ النصرُ في الفِداءْ
إنْ يكُ الموتُ علْقماً ... إنَّ في مُرِّهِ الشِفاءْ
أيُّها المسجدُ الذي ... فيه بالحقِ كبرياءْ
في رُبى القدسِ أصلهُ ... فَرْعُهُ جاورَ السماءْ
صامدٌ رغمَ أسرِهِ ... يدفعُ الضيمَ بالإباءْ
يَرقُبُ الليلَ ينجلي ... كلُّ ليلٍ إلى انْجلاءْ
لَيْسَ ظلمٌ بدائمٍ ... جولةُ الشرِّ لانتهاءْ
إنَّ للغدرِ ساعةً ... بعدَها صحوةُ الضياءْ
يُنْجِزُ اللهُ وعدَهُ ... فهوفي وَعْدِهِ الوفاءْ





بانتظار بروميثيوس العربي

يمثل هذا المشهد إطلالة الحدود السورية ، من أعالي هضبة الجولان المكللة بالثلوج ، على مدخل نهر الأردن الى فلسطين في مجراه الأعلى .. وما دام المشهد يتحدث عن نفسه بنفسه من حيث جماله الخلاب ، وفتنته الطبيعية الآخذة بالألباب ، فما أغنانا إذن عن الإشارة إلى أية « سويسرا عربية » قد أضعناها ــ ولو مؤقتاً ــ في هذه الربوع الفلسطينية والسورية على حد سواء .

ومعذرة للقارىء الكريم ، فقد لا أستطيع ، أحياناً ، أن أفصل نفسي عن موضوع هذه « التذكارات الوطنية » . إذ ما من مشهد منها إلا وكنت في شبابي قد وقفت عليه ، وانطبعت له في أعماق نفسي هذه الذكرى ، أو تلك ، خاصة مايتعلق بهذا المشهد وامتداداته الجنوبية حتى بحيرة طبرية .

كنا ما نزال طلبة جامعيين ، سوريين ، وعراقيين ، وأردنيين ، وفلسطينيين ، ومغاربة ، تضمنا جميعاً أحضان الجامعة السورية آنذاك .. وكانت أمتع أنشطتنا الشبابية في ذلك الزمان ، أن نقوم ، في كل سنة تقريباً ، برحلة جامعية إلى مختلف مواقع الجبهة السورية ضد العدو الصهيوني الزنيم الرجيم ، اعتبارا من « بانياس » في أقصى الشمال ، الى « الحمة » في أقصى الجنوب . فيستقبلنا أسود الجيش السوري ، ضباطاً وجنوداً ، بحفاوة بالغة وفرح كبير . وما أكثر ما كنا نستعير مناظيرهم الحربية لكي نقضي ساعات عديدة ونحن نجيل أبصارنا ، من علٍ ، في امتدادات مثل هذا المشهد الخلاب في « سهل الحولة » بوجه خاص .

وفي ذات رحلة ــ وربما كان ذلك في ربيع ١٩٥٤ ــ لم تكد تمر دقائق معدودات على وصولنا لأحد مواقع الجيش ، واختلاء عريف الرحلة المرجوم نزار القولي بضع لحظات مع آمر الموقع ، حتى ملأ المكان عدد من الصيحات والايعازات العسكرية المدوية . وإذا بقرابة ثلاثمئة جندي سوري يتخذون وضعية الاستعداد وقوفاً . وقد شمخت جباههم واشرأبت تحت الشمس كرؤوس الرماح . ولم يكن لشاعر فلسطيني مثلي ، لاجئ وشارد عن يومه ، الى غده ، على الدوام ، أن يتصور حتى في بديع خياله الشعرى أن كل هذه الأهبة العسكرية قد اتخذت من أجله ! ذلك الى أن أقبل علي آمر الموقع بابتسامة وديعة ، ونبرة صارمة ، في آن معاً :

يالله يوسف .. قصيدة للشباب ..

وبعد أن ألفيت نفسي مرفوعاً على سطح مائدة خشبية قبالة هذا الحشد من الجباه والعيون الناطقة لهباً وغضبا باستعجال يوم التحرير ، وجدتني أدخل على الفور في قصيدة « مشيئة الجبار » :

أنا مشعلٌ ، أنا مارجٌ جبارُ   لا الريحُ تُخمدني ، ولا الإعصارُ
هذا أنا في الليل أضرم جذوتي   ليَبين لي ، قبل النهار ، نهارُ
ولسوف أغسل جبهتي حتى تُرى   مثل الضحى ، ويذوب عنها العارُ
ومشيئتي قدرٌ على أقدامه   تتمسّحُ الأيامُ والأقدارُ
أنا مجرمٌ ، أنا حاقدٌ ، أنا شقيٌ   حتى تُعادَ إلى ذويها الدارُ

على أن القصيدة (المؤلفة من خمسين بيتاً) ، وإن تكن « بلسان المتكلم » ، فهي لاتعني شخص الشاعر بكل تاكيد .. لقد كنت مأخوذاً ، وما أزال ، بشخصية « بروميثيوس » الأسطورية الاغريقية ، كما وقفت عليها لأول مرة في عهد دراستنا الثانوية بالخليل ، من محفوظة مدرسية مجتزأة من ملحمة « شيلي » الشهيرة : « بروميثيوس طليقا » « Prometheus Unbound » .. وكما أن بروميثيوس الاغريقي هذا قد انتصر أخيرا على « زيوس » واختطف منه شعلة السماء لاضاءة الكون على بني الانسان ، رغم أنه قيده ثلاثة آلاف سنة إلى جبال القفقاس ، تنهش الجوارح من لحمه ، وتنقر في حبتي عينيه .. فكذلك أجريت « مشيئة الجبار » على لسان « برميثيوس العربي » هذه المرة ، مبشرا بانعتاقه الحتمي من أصفاده وجراحه ، وبانتصاره النهائي ــ ولكن دون ما حاجة لعذاب ثلاثة آلاف سنة ــ على جميع أرباب الشر العالميين ، القتلة ، السفلة ، العنصريين ... مستنقذا من بين مخالبهم وأنيابهم ربوع هذا الوطن الرائع العظيم ..

بقلم : يوسف الخطيب





تقديم :
لبنى الريدي

الأقدام بدلاً من العجلات لمركبة المستقبل

يفكر المهندسون الميكانيكيون فى العودة إلى الطبيعة ومحاكاة حركة الحيوانات والحشرات ومن ثم استبعاد العجلات واستبدالها بالأقدام .

وكانت نتيجة أبحاثهم التى استمرت عشر سنوات هذه المركبة ذات الست أقدام والتى تستطيع اجتياز أكثر الطرق وعورة وحيث لا يمكن لسيارة أو حتى مجنزرة أن تسير . وتتميز هذه المركبة بخفة حركة الحشرات وتوازنها فيمكنها المناورة فى الغابات وعبور المستنقعات والكثبان الرملية فضلا عن صعود وهبوط التلال شديدة الانحدار .

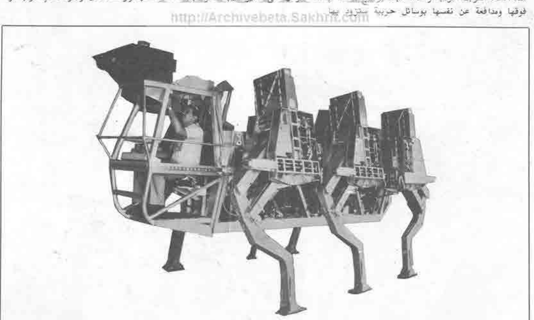
كما أن هذا الديناصور الميكانيكى الذى يزن ثلاثة أطنان ويبلغ طوله خمسة أمتار يستطيع اجتياز حفر عرضها ثلاثة أمتار ومنحدرات ارتفاعها متران .

ويتقاسم الانسان قيادة هذا النموذج التجريبى المبين فى الصورة مع أجهزة الكمبيوتر إذ يضم قلب هذه المركبة المصنوع من الألومنيوم ١٦ جهاز ميكرو كمبيوتر للتنسيق والتحكم فى أكثر من مائة ثابت وعامل من ثوابت وعوامل الحركة . فى حين يتولى الانسان توجيه الخطوات العامة من تقدم وتقهقر ودوران واسراع وتوقف وذلك بواسطة عصا قيادة مثل تلك الموجودة فى الطائرة .

وتتمتع هذه المركبة بحاسة الابصار فهى تراقب طريقها بعيون تعمل بأشعة ليزر تحت حمراء وتبرمج كل خطوة وتتأكد من موطىء قدمها قبل أن تقوم بأى حركة كما أنها تتمتع بحاسة التوازن فشاسيه هذه المركبة لا ينحرف قط عن الأفق حتى وهى تقطع أشد الطرق وعورة وذلك كى تظل أجهزة الرصد فى نفس المستوى وتعطى اشارات صحيحة سواء بالنسبة للارتفاع أو الاتجاه . وهى تضم إلى جانب أجهزة الرصد الضوئية أجهزة ارسال واستقبال صوتية تسمح لها بتقدير بعد الأجسام عنها .

أما أقدامها التي يبلغ ارتفاعها مترين فتتحرك فى ثلاثة اتجاهات وكل قدم مزودة بجهاز كشف للضغط يخبر الكمبيوتر بشكل مستمر عن طبيعة الأرض التى تتحرك عليها المركبة وسرعة هذه المركبة التى تعمل بمحرك كهربى قوته ٥٠ كيلو وات ١٣ كيلو متر فى الساعة وهى وان كانت سرعة محدودة إلا أن أى مركبة أخرى لا يمكنها اللحاق بها فى الطرق الوعرة التى تجتازها .

ويهتم العسكريون اهتماما كبيرا بالأبحاث التى تجرى حاليا لتعديل هذه المركبة بحيث تكون قيادتها أتوماتيكية بالكامل أى بدون سائق . وفى هذه الحالة تتوجه المركبة وحدها طبقا لبرنامج محدد لحالة الأرض التى تسير عليها نحو الهدف المحدد لها وراصدة لأى وجود معادٍ حولها أو فوقها ومدافعة عن نفسها بوسائل حربية ستزود بها



الديناصور الميكانيكى



طائرة بلا نوافذ سرعتها خمسة أضعاف سرعة الصوت

طائرة فوق صوتية للقرن القادم

طائرة القرن الحادى والعشرين ستحلق فى السماء بسرعة تساوى خمسة أضعاف سرعة الصوت.

فمن المعروف أن الطائرة الفرنسية «الكونكورد» تطير بسرعة تساوى ضعف سرعة الصوت. إلا أن تصميم الطائرة الجديدة مختلف تماما فهى بلا نوافذ لأنها ستجعل تركيبها هشا لا يمكنه تحمل الضغط عند مثل هذه السرعة الفائقة. وسوف يشاهد المسافر المناظر الطبيعية للأرض من ارتفاع ١١٠ ألف قدم على شاشة تليفزيونية.

كما تخطط وزارة الدفاع الأمريكية لبناء طائرة تبلغ سرعتها ٢٥ ضعف سرعة الصوت بحيث تقلع هذه الطائرة مثل أى طائرة أخرى ولكنها تستطيع الانطلاق إلى الفضاء الخارجى وبذلك يمكن أن تصبح بديلا اقتصاديا عن المكوك، فتكلفتها تمثل واحداً فى المائة من تكلفة المكوك. وإذا نجحت هذه الأبحاث فيمكن صنع طائرة ركاب سرعتها خمسة أضعاف سرعة الصوت تتسع لخمسمائة راكب.

ولكن الأمر لا يخلو من عقبات تقنية، فنظرا لدرجة الحرارة العالية المتولدة من احتكاك الطائرة بطبقات الغلاف الجوى يتعين صنعها من مواد مقاومة للحرارة وتتميز بصلابة عالية كما تحتاج هذه الطائرة الى تدابير تبريد معقدة ولذلك يفكر الباحثون فى استخدام الهيدروجين السائل كوقود وكمبرد أيضا بحيث يمر الهيدروجين السائل خلال السطح الخارجى للطائرة فيبرده عند تبخره وقبل أن يتم حقنه فى غرفة الاحتراق.

ومن ناحية أخرى فإن أفضل محرك صمم حتى الآن لمثل هذه الطائرة محرك هجين يستخدم التوربينات لضغط الهواء قبل خلطه بالوقود فى غرفة الاحتراق عند تحرك الطائرة بسرعة منخفضة. أما عند السرعات الأعلى فتصبح القوى الهائلة للتيارات الهوائية الناجمة عن اندفاع الطائرة هى ذاتها الضاغط. إلا أن ذلك يتطلب وقوداً سريع الاشتعال وتحكماً دقيقاً فى تيارات الهواء الناجمة عن حركة الطائرة بهذه السرعة الفائقة وهو أمر يستلزم وجود أجهزة كمبيوتر ذات إمكانات فائقة على متن هذه الطائرة.

إلا أن الباحثين يؤكدون أنه يمكن التغلب على جميع هذه الصعوبات وأن الطائرة فوق الصوتية ستكون طائرة القرن القادم وأنها ستعلن عصرا جديدا فى تصميم الطائرات.

الكمبيوتر الضوئى

لا يكتفى العلماء بالسرعة الفائقة لأداء الكمبيوتر فهم يفكرون فى استبدال التيار الكهربى بالأشعة الضوئية حتى يعمل الكمبيوتر بسرعة أكبر ألف مرة من سرعته القصوى الحالية. وبدأ بالفعل انتاج مكونات ضوئية تعمل بهذه السرعة فى معامل البحث.

فبدلا من الترانزستور الذى يعتمد فى عمله على مرور الالكترونات فى طبقات من أشباه الموصلات سيستخدم ترانزستور ضوئى يعتمد على مرور أشعة الليزر خلال مواد لها خواص معينة. فعند تعريض بعض المواد لأشعة ليزر قوية فإن معامل انكسارها يختلف تبعا لشدة الضوء الواقع عليها ومن ثم يمكن باحداث تغيير بسيط فى شدة الشعاع الساقط الحصول على تعديل كبير فى شدة الشعاع الخارج وبالتالى يتكون لدينا نظير ضوئى للترانزستور.

ويتميز استخدام الضوء، أى الفوتونات، بدلا من التيار الكهربى ـ أى الالكترونات ـ فى معالجة المعلومات بميزتين جوهريتين: الميزة الأولى هى السرعة فأسرع الترانزستورات الموجودة لا تتعدى سرعتها واحد على مليار من الثانية فى حين يستطيع الضوء مضاعفة هذه السرعة ألف مرة. الميزة الثانية أن الفوتونات لا تتأثر أو تتفاعل فيما بينها وبالتالى فلا يوجد ما يمنع من استقبال بالتبادل لعدة حزم ضوئية على نفس الرقيقة أو المكون الالكترونى. وتفتح هذه الخاصية آفاقا جديدة أمام الاعلاماتية خاصة بالنسبة للكمبيوتر ذى التنظيم المتوازى فيتم معالجة العديد من العمليات فى آن واحد مما يزيد من السرعة بشكل ملحوظ.



الكمبيوتر فى انتظار أشعة الليزر

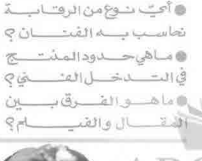
كما يحل الضوء مشكلة أخرى يواجهها الكمبيوتر المتوازى وهى مشكلة توصيل مئات الآلاف من الدوائر الحاسبة، فالتقنيات الحالية لا تسمح بتوصيل مئات الأسلاك على رقيقة واحدة ومن ثم يصبح التوصيل الضوئى هو الحل المثالى.

ويعتقد الباحثون الأمريكيون أن الضوء هو مستقبل الاعلاماتية وانه يمكن خلال عامين بناء أول كمبيوتر ضوئى.



بقلم: رءوف توفيق

٣ تساؤلات تواجه السّينما العربيّة



- أي نوع من الرقابة تحاسب به الفنان؟
- ماهي حدود المنتج في التدخل الفني؟
- ماهو الفرق بين المقال والفيلم؟



نجلاء فتحي وشويكار في فيلم «سعد اليتيم»



يحيى الفخراني في لقطة من فيلم «للحب قصة أخيرة» .. وهو يحاول أن يعيد الود مع والدته ــ تحية كاريوكا ــ ولكنها لا ترضى بزواجه .. ولا تقتنع برغباته عن حياته

إذا كانت السينما التجارية .. تصطدم بغضب النقاد والمثقفين ، وتثير التساؤلات والقلق ، حول الذوق العام ، ومسئولية الفن .. فإن السينما الجادة ، أيضا ، لا تستطيع أن تجد الطريق أمامها مفتوحا ــ دائما ــ بلا مشاكل !

بل إن مشاكل السينما الجادة ، أكثر حدة وصعوبة ، والتساؤلات التي تثيرها من النوع الذي يفتح مجالا أكبر للجدل .

ذلك أن انعدام الفكر ، والسطحية ، والابتذال في الأفلام ، أمر يمكن ادانته بسهولة ، وبإجماع الآراء ، ويستطيع أي فرد أن يحكم ببساطة قائلا : «هذا عمل .. قبيح» .

أما وجود الفكر في الأفلام ، وحيوية إثارة القضايا ، والتعرض للصراع الحقيقي الذي يواجه الانسان .. فذلك أمر قد تختلف بعض العقليات في تقبله واستيعابه ، الذي يصل في بعض الأحيان الى حد الصدمة !

للمرة الأولى

وقد عاشت السينما العربية المصرية خلال الأسابيع القليلة الماضية .. أحداثا مثيرة ، انتقلت تفاصيلها إلى الصفحات الأولى من الجرائد اليومية ، وشغلت مساحة من اهتمام الرأي العام .

وربما .. للمرة الأولى ، ومنذ زمن طويل ، يعقد اجتماع في مقر الحزب الحاكم بمصر (الحزب الوطني) لمناقشة احتجاج السينمائيين على ما حدث لاثنين من زملائهم ، عندما تم استدعاؤهما أمام نيابة الآداب للتحقيق حول مشهد سينمائي في فيلم تم تصويره وعرضه !

وللمرة الأولى أيضا .. ينتقل ثلاثة وزراء (الدفاع ، والداخلية والثقافة) إلى مدينة السينما بجوار اهرامات الجيزة لمشاهدة فيلم في عرض مغلق ، لاقرار الرأي حول السماح بعرضه في الأسواق أو مصادرته !

وللمرة الأولى أيضا .. تقف أجهزة الرقابة في مصر ، عاجزة عن اتخاذ قرار حول فيلم .. بينما يكتل مخرجه ، كل جهوده واتصالاته للافراج عن فيلمه !

وهذه الحالات الثلاث .. للأفلام الثلاثة ، استدعت بالتالي طرح نوعية جديدة من التساؤلات .. لم تكن مألوفة في السينما العربية .

وقد وجدت هذه التساؤلات .. مناخا مناسبا للمناقشة ولاهتمام الرأي العام .. ذلك لأنها تساؤلات مرتبطة بسينما جادة ، تحاول أن تتلمس طريقها وسط نصوص قوانين قديمة لم تعد صالحة لظروف العصر .. وأيضا لم تعد ملائمة لدور الفن .

ما الذي أسرع بالأحداث ؟!

وكنت قد أشرت في مقال سابق ــ عدد الدوحة لشهر ديسمبر ٨٥ ــ الى أن السينما المصرية ستشهد في عام ٨٦ ، مرحلة جديدة في حياتها .. تتميز بالجدية ..

وكان دليلي في هذا القول ، نوعية الأفلام التي أعدها ، أو يستكمل تجهيزها عدد كبير من المخرجين سواء الكبار اسما وتاريخا .. أو الشبان أصحاب التجارب الجريئة والمتميزة .

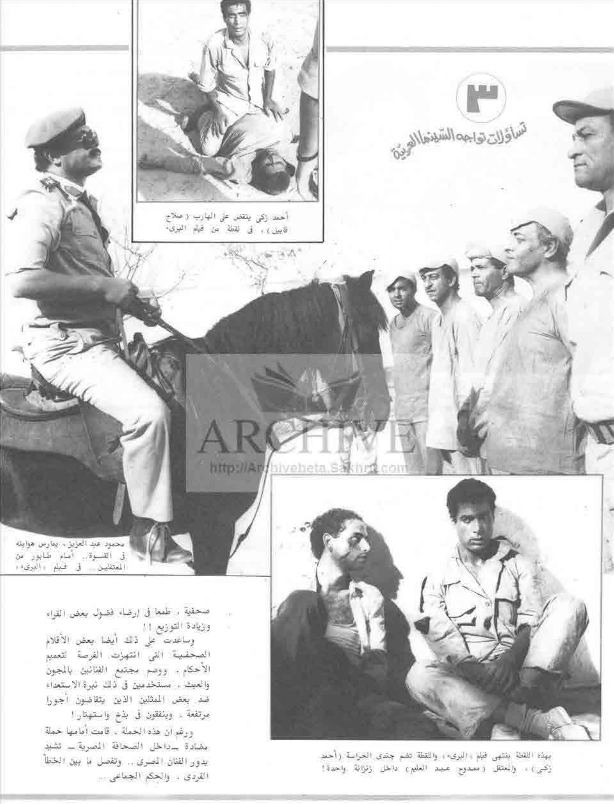
ولم يكد عام ٨٦ يبدأ ، حتى ظهرت بوادر هذه السينما ، وظهرت بالتالي ردود الفعل .

ولكن لم يتوقع أحد أن تصل ردود الفعل الى هذه الدرجة من السخونة ، والايقاع السريع !

ولعل المناخ الديمقراطي الذي تعيشه مصر حاليا ، من خلال تعدد الأحزاب وحرية التعبير في صحف المعارضة ، كان هو أول الأسباب التي أعطت لهذه الأحداث السينمائية الأخيرة ، هذا الحجم ، وهذا الصدى !

ثاني الأسباب هو الإحساس المتضخم لدى عدد كبير من الفنانين المصريين ، أن هناك نوعا من «الود المفقود» بينهم وبين بعض المسؤولين .. أو بمعنى آخر ، عدم ترحيب البعض بقيمة الفن .. وانتظار أي فرصة خطأ ، لشن حملاتهم ضد الفنانين .

ومما لا شك فيه ، أن الصحافة قد ساهمت بقدر كبير في تعتيم الصورة ، من خلال النشر المتوالي والموسع ، والباحث عن أي إثارة



أحمد زكي ينقض على الهارب (صلاح قابيل) ، في لقطة من فيلم « البرىء »

محمود عبد العزيز ، يمارس هوايته في القسوة .. أمام طابور من المعتقلين .. في فيلم « البرىء »

بهذه اللقطة ينتهي فيلم « البرىء » ، واللقطة تضم جندي الحراسة (أحمد زكي) ، والمعتقل (ممدوح عبد العليم) داخل زنزانة واحدة !

صحفية ، طمعا في إرضاء فضول بعض القراء وزيادة التوزيع !!

وساعدت على ذلك أيضا بعض الأقلام الصحفية التي انتهزت الفرصة لتعميم الأحكام . ووصم مجتمع الفنانين بالمجون والعبث . مستخدمين في ذلك نبرة الاستعداء ضد بعض الممثلين الذين يتقاضون أجورا مرتفعة . وينفقون في بذخ واستهتار !

ورغم ان هذه الحملة . قامت أمامها حملة مضادة ـ داخل الصحافة المصرية ـ تشيد بدور الفنان المصري .. وتفصل ما بين الخطأ الفردي . والحكم الجماعي ..

ورغم أن رئيس الجمهورية ، السيد حسنى مبارك ، أعلن فى مناسبتين متتاليتين ــ ختام مهرجان القاهرة السينمائى .. وافتتاح مسرحية ايزيس ــ واستقباله للكاتب المفكر توفيق الحكيم ، والموسيقار محمد عبد الوهاب .. أعلن عن تقديره الشخصى واعتزاز الدولة بدور الفنان المصرى ، وتأكيد حقيقة أن الفنان المصرى هو أحد الثروات الأساسية التى تعتمد عليها مصر ..

رغم ذلك .. ظل الإحساس قائما عند الكثير من الفنانين المصريين ، بأن هناك جهات لا ترحب بهم !

وقد تفجر هذا الإحساس بمناسبة القضية التى أثيرت حول أحد مشاهد فيلم « للحب قصة أخيرة » .

المشهد الذى أثار المشكلة

وهذا الفيلم الذى كتبه وأخرجه رأفت الميهى ، فى ثالث تجربة يخوض فيها رحلته فى الاخراج ، بعد مشوار حافل بكتابة سيناريوهات الأفلام ، يختار أن يكون موضوع فيلمه عن الحياة والموت داخل جزيرة معزولة بأشخاصها وهمومها وخرافاتها .. رغم أن هذه الجزيرة تقع بين شاطىء النيل فى العاصمة القاهرة ، وفى أواخر القرن العشرين .. وكأنما أراد المؤلف المخرج أن يقول لنا من خلال رمز المكان ــ الموجود فعلا ــ إنه بالرغم من العالم الذى يموج بالأحداث والتطورات من حولنا .. إلا أننا مازلنا نعيش داخل جزر معزولة ، نصنعها بأنفسنا ، وبإرادتنا ، وبأفكارنا .. وبأوهام البحث عن المنقذ ، حتى ولو كان هذا المنقذ هو خدعة كاذبة اخترعها البعض ليصدقها الآخرون ! !

وهذا الوهم الكاذب يسيطر على الجميع ، حتى الذين يرفضونه أو يعرفون حقيقته .

والفيلم يحكى قصة زوجين أحبا بعضهما .. ولكن الموت يقترب من الزوج لمرض فى قلبه .. ويظل شبح الموت جاثما طوال المشاهد .. حتى ذلك المشهد ــ المشكلة ــ الذى يجمع بين الزوجين فى لحظات ما قبل الموت .

وهو مشهد قد تختلف الآراء حوله .. وأعتقد شخصيا أنه لم يكن فى مستوى شاعرية الفيلم .. ولكن هكذا تصور المخرج عمله .. وهكذا قام الممثلان بأداء المشهد حسب رؤية المخرج .

● هل يمكن أن نعتبر الممثل الذي يقوم بدور قاتل في فيلم مجرمًا يستحق التقديم إلى محكمة الجنايات ؟

فهل يعتبر الممثل والمخرج متهمين بالفعل الفاضح ، الذى يستوجب التحقيق أمام نيابة الآداب ؟

هذا هو موضوع التساؤل الذى يطرحه ذلك الموقف .

الفرق بين التمثيل .. والواقع !

هل يمكن اعتبار الممثل الذى يقوم بدور قاتل فى فيلم ، مجرما يستحق تقديمه الى محكمة الجنايات ؟

وهل يمكن اعتبار السارق فى فيلم .. هو سارق أيضا فى الواقع ؟

بالتأكيد .. هناك فرق بين « التشخيص » .. وبين الواقع .

التشخيص أو التمثيل .. يخضع لمقاييس وأحكام مختلفة . وإذا حدثت التجاوزات ، فالمحاسبة تأتى هنا من داخل أجهزة فنية متخصصة .

ولهذا لجأت دول العالم فى محاسبة تجاوزات الفن الى أحد نوعين من الرقابة : إما رقابة شعبية عن طريق رجال الدين وذوى العلم والخبرة والحس الاجتماعى . وإما رقابة حكومية عن طريق أجهزة تحكمها اللوائح والقوانين التى تحدد المسموح والممنوع ..

وفى مصر أجهزة رقابة حكومية .

والفيلم موضوع الخلاف ، خضع لتلك الرقابة .. فلماذا امتد الأمر الى نيابة الآداب ؟ !

هذا هو السؤال الذى اجتمع من حوله عدد من الفنانين داخل مقر الحزب الوطنى . وفجر الحاضرون مخاوفهم من استمرار حملة التشهير بهم .

وفى هذا الاجتماع ، قال وزير الثقافة المصرى ، الدكتور أحمد هيكل ، جملته الشهيرة : « أنا مع الفنانين حتى يأخذوا حقوقهم كاملة أو استشهد دون ذلك » !

« البرىء » .. ناقصاً

وبعد أيام قليلة من هذا الاجتماع الساخن ، شهدت مدينة السينما ، بجوار اهرامات الجيزة ، حركة غير عادية .. وأعلن عن حضور وزير الدفاع ، ووزير الداخلية ، ووزير الثقافة .. لحسم موضوع فيلم « البرىء » الذى أخرجه عاطف الطيب .

ودخل هذا الحشد الهام إلى قاعة العرض الخاصة بالمدينة السينمائية ، ليشاهد الفيلم .

وخرج الوزراء من العرض السينمائى ليعلنوا أنه لا مانع من عرض الفيلم .

وانتشر الخبر مطمئنا ..

ولكن المفاجأة المثيرة تكشفت بعد ذلك .. ان منتج هذا الفيلم ، عرض أمام الوزراء ، نسخة من الفيلم حذف منها العديد من المشاهد .. وأن هذا الحذف قام به المنتج دون علم مؤلف الفيلم ، وحيد حامد ، أو مخرجه « عاطف الطيب » . واللذان لم يبلغا أصلا بحضور الوزراء لمشاهدة فيلمهما .

كان تبرير المنتج أنه أراد انقاذ الفيلم من المصادرة ، وحرصا على أمواله ، قام بحذف المشاهد التى قد تسبب المشاكل .

وثار المؤلف والمخرج .. وأبلغا فى مذكرة مكتوبة لنقيب السينمائيين ــ السيد سعد الدين وهبة ــ انهما يستنكران هذا التصرف من المنتج .. ويطالبان بحقهما فى عرض الفيلم كاملا .. ورفعا الأمر الى القضاء .

وهكذا خلق هذا الموقف .. تساؤلا فنيا جديدا على صناعة السينما المصرية ..

ما هى حدود المنتج فى التدخل ؟

شهدت السينما الأمريكية ، قضايا متعددة تمثل أنواعا من التدخل ، من جانب الشركات المنتجة ..

أحيانا يأتى التدخل بحذف بعض المشاهد لعامل الوقت .. وذلك عندما تطول المدة الزمنية لعرض الفيلم بأكثر مما يحتمله نظام دور العرض .

وأحيانا يأتى التدخل بالحذف ، عندما ترى الشركة المنتجة أن التخلص من بعض



المشاهد قد يجعل الفيلم مقبولا أكثر لدى جماهير المتفرجين .. ومقياسها في ذلك العروض الأولى .. والعروض الخاصة التي تختبر فيها مدى جاذبية الفيلم.

وأحيانا يأتي التدخل من الشركة المنتجة .. بحبس الفيلم تماما من العرض والتضحية بما أنفقته من تكاليف عندما يقرر خبراء التوزيع أن تكلفة الدعاية ستكون عبئا مضافا الى ميزانية الفيلم ، والخسارة بحبس الفيلم داخل المخازن .. أهون بكثير من الخسارة المتوقعة أثناء العرض !

وقد بدأت بعض الشركات الأمريكية أخيرا في اتجاه بعدم عرض انتاجها من بعض الأفلام .. والاكتفاء بطبعها على شرائط الفيديو كاسيت وطرحها في الأسواق لمن يريد ..

وفي كل هذه الحالات ، يتحكم العامل التجاري ، وحسابات الأرباح والخسائر ، أو بمعنى أدق حسابات تحقيق أقصى عائد مادي ممكن.

وفي كل هذه الحالات ، هناك خلافات مثارة بين الفن والتجارة ، وهناك قصص شهيرة لمخرجين احتجوا ضد هذا التدخل في أعمالهم الفنية ، ولجأوا أحيانا للقضاء ، واحتكموا دائما للنقاد وحراس الفن ، الذين دائما ما وقفوا في جانب المخرج وحقه في عرض رؤيته كاملة.

فهل تدخل السينما المصرية .. هذا الصراع ؟

مما لا شك فيه .. انه يحسب للممول الخاص ، شجاعته في تمويل فيلم جرىء مثل فيلم « البرىء » ـ الذي يتعرض موضوعه للقهر السياسي والمعتقلات التي يزج فيها أصحاب الرأي المعارض ـ (راجع مقال الدوحة لعدد ديسمبر ٨٥) .. ولكن الى أي حد نعتمد على شجاعة المنتج الخاص .. أم أن الأمر يقودنا بالتالي الى مطالبة الدولة بتبني الانتاج السينمائي الجيد والمتميز .. ذلك أضمن وأكثر

عبد العزيز مخيون في إحدى القصص الفرعية لفيلم « للحب قصة أخيرة » .. حيث يلعب شخصية الطبيب الذي يفترض فيه أن يعالج المرضى ، بينما هو أصلا شخصية مريضة .

ثقة للفنان .. خصوصا فى دول العالم الثالث .. وحيث تصبح السينما ذات وظيفة اجتماعية خطيرة ومؤثرة ؟

ان خسارة المنتج الخاص من تجربة فيلم جرىء .. تجعل زملاءه فى حقل السينما يترددون ألف مرة قبل تكرار التجربة . بينما خسارة الدولة من تجربة فيلم جرىء .. هى خسارة مشروعة .. ولها عائد اجتماعى وسياسى أكبر وأهم .

الفرق بين المقال .. والفيلم !

ونصل الى التساؤل الثالث .. الذى يرتبط بفيلم « العصابة » لمخرجه هشام أبو النصر ..

فما زال هذا الفيلم ــ حتى كتابة هذه السطور ــ معروضا أمام الرقابة التى احتارت كيف تتصرف فيه .. ومازال المخرج يحاول الافراج عن فيلمه ، مستخدما أسلوب العروض الخاصة وتكتيل المؤيدين له .. وأيضا مستخدما كافة حقوقه فى اللجوء الى لجنة التظلمات ولجنة الرقابة العليا

وفيلم « العصابة » يدين بوضوح السياسة الامريكية الاسرائيلية ، ومحاولات فرض التطبيع وقبول الأمر الواقع .

ورغم جرأة الفكرة .. إلا أن ما يعيب الفيلم عدم التماسك الفنى ، والمباشرة الشديدة . والخلط المستمر بين الرمز والواقع .

وهذه العيوب الفنية .. تطرح تساؤلا هاما ..

هل يمكن أن نغفر هذه العيوب .. فى مقابل الفكرة الجريئة ؟ بمعنى آخر .. هل تكفى الفكرة الجريئة . لقيام فيلم ؟ أم أن للفيلم ــ عموما ــ مواصفات أساسية فى البناء الدرامى ومنطقية الأحداث ، وأسلوب التعبير الفنى ؟ ..

وإذا اسقطنا هذه المواصفات الفنية .. فما هو الفرق بين المقال الانشائى .. والفيلم الدرامى ؟

ومع هذه العيوب الفنية .. لا يمكن مصادرة حق هذا المخرج فى أن يقول وجهة نظره .. خصوصا وأن ما يقوله فى الفيلم قد قيل ألف مرة فى المقالات المنشورة بالصحف داخل مصر .

السياسة .. داخل النسيج الفنى

والاتجاه للرأى السياسى فى الأفلام المصرية الأخيرة .. نجد له ملامح واضحة فى فيلم « سعد اليتيم » الذى أخرجه « أشرف فهمى » عن سيناريو وحوار « عبد الحى أديب » .. حيث يجسد شخصية اليهودى الذى يلعب على كل الأطراف لتحقيق مصالحه الخاصة فى البقاء والتأثير والكسب المادى .

وفى زمن الاحتلال الانجليزى لمصر .. وقيام نظام الفتوات الذين يقتسمون أحياء القاهرة . ويفرضون عليها سيطرتهم .. تظهر شخصية « موسى » الذى يدبر المؤامرات ، ويسعى تحت رداء الكذب والخداع محاولا الحصول على قطعة أرض بحجة أن أجداده مدفونون فيها .. ويطلب هدم حائط للبحث تحته عن قبور أجداده .. والرمز واضح تماما لما فعلته اسرائيل فى فلسطين ، وما تحاول أن تفعله الآن فى أماكن أخرى من الوطن العربى .

ويؤكد الفيلم من خلال شخصية سعد اليتيم « أحمد زكى » على الانتباه لهذه المؤامرة . والدعوة لليقظة والاعتماد على القوة الذاتية .

***

وهكذا .. نرى أن كل الأفلام التى يدور حولها النقاش والتساؤلات .. أفلام تحمل أفكارا جادة .. وليس من بينها قصص السينما التقليدية .. أو نضال الراقصات .. أو تهريج المضحكين .

وهذا فى حد ذاته .. يدعو للأمل والترقب ..

فالتساؤلات التى تثيرها الأفلام الجادة .. سترسى مع الأيام مبادىء فنية .. وستقوى الأرض التى تسير عليها السينما التى تحترم نفسها .. وجمهورها ..

رؤوف توفيق



« محمود مرسى » وصراع الفتوات فى فيلم « سعد اليتيم » . وقد حصل محمود مرسى على جائزة أحسن ممثل عن هذا الدور فى مهرجان جمعية الفيلم (ابريل ٨٦)



الهروب بسيارة قديمة .. ومطاردة جندى الحراسة لها .. ظنا منه أن الهارب هو أحد أعداء الوطن .. لقطة من فيلم « البرى »

أخبار ثقافية

يقدمها : يوسف الحرمي

الصحوة الاسلامية .. كيف ؟!

افتتح السيد عبدالعزيز بن تركي وكيل وزارة التربية والتعليم مؤخرا الموسم الثقافي السابع لوزارة التربية والتعليم بقاعة الاحتفالات التابعة للوزارة ، أمام دار الكتب القطرية .

وقد ألقى كلمة أعرب فيها عن أمله في أن تحقق هذه المحاضرات الآمال المرجوة منها في سبيل تكوين وعي ثقافي وعلمي وتربوي ، يهدي الى الصواب ويحث الخطى الى طريق الحق والعدل والخير . وأشار الى أهمية هذه اللقاءات العلمية مؤكدا أنه ليس بالخبز وحده يحيا الانسان في عالم اليوم . وانما بالشعور بقيمته وبالعمل بالحرية والأمل وبالانتماء القوي الى أمته العربية الاسلامية . وأضاف أننا محتاجون اليوم الى اعادة تقييم صفوفنا في وجه الزحف الغازي والمتمثل في ضخ الثقافة الغربية علينا في صور وأشكال متعددة .

عبدالعزيز بن تركي

وقال ان الصحوة الاسلامية بين شبابنا اليوم بحاجة الى ترشيد .

كما ألقى الدكتور يوسف القرضاوي عميد كلية الشريعة والدراسات الاسلامية بجامعة قطر محاضرة تحدث فيها عن الصحوة الاسلامية بين الآمال والمحاذير ، مؤكدا أن هذه الصحوة الاسلامية هي أعظم مايملك المسلمون اليوم . وقال اننا حريصون على ترشيد الصحوة . حتى لاتميل الى اليمين او اليسار . وقال ان هذه الصحوة تعني عودة الوعي مشيراً في هذا الصدد الى الركود الذي أصاب العالم الاسلامي من عهود التخلف والغزو الفكري لبلاد المسلمين .

وأشار الى أن الاقبال على الكتاب الاسلامي وانتشاره بشكل واسع يعد من مظاهر الصحوة الاسلامية حاليا . وقال أيضاً ان الشباب يمثل عماد هذه الصحوة وأشار الى ضرورة حشد طاقات الأمة لمواجهة معركة التحرير والتقدم . كما تحدث عن المحاذير وبين خطر المتشددين والمتزمتين . مؤكدا أهمية خروج الدعوة الاسلامية من الدائرة التي حصرتها فيها المدارس الفكرية . وأن توجه الفهم الاسلامي طولاً وعرضاً وعمقاً ، وأن تمتد هذه الصحوة الى الحياة كلها لتؤثر فيها في مختلف المجالات .

الفنان التشكيلي كامل زهيرى ؟!

الكاتب الصحفي كامل زهيرى الذي يعمل حالياً في دولة قطر كمدير تحرير جريدة « الراية » . كلنا نعرفه ككاتب سياسي ونقيب لاتحاد الصحفيين العرب سابقا .. ولكن الذي لايعرفه القراء عنه هو أنه فنان تشكيلي أيضا . فهو يتمتع بموهبة فنية في مجال الرسم أيضا ، بالاضافة الى امكاناته الصحفية المتعددة . وقد دعاني ذات مرة لزيارته في شقته التى تقع في شارع الجوازات . وتتميز ببعض اللمسات الفنية المميزة من صنع يديه !

فقد شاهدت بعض اللوحات والبورتريهات التي قام برسمها بنفسه . ومن بين هذه اللوحات لوحة لوجه زوجته الصحفية بروز اليوسف السيدة خديجة قاسم .

كما شاهدت لوحات عن الطبيعة والحياة التي يمكن لو جمعها لأقام من خلالها معرضا لأعماله التشكيلية .. فهل تتم هذه الخطوة ليتعرف الناس على الفنان التشكيلي كامل زهيري . بعد أن تعرفوا على الكاتب كامل زهيري ؟!



« الراصد » والتراث الشعبي

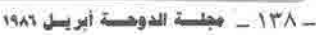
أصدر مركز التراث الشعبي لدول الخليج العربية عدداً جديدا من مجلة « الراصد » تضمن عدة موضوعات هامة عن الأدب الشعبي والموسيقى والرقص الشعبي . والعادات والتقاليد والمعارف الشعبية والثقافة المادية والفنون والحرف الشعبية .

« والراصد » في الواقع تعتبر محاولة جيدة في رصد تيارات الفكر والادب والفن الشعبي في دول مجلس التعاون لدول الخليج العربية ويقوم من خلالها برصد هذه المواد وتحليلها نخبة من المهتمين بالفن والأدب الشعبي بالمركز . من خلال متابعتهم لما يتم نشره بالصحافة الخليجية .

من ناحية أخرى أصدر مركز التراث الشعبي العدد الأول من مجلة « المأثورات الشعبية » مشتملا على قسمين الأول العربي ويحتوى على أبحاث ودراسات « ومرويات » شعبية ومراجعات الكتب والندوات حول الفن والأدب الشعبي وتقارير وأخبار .

محاضرات وندوات ومسابقات ثقافية

في اطار الموسم الثقافي تنظم ادارة الثقافة والفنون التابعة لوزارة الاعلام لموسم ٨٦ مجموعة من المحاضرات والندوات والمسابقات الثقافية . من بينها محاضرة لأحمد محمد عبدالرحمن العبدالله حول « الخفاض عادة أم بدعة » وندوة حول مستشفى حمد العام والمواطن القطري . يشترك فيها د . حجر أحمد حجر وكيل وزارة الصحة العامة ود. عبدالجليل سلمان ود. عبدالله الباكر .



جائزة شعرية عالمية للشيخ مبارك بن سيف آل ثاني



مبارك بن سيف آل ثاني

حصل الشاعر القطري المعروف الشيخ مبارك بن سيف آل ثاني على جائزة ولادة بنت المستكفي مع دبلوم « شهادة » تذكارية من المعهد الاسباني العربي للثقافة خلال الحفل الذي أقامه المعهد مؤخراً بمدريد.

وكان الشاعر الشيخ مبارك قد تقدم بناء على طلب من المعهد بتقديم انتاجه الشعري حسب شروط المسابقة ، وفاز ديوانه « ليال صيفية » بالجائزة.

وقد تسلم الشيخ مبارك بن سيف آل ثاني جائزته عن طريق سفارة دولة قطر في مدريد ، وهو يعتبر هذا الفوز لكل الشباب القطري في هذا العهد الميمون ، عهد صاحب السمو الأمير المفدى وولي عهده الأمين.

من ناحية أخرى أقام المعهد الاسباني العربي للثقافة التابع لوزارة الخارجية الاسبانية حفله السنوي لاعلان نتائج مسابقة ابن خفاجه وابن خلدون وابن طفيل في الشعر والفنون وتوزيع جوائزها لعام ١٩٨٥ . وكان من بين الفائزين الشاعر السوري حسان عطوان والشاعر المغربي أحمد المشاطي والشاعر الاسباني كارلوس مورسياتو.

وجاء فوز الشاعر حسان عطوان بجائزة ابن خفاجه عن ديوانه « معمودية الدم » الذي ألقى الدكتور الشاعر محمود صبح أستاذ الأدب في جامعة مدريد مقتطفات من الاشعار التي احتواها في الحفل الذي حضره السفراء العرب والاجانب . وفي نهاية الحفل تسلم ممثل السفارة السورية بمدريد جائزة الشاعر حسان عطوان وهي عبارة عن ميدالية ذهبية ووسام شرف وثلاثة الآف ريال.

وأمسية شعرية عن الشعر الشعبي يشترك فيها الشاعر ربيع الياقوت من دولة الامارات العربية المتحدة ، ومجموعة من الشعراء الشبان القطريين . ومحاضرة للدكتور رشدي فكار « حول الفلسفة الاسلامية » . ومحاضرة للاستاذ أحمد بهاء الدين حول « الشئون العربية » . وندوة حول العلاقة بين الموسيقى والتراث يشترك فيها كل من عبدالعزيز ناصر الملحن القطري والدكتور مصطفى مبارك الباحث الشعبي بالادارة . كما ستنظم الادارة أيضاً مسابقة في القصة القصيرة ومعرضا للكتاب المحلي ، ومسابقة لرسوم الأطفال.

المجموعة القصصية الثانية

أصدر القاص عبدالله عيسى الموظف بوزارة الاعلام ادارة الثقافة والفنون ، مجموعة قصصية جديدة بعنوان ثلاث نساء وبيت واحد.

وقد احتوت المجموعة على





ثماني قصص قصيرة ، عالج فيها القاص بعض المشاكل الاجتماعية الخليجية ، والقضايا الانسانية المعاصرة والجدير بالذكر أن هذه ثاني مجموعة للقاص عبدالله بعد مجموعته الأولى التي أصدرها في عام ١٩٨٤ . وكانت بعنوان قطار العوانس . وقد احتوت على ثماني قصص أيضاً.

أصالة ومعاصرة

في اطار المحاضرات التي تنظمها كلية الانسانيات والعلوم الاجتماعية بجامعة قطر ألقى الدكتور علي عبدالخالق الأستاذ المساعد بقسم اللغة العربية محاضرة حول الأدب العربي بدول الخليج وشرق الجزيرة العربية بين الأصالة والمعاصرة ، تناول فيها ماشهده شرق الجزيرة العربية من حياة أدبية قديماً بشكل أكد ريادتها للحركة الأدبية ، كما تحدث عن الأصالة في الأدب العربي للمنطقة . وألقى الضوء على قضية المعاصرة لهذا الأدب من حيث كونه قدرة خلاقة مبدعة يتجلى فيها الانتماء والتحرر من إسار المحاكاة والاقتباس.

كما أشار في محاضرته الى موقف أدباء الخليج وشرق الجزيرة متناولاً ماعبروا فيه من أعمال تعكس معاناة الانسان العربي في المنطقة وآماله وآلامه عبر التاريخ ، مما جعل أدبهم جزءاً لاينفصل من تراث الأمة العربية في حاضرها وماضيها.

الجدير بالذكر أن الدكتور علي يعد أحد المتخصصين في الأدب العربي الحديث بمنطقة الخليج وشرق الجزيرة

علمـــاء العرب .. في سلسلة كتب جديدة

عن مركز الترجمة والنشر بدار الأهرام ، يصدر الكاتب القصصي « سليمان فياض » سلسلة كتب جديدة من أدب السيرة عن : « علماء العرب » تتضمن وبأسلوب قصصي أهم إنجازات علماء المسلمين في العصور الوسطى ، في شتى المجالات العلمية ، وهي الانجازات التي أضافوا بها جديدا من المعارف والاكتشافات والابتكارات العلمية ، فوق ماقدمته حضارات العالم القديم في المجالات العلمية ، والتي وضعوا بها أسس التقدم للنهضة الأوربية الحديثة ، وسبقوا بها علماء عصر النهضة في مختلف المجالات العلمية.

وقد أصدرت دار الأهرام من كتب هذه السلسلة كتبا عن : « ابن النفيس » مكتشف الدورة الدموية الصغرى قبل وليم هارفي بعدة قرون ، وعن « ابن الهيثم » عالم البصريات الذي وضع الأساس المعرفي والرياضي للعدسات المحدبة والمقعرة والمكبرة ، ولصندوق التصوير الفوتوغرافي ، ولكيفية الرؤية ، ولأسماء أجزاء العين التي ماتزال تستخدم الى اليوم في شتى اللغات . وعن « البيروني » عالم الجغرافيا الفلكية الذي قال قبل « جاليليو » بكروية الأرض ودورانها حول نفسها على محور مائل ، ودورانها حول الشمس ، وستصدر الأهرام في العام الحالي (١٩٨٦) عددا جديدا من كتب هذه السلسله عن أعلام العرب في الطب والعلوم والجغرافيا.

والسلسلة الجديدة كتبت بطريقة قصصية ، وتضم أهم كتب هؤلاء العلماء العرب وإنجازاتهم العلمية ، في تضمين ميسر ، لكي يقرأها الصغار والكبار.

أصل وصورة





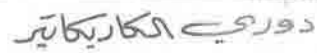
• بين أصل وصورة هذا الرسم الكاريكاتيري للفنان العربي وديع الصافي الذي اشتهر بأدائه المتميز في الغناء . هناك سبعة اختلافات طفيفة . إذا تعرفت عليها أرسلها إلينا لتحصل على جائزة .

لأقوياء الملاحظة فقط!



• أمامك رسوم لستة أشياء متداخلة ، هل تستطيع التعرف عليها وترسلها لنا لتحصل على جائزة ؟

دوري الكاريكاتير





• اقتحم أحد اللاعبين أرض الملعب كالصاروخ وسجل هدفا قويا في مرمى الخصم .. هل تستطيع أن تحدد من هو صاحب هذا الهدف ورقم فانلته ؟



لعبة الظلال



• هل تساعد هذا اللاعب في العثور على ظله الحقيقي ؟ إذا استطعت ذلك أرسل لنا الحل ولك جائزة.

هات أجمل تعليق



حاول أن تجد تعليقا خفيف الظل على هذا الرسم الكاريكاتيرى لتحصل على جائزة.

المثل يقول



• هذا الرسم الكاريكاتيرى يعبر عن مثل شعبي عربي . إذا عرفته ، أرسله لنا لتحصل على جائزة.

يخلق من الشبه أربعين








• الصور الست المنشورة لست شخصيات شديدة الشبه بشخصية الشاعر العربى الراحل محمد المهدى المجذوب الذي كان من أهم دواوينه « نار المجاذيب » و « الشرافة والهجرة » .. بين هذه اللوحات واحدة فقط تشبهه تماما وفي البقية اختلافات بسيطة ، إذا تعرفت عليها فلك جائزة.



بقلم : مريم آل سعد

السُّلطة الخامسَة

القراء مسئولون بشكل أو بآخر عن جودة أو سطحية المطبوعات الصادرة إليهم .. فصمتهم واستسلامهم لما ينشر هو بمثابة الرضا عن مضمون مايطرح ، والتغاضي عن الأساليب التغريبية التي تمتهنها بعض الصحف والمجلات بتجاوزها القضايا الأساسية التي تهم الجماهير . وبتسليط اهتمامها على الأخبار الطريفة التافهة التي تلهي الناس وتثير فضولهم بدعوى معرفة غرائب العالم وآخر ماتوصلت اليه التقليعات العجيبة وما أفرزته السينما العالمية من نوادر وأخبار مشاهيرها ومغموريها .. !

إن العلاقة المبتورة بين القارىء وبين صحيفته أو مجلته كانت دافعاً لاستمرار صحافة التطبيل والتلميع وتزوير الحقائق . التي لم تلمس بعد احتجاج القاعدة العريضة من القراء على نوعية مايباع لهم ..

ليس على القارىء تصفح جريدة أو مجلة ما ، ثم الاكتفاء بالتعليق بينه وبين نفسه على محتوياتها وخصوصاً إذا كان من الطليعة المثقفة بل عليه دور يجب أن يتصدر القيام به وهو توجيه هذه الصحافة ونقدها بالأسلوب الذي يملكه : أليست طليعة القراء هي السلطة العليا التي يجب أن تمارس نفوذها وثقلها لتغيير مايستجد على الساحة (بصفتها الفئة الراصدة بوعي لكل ما ينشر) .. ؟ وألا تملك هذه الشريحة القارئة تصحيح مسار هذه المطبوعات وتحديد أوجه طرحها .. ؟ إن الوعي أداة خلاقة بامكانها صنع صحافة قوية لاتقبل المساومة .

يستطيع القراء إجبار مسئولي المطبوعة بتناول قضية ما ، والبت فيها أمام الرأي العام وذلك باتصالاتهم وإلحاحهم وضغطهم (إن أغلب الحجج التي يتخفى وراءها أصحاب المطبوعات إنما هي أوهام زرعها الصمت الطويل في أذهانهم) وبمقدور قاعدة القراء استرجاع قلم كاتب ارتأت ادارة مطبوعة ما التخلي عنه ضغطاً في المصروفات أو ضيقاً عن بمتابعة مايثيره من آراء قد يعرضها لمساءلة السلطات وهذا ما لا تود الخوض فيه (منذ متى كانت الصحافة مسايرة للواقع .. تزحف خلف الأحداث ولاتساهم في صنعها .. ؟) إنها تركن الى الهدوء والسكينة إذا كان قارئها مستأنساً أليفاً لايحتج ولا يتململ ولا يخترق بصوته الأجواء ليهزها من سكونها البليد ويدفع بها الى حلبة المعارك الساخنة .

متى سيستيقظ القراء من غفوتهم التي تصور لهم بأن مهمة الصحافة هي صنع المستحيل بمنأى عنهم وبدون تدخلهم بينما تنحصر مهمتهم في قراءة المطبوعة فحسب . ومتى عجزت المطبوعة عن تحقيق الذي ينتظرون فهي إذن فاشلة وسيئة ومبتذلة . الصحافة .. أقلام تحتاج الى مبراة حرص القراء ومتابعتهم . فإذا بخلوا بها أخذ القلم يتحرك دون أن يترك كتابة ما ، بل ظل مكانه محلك سر .. وبذلك توقف تطور قلم . والصحافة تكون أحياناً أفكاراً تتحدث لكنها لاتجد الصدى الذي يسترجع ما ناقشت أو يعقب على ماطرحت فتموت الفكرة وتتحلل الى صفحات مكرورة . والصحافة تكون أحياناً قلماً جموحاً لايجد من يلجمه بالتوجيه والرصد فيخطىء طريق الابداع . ويتمنطق في برجه العاجي ويفقد لغة الاتصال مع القراء ويصبح وكأنه يخاطب كائنات من صنع خياله .

الصحافة الحقيقية هي التي تقف في وجه المدفع ، هي النزال إن تفجرت الحرب ، هي الكلمة الصاروخ إن عز الكلام ، وهي القاعدة التي تضم مختلف التوجهات لتصوغها في ضمير يتسلل الى الأعماق لا ليخدرها ولكن لينفث دماء الحقيقة في شرايينها . مطبوعة بدون قراء .. لغة غريبة لايصاحبها شريط ترجمة . وعندما تفقد الصحافة حميمية العلاقة مع قارئها تتحول الى مجرد نشرة رسمية تختص بطباعة البيانات الحكومية وتحتاج الى موظفين لا الى ــ قراء ناضجين ــ لفك رموزها الروتينية المصكوكة بالشمع الأحمر .. !